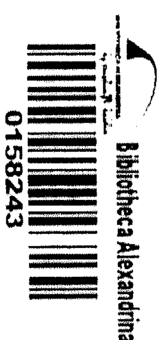
مولود فرعون

الدروب الوعرة

ترجمة: د. حنفي بن عيسى









اهداءات ١٩٩٨

مؤسسة الاهرام للنشر والتوزيع

القاهرة

مولود فرعون

الدروب الوعرة

(Les chemins qui montent)

رواية

«طبعة خامسة منقحة»

1990

ترجمها من الفرنسية

د. حنفي بن عيسى

المؤسسة الوطنية للكتاب

3 ، شارع زيروت يوسف

الجزائر

رقم النشر 2484/86
المؤسسة الوطنية للكتاب
الجزائر - 1990

اذا ما قصدت الاربعاء ناث ييراثن
فالدروب اليها عديدة .
ولكن مهما اخترت الطريق...
فالدروب كلها وعرة .

مثل قبائلي



القسم الاول

المأتمُ



الفصل الاول

أخذت (ذهبية) يوميات عامر ، ووضعتها أمامها ، ثم قربت منها صندوقا ، واتخذت منه مكتبا ، كما رأته يفعل غير ما مرة ، وشرعت تكتب على دفتر صغير بلي غطاؤه الأخضر بعض الشيء . وظلت تكتب مستضيئة بالنور الشاحب الذي ينبعث من مصباح البترول العتيق .

وأدركت أمها ننه (1) مالحة ما يعتمل في نفسها من حزن وألم ، فلم تخاطبها بكلمة ، وانما راحت تعد فراش النوم ، ثم تمددت تحت الغطاء بعد أن حلت حزامها الأحمر الذي حطته غير بعيد من المخدة . وتجردت كذلك من محرمتها (2) لأنها تحب دائما أن تكون مرتاحة في عباءتها ، وأن تترك شعرها المرسل منثورا فوق الحصيرة. انها تكره أن تدخل أي تغيير على عاداتها ، وتلك في نظرها هي الطريقة الوحيدة لمجابهة هذه المصيبة : فلابد من ربط الصلة بين الماضي والمستقبل ، ولا بد من نسيان الحاضر وتجاهله تماما ، كما يفعل العقلاء من الناس الذين يعرفون أن الحاضر لا ينبغي أن

---

1 ـ ننـه : كلمة يخاطب بها الصغار الكبار من النساء احتراما لهن . (المترجم) .

2 ـ المحرمة : المنديل (غطاء الراس للنساء) ، وهي عامية . ولعل اصل التسمية ان « المحرمه » تحفظ للمراة حرمتها (المترجم) .

تكترث له ، لأن الحاضر يحاول دائما أن ينغص المستقبل ، وأن يفسد الحياة.فهو كالشخص المغرور الذي لا يستحي.وهذا بالضبط ما لا يجوز أن يقع فى الظروف الراهنة . والمسألة كلها فى نظرها على غاية من البساطة : ان هذا الحاضر البغيض الذي تريد من ذهبية أن تنساه ، وأن تنساه سريعا ، يتمثل فى عامر الذي مات وانتهى أمره ، فليكن اذن فى حكم العدم .

ولكن ذهبية متأثرة جدا بالمصيبة التي حلت بها . لقد أمضت ساعات طوالا فى قراءة اليوميات ، وها هي ذي الآن تكتب كأنها بنت صغيرة مجتهدة ، أو تلميذة فى المدرسة الابتدائية ، بارعة فى الخط ، ممتازة فى تطبيق قواعد النحو والصرف . ان حروفها صغيرة ، مستقيمة ، شبيهة بما تتصف به من حياء وعطف وحنان ، وذلك واضح كل الوضوح من طريقتها فى رسم حروف السين ، وثني حروف الميم ، ومد حروف اللام والباء والدال مدا ليس فيه غش ولا سوء نية .

انها كتابة فتاة شابة ساذجة ، قادرة على تصوير أحلام جميلة تشغل بال الأطفال ، ولكنها عاجزة عن تنفيس ما يعتلج فى نفسها من حزن عميق وثورة عارمة . وأنى لها ، بمثل تلك الطريقة الساذجة فى الكتابة ، أن تشفي غليلها وأن تكشف كربها ! ولذلك توقفت عند حد الصفحة الثالثة ، وأعادت قراءة ما كتبته ، ثم تنهدت بصوت خافت :

ـــ رحماك يا الهي ، رحماك !

« لقد تركت لي يا عامر بن عامر ما سجلته من يوميات ، وها هي ذي كلها أمامي ... وقد وقع بصري على الأوراق التي تركتها فوق الصندوق بمجرد أن دخلت الى الغرفة . وما فقدت صوابي حين رأيتها هناك . وها أنا أحاول أن أكتب لها كلمة الختام ، فلابد اذن من أن أنوب عنك في السهر طوال الليل . وصلت في يومياتك الى حد الليلة الثالثة عشرة ، فسأكتب اذن الفصل الثالث عشر . ولكنني لست قادرة على أن أعبر عن كل ما يجيش به خاطري ... وما حيلتي في ذلك ؟ وأنا على كل حال سأبذل جهد المستطاع . ان ليلتي هذه ستمتد أياما وأسابيع ، ولكن ، أقسم لك اني لن أعرف بعد اليوم سوى ليلة واحدة ، وان تلك الليلة سأخصصها لك وحدك ، وان حياتي كلها ستكون ليلا طويلا لا يكاد ينتهي ...

صبيحة هذا اليوم ، رجعت أمي من دار عامر ، شاحبة الوجه ، مرتعشة الشفتين ، فهمست بصوت أجش :

ــ يا لها من مصيبة يا بنتي ، لقد مات ... لا تسأليني عن شيء آخر ، وتعالي معي لتري بنفسك .

وعندئذ خيل الي انني وقعت في بئر لا يسبر له غور ، وشعرت بقلبي يدق بعنف ، وأحسست بمغص في بطني ، وبرجلي قد انفصلتا عني ، كما لو أن قنبلة مزقتني الى أجزاء صغيرة متناثرة في هاوية سحيقة . ولاحظت أمي ما آلت اليه حالتي ، فصفعتني صفعتين قويتين ، فانتفضت وصرخت ببلادة :

ــ شكرا .

ثم صرت أجري ، ودفعت الباب ودخلت الى الغرفة فى حالة من الوجوم ، واتجهت الى الصندوق الذي وضعت فوقه الأوراق ، وكنت على يقين انني سأجدها هناك ، فتناولتها ، ولم أعد أبصر شيئا مما حولي ، بل أنا لا أدري اذا كان عامر نفسه مسجى هناك ... وعدت الى دارنا وخبأت رأسي تحت الأغطية ، وانكمشت على نفسي وأمسكت بين يدي مجموعة الأوراق ووضعتها بين فخذي . لم أتحرك من مكاني طوال النهار ، ولم أتناول شيئا من الطعام ولا شيئا من الشراب ، وتركت الأمور كلها لأمي تدبرها كيفما تشاء . ووجدتني أقول فى نفسي ، كما لو كنت أخاطب أمي :

ـــ افعلي يا أمي ، كما لو كنت أنا أيضا ميتة ، بل كما لو كنت غير موجودة بالمرة ... انشغلي به ، واتركيني لوحدي .

لاشك أن باحة دارهم غاصة بالناس . أما أمي ، فقد كانت مشغولة جدا ، اذ رأيتها ذاهبة آيبة ، وكانت كلما خرجت من دارنا الى دارهم ، تغلق الباب وراءها لكيلا يزعجني أحد فى وحشتي .

لا أدري ماذا حدث بعد العثور على جثة الميت ... غير أنني استنتجت ، من الحركة الذاهبة الآيبة ، أن رجال القضاء من الفرنسيين جاءوا للقيام بالتحقيق . ثم أتى من بعدهم من حمل الجثة لدفنها فى التراب ، من غير جنازة ، كما توضع فى التراب جيفة البهائم ... وبهذه الصورة تخلص منه الناس فى شيء من العجلة ، ولم يقرأوا عليه القرآن ، ولم يترحموا على ذلك « الملحد الكافر » . ولعلهم كانوا يقولون فى أنفسهم :

ـ هيا بنا الى تازروت ، لنتخلص من هذه الجثة الكريهة . .

وفي حوالي الساعة الثالثة ، بعد انصراف رجال التحقيق مباشرة، ارتفع في باحة الدار ضجيج لا يكاد يبين منه شيء ، ثم سمعت وقع أحذية أمام الباب ، ثم لم أعد أسمع شيئا . وبعد لحظات دخلت أمي ، وجلست بالقرب من الكانون (1) وأخذت تبكي ... غير أن بكاءها أزعجني ، فقلت لها صارخة :

ـ اسكتي ... انصرفي من هنا ، واتركيني لوحدي .

ـ هل أنت مجنونة يا ذهبية ؟

ـ نعم ، نعم أنا مجنونة . ألم تدركي ذلك بعد ؟ .. يا الهي ؛ يا الهي رحماك ...

ورددت ذهبية هامسة :

ـ يا الهي ، يا الهي رحماك ...

ثم اقتربت من أمها وأطفأت المصباح الصغير بعد أن أخذته من فوق الصندوق وحطته بالقرب من الوسادة ، واضطجعت على فراشها البارد وتمددت كأنها أرادت أن تتحدى الأرض المصقوعة التي لم يكن يقيها من بردها سوى الحصيرة والغطائين . ولقد كان من عادتها أن تدنو من أمها حتى يسري اليها الدفء سريعا ،

1 ـ الكانون : حفرة في وسط الغرفة ، توقد فيها النار . وقد وردت بهذا اللفظ في النص الفرنسي (المترجم) .

ولكنها فى هذه المرة لم تفعل ذلك ، بل ظلت ساكنة فى مكانها ، حتى لا توقظ ننه مالحة . انها تشعر بالرغبة فى أن تبقى بمفردها فى تلك الظلمات ، وأن تواصل تفكيرها ، وأن تناجي نفسها بجميع تلك الخواطر التي تود لو أنها تستطيع أن تسجلها على الورق ، ولكنها لا تستطيع ، لأن تلك الخواطر أبت أن تخرج الى حيز الوجود ، فبقيت فى نفسها كأنها غصة خانقة . وهي تشعر بتلك الغصة فى حلقها وفى رأسها وفى صدرها وفى بطنها... تشعر بها حملا ثقيلا لم يلبث أن خيم على كيانها كله .

انها لم تعد تطيق ذلك الحزن الذي استولى عليها من الرأس الى أخمص القدمين ، وأفقدها الشعور حتى أصبحت صورة حية للحزن الذي استبد بكيانها وطرحها جثة هامدة فى فراشها ، فلا تكاد تبدي حراكا ، لكيلا توقظ ننه مالحة .

ثم رفعت صوتها مبتهلة :

ـ رحماك يا الهي ، وبورك اسمك ، وتعالت قدرتك .

وصارت تردد بصورة آلية صلاتها ، تلك الصلاة التي تعلمتها بعدما تنصرت ، من الأب دوبوا الذي يتحدث اللغة الامازيغية [1] بطلاقة . وقد ترجم الأب دوبوا أقوال المسيح لكي يحفظها التلامذة فى آيت واضو .

ورددت ذهبية صلاتها بالامازيغية أولا ، ثم بالفرنسية ، وعندئذ حدثت المعجزة :

1 ـ الامازيغية : لغة الامازيغ ، اي البربر (المترجم)

لقد خيل اليها ان عامرا لم يمت ، وان الظلمات تبددت ، وانها ليست نائمة بالقرب من أمها . وتمثلت نفسها مع عامر ، في وضح النهار ، تمثلت نفسها معه هنا ، في دارها ، حيث جاء ليراها للمرة الأخيرة . وكانا لوحدهما ، لأن تنه مالحة خرجت من الدار في وقت مبكر وذهبت لكي تقطف الزيتون في حقل شيخ البلدية . وتبادلا النظرات والابتسامات فشجعها ذلك ، وأحست في نفسها بقـوة تدفعها الى أن تبوح بكل شيء وأن تفتح قلبها لحبيبها حتى تكشف له ما تكنه فيه ، ويعرفها حق المعرفة ، ويتفهم موقفها ويغفر لهـا ذنبها . ووجدت نفسها تناجيه بهذه العبارات :

« ما هذه الابتسامة الكئيبة يا حبيبي ؟ ألا ترى انني وهبت نفسي لك وحدك ؟ لقد كشفت لك عن جميع أسراري ، وأقسم لك بحبنا أن لا أكون بعد اليوم الا لـك وحدك . اقترب مني وداعبني وضمني اليك . ألم تلاحظ بأن وجهي لم يعد يحمر حياء منك ؟ شكرا يا عزيزي ، لقد عادت اليك الابتسامة التي أحبها ، ورفت على ثغرك الجميل ، وأشرقت في عينيك الصافيتين صفاء الذهب ... عادت ابتسامة ذلك الوجه اللطيف المليء بالرجولة ... ذلك الوجه الملائكي ، يا ملاكي العزيز ...

« أنا الآن مطمئنة لأنك فهمتني ، بل غفرت لي قبل أن تفهمني . ولتكن مطمئنا يا عميروش (1) ... فسوف أصارحك بكل شيء اذا كنت ترغب ذلك ، ولابد انك تريد الصراحة ، لأنه من الأفضل أن تعرف حقيقة ما وقع .

---

1 ـ عميروش : تصغير عامر . (المترجم) .

« حرام أن يحطم مقران سعادتي ... ان هذا الشخص يكرهك ، ولكنني، أنا أيضا صرت أكرهه . انه دنيء وغليظ ، وأنا على علم بأنه خائف منك يا عميروش . انه خائف من أن تهينه وأن تسلب عقل زوجته ، بل هو متأكد انك سحرتها ، وهذا ما يتهامس به سائر الناس في القرية ، لأنك جميل ، ولأنها لا تخفي على أحد انها وقعت في حباك . سامحني اذا قلت لك بأنني أنا أيضا غيورة من هذه الفتاة التي هي أجمل مني ، وأسعد حظا .

« المشروع الذي سنحققه معا على غاية من البساطة . أنصت الي يا عزيزي :

ان آمالك في مغادرة البلاد شيء رائع ، فعليك اذن أن تبيع ما نسالك من متاع ، ثم لنرحل معا . ولتعرف بأن حبيبتك ذهبية لن تشجعك على البقاء في هذه القرية التعسة . سأذهب معك الى أي مكان تشاء . ومهما كان الطريق الذي سنسلكه وعرا ، فانه سيهون امامنا ... لنرحل عن هذه الديار ، ولنغادر هذا المكان التعس الى الأبد . ولننتقل الى بلد آخر نعاشر فيه من نشاء ، فلا يدري أحد أين كنا ، ولا من أين جئنا » .

لن تنسى ذهبية الشهور الستة التي قضتها بالقرب من عامر . وها هي ذي تستعرضها كأنها شريط مسجل الى الأبد في ذاكرتها ، وسيظل دائما في متناولها لتستعرض صوره متى شاءت ..

واسترسلت في مناجاتها :

« بورك اسمك يا الهي .. ان عامرا لا يزال حيا يرزق . لم أنعم بقربه البارحة طوال النهار ؟ لقد صرت زوجته منذ البارحة ، ولن تكون له بعد اليوم زوجة أخرى سواي ، كما أنني لن أكون لغيره أبدا ... لا أعتقد أنه سيؤاخذني على ما فعلت ، ولن يخطر بالبال أنني لست عذراء ، وأن مقران إنتهك عرضي بالغصب والقوة ، انتقاما من عامر ، حتى يلطخ شرفي وشرفه ... هذا مستحيل ، ولا يمكن أن يقع . وهل يموت المرء من أجل مسألة تافهة كهذه ، ويحطم بذلك حياة أعز الناس اليه ؟ »

ستة شهور ... اشتدت خلالها أواصر المحبة بينهما ... وتمددت ذهبية فى مضجعها بالقرب من أمها ، من غير أن تلامسها ، وخيل اليها أن عينيها المحملقتين فى ظلمات الدار الصغيرة المغلقة ، تبصران على صفحة السقف نقطة مضيئة مترافصة ، كأنها فتحة تطل على الغيب ، حيث وقف حبيبها يتطلع اليها . وصعدت اليه سعيدة بلقائه ، وأرته أجنحتها باعتزاز وافتخار ، فتطلع كل منهما الى الآخر. ورفت ابتسامة على شفتيهما ، بعد ما لاحظا أنهما متشابهان كما يشبه الاخ أخاه ، وأن الوجه منهما يشبه صورة الملاك المجنح الموجودة فى كنيسته آيت واضو .

وغمرها سرور كبير لأنها تستطيع بعد اليوم أن تذوق للسعادة طعما . فلو لم تحب عامرا ، ولم تكتو بنار ذلك الحب ، لما استطاعت اليوم أن تتصور معنى السعادة . أما الآن فهي تدرك ، وتدرك تماما ، أنه أصبح فى امكانها كل يوم وكل ليلة ، ومتى شاءت ذلك ،

أن تستعيد ذكرياتها فى وحشتها . ولن تكون الذكريات سوى نقطة الانطلاق . وستذهب حيث شاءت وشاء لها الهوى مع عامـــر ، وستكون له زوجة ، وستعيش معه فى سعادة وهناء .

ستكون كغيرها من الناس : متقلبة بين الواقع والخيال ، غير انها ستعيش فى عالم الخيال أكثر مما ستعيش فى الواقع ... على أن وجه عامر المشرق كلما تمثلته ، سيطرد ذلك الواقع الكريه الذي سيصبح كأنه كابوس مخيف . ومهما حاول الاشرار فى ايغيـــل نزمان ، أمثال مقران ، أن يحطموا حبها ، فانها ستظل وفية لحلمها الجميل ، وستعيش الى الأبد فى ثنايا ذلك الحلم .

الفصل الثاني

ان ذهبية تعتقد جازمة أنها بنت لا كالبنات الأخر ، وبالتالي فهي شبيهة بعامر الذي هو رجل لا كبقية الرجال . وقد كانت دائما تصدر عن هذه الفكرة فى حياتها ، مما جعلها تنطوي على نفسها كأنها زهرة ناعمة خائفة من أن تتفتح . وهذا أمر لا يخفى على كل من يصادفها فى الطريق لأول مرة : انه سيرى وجها جميلا صافي القسمات ، مشرق البشرة ، ولكنه وجه بارد . وبالفعل فهو بارد برودة قد لا تقشعر لها الأبدان ، ولكنها تثير فى النفس الكآبة ، لأنك تحس تجاهها انها برودة مصطنعة ومفروضة عليها كما لو أن هناك أحدا يغار على جمالها ويريد فى بعض الأحيان أن يضفي عليها وجها مستعارا عابسا . ولكن ذهبية لا تكاد تبتسم قليلا ولا تكاد ترفع عينيها الزرقاوين النجلاوين ، لتوجه اليك نظرتها العذبة الناعمة ، ولا تكاد تفتح شفتيها الرقيقتين كأنها أكمام زهرة رائعة ، حتى يزول ذلك الوجه المستعار ، وحينئذ لا تملك نفسك من أن تصيح صيحة الاعجاب .

لقد كان هذا الوجه لغزا مغلقا بالنسبة الى عامر ، فعقد العزم منذ بداية التعارف ، على أن يكشف سره ، لا عن فضول ، بل

عن محبة وعطف . لقد كان يحس بنوع من التمرد يختلج فى نفس ذهبية بنوع من التمرد أشبه ما يكون بتمرده هو ، لكنه أعمق وأكثر تعبيرا عن اليأس . بل هو تمرد لا يمكن للانسان أن يدرك له كنها . ومما زاده حيرة أن ذلك الوجه الجميل وتلك العيون المتفتحة على الحياة تناديه وتستنجد به فى اضطرابهـا . ولكن كيف السبيل الى أن يكشف عن سر ذلك اللغز ؟ .. وهكذا فلم يعرف عامر من أمرها شيئا ما عدا بعض الاعترافات التي أسرت بها اليه فى اليوم الأخير ، فلم ينل منها بغيته ، ولم يدرك من اللغز شيئـا .

عندما دخل عامر صبيحة البارحة وجلس على المقعد الحجري الموجود تحت السدة ، ضم ذهبية اليه وأسند رأسه على صدرها وأخذ يستمع الى دقات قلبها . وكانت ذهبية واقفة ترتعش من التأثر ، وأدركت أنها ، ان هي بادرته بالمداعبة ، فسوف يضمها بين ذراعيه بنعومة فى البداية ، ثم بعنف متزايد . وتلك هي طبيعته ... فهو متأن فى عمله ، غير مستعجل ، خجول مع سائر الناس . وهي تحب منه ذلك ، لأنه يبعث فى نفسها الثقة والأمان ... وعلى هذا ، فبينما كانت فى صبيحة البارحة تداعب خصلات شعره ، كما لو كان طفلا صغيرا ، وقد أسند رأسه على صدر حبيبته ؛ قال لها فرحا مبتسما :

ــ أحب أن أستمع الى نبضات قلبك . لأن قلبك يحدثني عن قصة حياتك . انه لا يخبيء عني شيئا ... وبفضله سأعرفك جيدا .

فأجابته :

ـ أود منك أن تخبرني ... ولكن فيما بعد ، لا الآن ... أن تخبرني عما يقوله الناس عني .

ـ ما يقوله الناس ؟

فاستدركت قائلة :

ـ قل لي اذن ما هو رأيك .. أما رأي الناس فلا يهمني ..

ولكنه مات ، ولن يقول لها شيئا بعد اليوم . على أنها هي تستطيع أن تستمر فى افضاء ما فى قلبها له ، وسيسمعها بكل تأكيد . وبما أنها ستنفرد بالكلام ، فان صمت حبيبها سيكون دليلا على الموافقة والرضى .

وظلت تتطلع الى السقف محاولة أن تعثر من جديد على النقطة المضيئة التي كانت تتراقص فوقها . غير أنها لم تبصر شيئا بالمرة . وتساءلت متفجعة هل تسند رأسها بعد اليوم على صدره ، وهل يضمّها بين ذراعيه ؟ وهل ستراه مرة أخرى عائدا من النادي أو من المقهى ، عابس الوجه بعض الشيء ، كما اعتاد أن يفعل فى المدة الأخيرة ؟ ولكنه مات ، ما فى ذلك شك ، وترك من ورائه فراغا هائـلا .

وعندئذ توترت أعصابها من التأثر فحشت طرفا من الغطاء فى فمها ، وعضت عليه بكل ما أوتيت من قوة ، وتنهدت :

ـ لن يعود ، لن يعود أبدا ، خلاص ، يا الهي ، خلاص .

وانتفضت في مكانها واستوت جالسة على فراشها وتمثلته بين ذراعيها فاحتضنته الى صدرها في قوة وعنف . آه ، لن يعرف أبدا كم هي تحبه ، والى أي حد صار يملأ الأيام والساعات والثواني من حياتها منذ أن أدركت بأنه سيقع في حبها وسيكون لها وحدها . انها الآن آسفة على حياتها السخيف الذي منعها من أن تبوح له بجميع أسرارها . ولعل الكبرياء هو الذي حال دون ذلك . الويل لكبريائها ! ومن هي حتى تكون متكبرة ؟ بنت حرام بكل تأكيد ... وقد عرف ذلك قبل موته ، وعزاؤها الوحيد في ذلك انها ، على الأقل ، اعترفت له بهذا الأمر المشين . ولو وجدت متسعا من الوقت لاعترفت له بكل شيء ، نعم بكل شيء . ومن يدري ، فلو أنها فعلت ذلك لنجا من الموت والهلاك .. وهكذا اقتنعت فيما بينها وبين نفسها أنها هي التي قتلت عميروش .

لا يسعها الا أن تلاحظ مرة أخرى أنها منحوسة على كل من يتصل بها . وهي تتذكر جيدا كيف أنها، حينما كانت طفلة صغيرة في المدرسة ، كانت تعد من أكثر البنات ازعاجا وتشويشا . فاللعب معها يتحول الى خصومة وعداوة . ورفيقاتها يقابلنها بالصد والنفور . وكلما عطفت عليها احدى الراهبات ، تأبى الاقدار الا أن يأتي الامر بنقل تلك الراهبة الى مدرسة أخرى . واذا رغبت في ثوب أو منديل جميل ، فانها كانت دائما تحرم منهما ، بينما جميع رفيقاتها يجدن كل ما يرغبن فيه . ولكل بنت من رفيقاتها أم واخوة وأب .. أما هي ، فليس لها سوى أمها .. أمها لا غير . وقد

عرفت هذا السر فى التاسعة من عمرها ، حين أصيبت بمرض خطير ، فجاء اليها من كانت تظنه هو أبوها ، وصرخ فى وجهها :

ــ موتي اذا شئت يا ساقطة ، فلست بنتي .

على أنه هو الذي مات . مات بعدما ترك فى قلبها جرحا أليما . ومنذ ذلك الحين لا ينقضي يوم الا وتحس فيه أن ذلك الجرح قد ازداد فى قلبها عمقا . وصارت من ذلك اليوم قاسية فى حكمها على أمها ، شاعرة بالخزي والعار تجاهها ، حاقدة على أبيها ، محتقرة له ، غير مبالية بكلام أمها ، متهربة من أبيها الذي كان فظا غليظا ، ويغض الطرف عن سلوك زوجته وخيانتها ، ولا يصحو من السكر والعربدة . ومع ذلك فهي فى بعض الاحيان تشعر بسرور خفي لا يخلو من المرارة والأسى ، حينما تقول فى نفسها بأنه لا علاقة لها من حيث الأخلاق والصفات بهذا الشخص الدنيء . وأمها على كل حال ، امرأة ذات عواطف نبيلة وذكاء لا بأس به ، بل ربما هي أيضا من ذوات الفطنة والذكاء . ولاشك انها ورثت هذه الصفات الحميدة عن شخص آخر ، عن أبيها الحقيقي الذي بقي فى الخفاء ، ذلك الأب الذي لن تعرفه أبدا ، والذي تكرهه بجميع كيانها ، لأنه جعل منها ، وهي البنت الرقيقة الشعور ، فتاة محرومة لم يبق لها من وسيلة فى الحياة سوى جمل الحقد والضغينة للناس . لماذا جعلت منها الأقدار فتاة مسيحية فى قرية آيت واضو ، بينما سائر أبناء المنطقة مسلمون ؟ نعم ، كلهم مسلمون فى جميع أنحاء المنطقة ما عدا آيت واضو وبعض القرى الأخرى ، حيث يشكل المسيحيون أقلية صغيرة ... بل ان المسيحيين فى منطقة القبائل لا يعتد بهم ولا

يحسب لهم حساب ، حتى ان أبناء عمها فى ايغيل نزمان قد تناسوا الأمر ، ولا يعتبرونها مسيحية . وهي فى أعماق نفسها تشعر بالارتياح اذ ترى أبناء عمومتها قد تناسوا الأمر . ولكنها مع ذلك تعرف ، وأمها هي أيضا تعرف ، ان الناس فى الواقع لا ينسون ... لا ينسون أبدا .

لقد تأكدت ننه مالحة من شيء واحد على الأقل : وهو أنه لن يرغب أحد فى الزواج من بنتها . ومما لاشك فيه أن جميع السكان يشتهونها كفتاة للتسلية والمتعة ، ولكن لن يرغب أحد منهم فى أن يتخذها لنفسه زوجة . أضف الى ذلك أنها فقيرة ، وما من أم لتقبلها زوجة لابنها . هذا الأمر يسبب لننه مالحة كثيرا من القلق ، لأن همها الوحيد هو تزويج بنتها . وقد أصبح ذلك أكثر الحاحا على قدر ما كانت ذهبية تكبر وتنمو وتستدير أعطافها ويبرز نهداها ويتفتح وجهها الوسيم .

وكانت فى بعض الأحيان تقول فى نفسها : « كم أنا غبية ! هل يمكن أن تبور (1) مثل هذه الفتاة الجميلة ؟ صحيح انها مسيحية ... ولكن ما الفرق بيني وبين سائر نساء ايغيل نزمان ؟ أما الفقر فأنا بالفعل فقيرة . آه من الناس ! انهم لا يقيمون الحساب الا للمال ، ومع ذلك فمكتوب عليها أن تتزوج كبقية البنات ، والأمر كله مسألة مكتوب ، فلا داعي للقلق اذن » .

1 ـ بارت الفتاة : لم تتزوج ، كالارض البور التي لا تحرث (استعمال محلي) . (المترجم) .

أما ذهبية فكانت تقول فى نفسها : « صحيح ان أمي ليست مسيحية ، وقد لاحظت ذلك من زمن بعيد ، ولكن ، كم يبلغ عدد المسيحيين العاملين بتعاليم المسيحية فى قرية آيت واضو ؟ »

وهي اذ تستعرضهم واحدا واحدا لا تجد أحدا ممن هو كذلك . ان الطائفة المسيحية فى آيت واضو كثيرة العدد ، بل يكاد يبلغ عدد أفرادها النصف من الأهالي ، وجميع هؤلاء ، ما بين مسلمين ومسيحيين ، يتعاملون ويتعاشرون فيما بينهم فى سائر أيام الأسبوع ، ما عدا يوم الأحد . ففي ذلك اليوم ، يحضر جميع أفراد الطائفة ، صغارا وكبارا ، رجالا ونساء ، يحضرون جميعا من الحي السفلي فى القرية الى كنيسة دير الراهبات . انهم يقومون بنزهة جميلة فى أيام الصحو فيغتنم كل واحد منهم هذه الفرصة ليعرض أحسن ما عنده من عباءات أو مناديل صفراء مزينة بأهداب طويلة ، وفوطات وفساتين وجوارب النيلون وحلي عتيقة . انهم يشعرون فى أيام الأحد هذه أنهم يختلفون بعض الشيء عن بقية الناس : وأنهم الى حد ما أعلى مرتبة وأكثر حرية ، لأن الحواجز التقليدية بين الرجال والنساء وبين الكبار والصغار لا تلبث أن تزول فى معبد الاله . واذا كان بعض الشبان يغتنمون تلك الفرصة لمغازلة البنات ، فان هذا الأمر يتم بمعرفة الخوري ورضاه ، وكأنه بذلك يريد أن يشعر المسيحيين أن الله قد خصهم دون سائر المسلمين من أهالي القرية بامتياز المغازلة والحب ، اذا عرفوا كيف يستغلون الفرصة .

وبالفعل فهم لا يدعون الفرصة تفوتهم ، لأنهم يتزاوجون ، وفيما بينهم فقط . والواقع انه قد يتزوج المسيحي أحيانا من مسلمة ، أو

المسلم من مسيحية ، ولكن هذه أحوال شاذة ، واذا حصل ذلك فان الأسر التي تنشأ عن مثل هذه الزيجات هي بدورها شاذة ، فلا هي بالمسلمة ولا هي بالمسيحية ؛ ويهمل أفرادها الشعائر الدينية ولا يعنون الا بشؤونهم الخاصة ... وذهبية لا تحب المسيحيين من قريتها ؛ لأنهم فى نظرها ليسوا مخلصين فى اعتقادهم ، فالكثير منهم اعتنقوا المسيحية من أجل غرض فى أنفسهم ؛ بل الأغراض المادية هي التي دفعت بهم جميعا فى البداية لاعتناق المسيحية . وأولادهم مسيحيون بالوراثة ، غير أن هذا التقليد أصبح بالنسبة الى الكثير منهم عبئا ثقيلا . ومع ذلك فهم يعاملون المسلمين بشيء من التكبر الذي لا يخلو من الازدراء ، ويخوضون معهم فى مناقشات حادة حتى يقنعوا الناس بأنهم أرفع منهم شأنا . ولهم حجة دامغة يتذرعون بها دائما فى جدالهم ، ويحاولون بها افحام خصومهم . فهم يقولون للمسلمين :

ـــ انظروا الى الراهبات والى الآباء البيض ، وما يقومون به من أعمال البر والاحسان ، وما يقدمونه من خدمات لأمثالكم من الجاحدين بالنعمة ، ثم قارنوا بينهم وبين الشرفاء والمرابطين (1) الذين تدينون لهم بالولاء ، وتذكروا عاداتهم الشنيعة فى كتابة الحروز ، وما يدبرونه من مكائد لغش الناس ، وما لهم من عيوب قبيحة ، وما يتصفون به من بلادة ... كونوا واقعيين ، وافتحوا عيونكم لكي تروا الأمور على حقيقتها .

---

1 ـ توجد فى كل قرية من قرى منطقة القبائل جماعة من الشرفاء والمرابطين ، وهم يضطلعون بالصلاة على الجنازة والصلح بين الناس الخ ... (المترجم) .

الا أن المسلمين ، عوضا من أن يفتحوا عيونهم ، فهم على العكس لا يعبأون لكلامهم ولا يردون عليهم جوابا . ولو شاءوا لردوا عليهم قائلين : « اذا كان في سيرة المرابطين مجال للانتقاد فالذنب ليس ذنب الدين ، والديانة المسيحية نفسها قد مرت بعهد لم يكن فيه القسيسون أكثر تقى وأحسن سيرة من المرابطين » .

الا أن المسلمين يفضلون الصمت . وفي هذه المناقشات التي تجري بين المسيحيين والمسلمين ، يلاحظ أن المسيحي دائما هو الذي يفقد السيطرة على أعصابه ، ولعل السبب في ذلك هو أن المسيحيين لا يشكلون الأكثرية . أما المسلمون فهم متيقنون بأنهم على هدى وبصيرة ، اعتمادا على وفرة عددهم . ولا يملك المسيحي في آخر الأمر الا أن يخامره الشك في نفسه وأن يقول بأن المسلمين بالفعل هم على الصراط المستقيم .

ان ذهبية تعرف جيدا أبناء طائفتها : فليس لهم من المسيحية سوى الاسم . وقد سن لهم أحد الاوائل ممن اعتنق المسيحية في بداية هذا القرن ، سن لهم سنة أصبح الكثير منهم يتبعونها (وبالمناسبة فقبره موجود في جبانة الكنيسة ، وعليه صليب) . ومن النوادر التي تحكى أن هذا المرتد عن الاسلام فوجيء ذات يوم من طرف أحد الآباء البيض ، وهو يؤدي فريضة الصلاة في المسجد ، فقال له الاب :

ــ يخيل الي أنني رأيتك البارحة في المسجد ، أليس كذلك ؟

ــ نعم يا أبي !

ـ ولكن ... ولكن عهدي بك قد خرجت من دين الاسلام •

ـ وماذا يمنعني من أن أكون مسلما ؟ لقد ولدت مسلما ...

ويقال ان الاب لم يلح كثيرا فى الموضوع . أما اليوم ، فهؤلاء المرتدون عن الاسلام لا يؤدون الصلوات فى المسجد ، ولكنهم يحلفون بالاولياء والصالحين ، ويحرصون على ختان أولادهم كالمسلمين ، ويحتفلون بالاعياد الاسلامية احتفالهم بالاعياد المسيحية ، ولا تقل نساؤهم عن غيرهن فى الايمان بالخرافات والثقة التامة بالعجائز وزيارة الدراويش ليكشفوا لهن عن الغيب .

كل هذا تعرفه ذهبية؛كما أنها تعرف غير ذلك من الامور. وبطبيعة الحال فان أبناء طائفتها وقع جميعا تعميدهم من طرف الكنيسة المسيحية ، وأصبحوا من يومئذ يعرفون باسم مسيحي ، لأن الآباء البيض وزعوا عليهم بسخاء أسماء النصارى مثل : « ماري » و « جان » وخاصة « أوغستين » و « مونيك » . الا أن الاسماء المحلية : كمحمد وآكلي ورابح وسعيد ، دائما مقترنة بتلك الاسماء المسيحية ، وللناس الخيار فى هذه أو تلك عند المناداة والدعوة .

جميع الناس فى آيت واضو ميالون للحكومة ، اذ أنهم ـ بمساعدة الآباء البيض ـ يحصلون دائما على وظيفة . وكان الرجال منهم فى السابق ينخرطون فى الجيش ، فاذا أنهوا الخدمة العسكرية وأحيلوا على التقاعد ، عادوا الى قريتهم ليحصلوا على أعمال مخصصة لهم ، فيكون منهم القهواجي أو الناطور

أو الدركي . أما اليوم فقد أصبح منهم ممرضون فى مختلف مستشفيات الجزائر وحراس فى السجون المدنية ، ورجال شرطة . أما الذين لم يحصلوا منهم على وظيفة ، فهم دائما مرتبطون مع الموظفين بقرابة أو نسب ، مما جعل سكان هذه القرية ، سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين، يعتقدون بأنهم يساهمون بصورة فعالة فى تسيير الشؤون العامة . وقد جعلهم هذا الامر ، وخاصة المسيحيين منهم، يعتدون بأنفسهم، كما جعلهم يميلون الى الفخفخة، حتى صاروا يتشبهون بالفرنسيين ويعتقدون بأنهم فى المنزلة مثلهم أو أدنى منهم بقليل . وهذا ما دعا الشبان من الجيل الجديد الى تقليد الفرنسيين فى كل شيء ، وهذا ما صيرهم أكثر حساسية وتأثرا من الكبار ... فاذا لاحظوا مثلا أنهم رغم كل ما يفعلون ، لا يزال ينظر اليهم باحتقار من طرف الفرنسيين ، فانهم يسخطون أشد السخط على المسيح والمسيحيين ، بسبب هذه التفرقة العنصرية .

ان أسرة ذهبية أفقر الاسر فى القرية ، ولم يكن أحد يقيم لافرادها أي اعتبار ، مما جعلها منذ صباها تكن الحقد لهؤلاء المسيحيين المنافقين ، كما أنها منذ صباها منحت قلبها الغض للسيد المسيح الذي كرس حياته لخدمة الفقراء والمحرومين والمتألمين الذين ليس لهم لسان يعبر عن آلامهم . وهكذا فقد هامت فى خلواتها مع نفسها ، بمحبة المسيح وأمه العذراء .

وكانت ذهبية قد حاولت أن تجد من تخلص له الود والصداقة ، غير أنها قوبلت فى كل محاولة بالصد ... من طرف أمها ، ومن

طرف أبيها ، ومن طرف الراهبات ومن كل رفيقاتها . وصارت تكره من صميم قلبها كل من همه الوحيد جمع الاموال ، لأن الناس من حولها لا يتحدثون الا عن الاموال والارزاق ، وخاصة أفراد أسرتها التي كانت معوزة فقيرة . ولم تدرك في بداية الامر العلاقة الموجودة بين كسب المال وارتداء الملابس الفاخرة ، وبين كسب المال ، وارتفاع الشأن في أعين الناس . وحينما أدركت ذلك ، عرفت أنها وقعت في نوع جديد من الحيف ، وأنها ستبقى على تلك الحالة الى أن تدركها المنية .

ان عزاءها الوحيد هو المحبة التي تكنها في قرارة نفسها للطفل المسيح وأمه العذراء . لأنهما — فيما خيل اليها — وحيدان في هذه الدنيا وضعيفان . ولكن الأغنياء والأقوياء رغم ذلك يخافون منهما ويخشون بأسهما . باستثناء الطفلة الصغيرة ذهبية التي تنعم برفقتهما في أحلامها وألعابها ووحشة أيامها .

وحينما بلغت الثانية عشرة من العمر ، صارت تتردد على الكنيسة كغيرها من الكبار . ولم يكن يفوتها شيء مما يقوله الخوري . وكان يخيل اليها أنه لا يوجد بين الحاضرين من يفهم كلامه مثلها . واذا سبقها الخوري بالاجابة على الاسئلة التي تجيش في نفسها ، فانها كانت تشعر بالرغبة في أن تذهب اليه لتقبل رأسه ، كما يفعل المسلمون . ولقد تعودت أن تخرج من الكنيسة مشرقة الوجه وأن تذهب الى الدار لتواصل صلاتها ، ولم يكن الخوري في بعض الاحيان يشفي غليلها تماما ، لأنها قد تخالفه في الرأي ، فعندئذ يخيب أملها وتشعر بنوع آخر من الفرحة ، وتحس بشيء

من الاعتزاز ، اذ تلاحظ بأنها متشددة وغير متسامحة ، وأنها بالتالي مخلصة في ايمانها . غير أن الموسيقى والترانيم الدينية هي التي كانت تجذبها الى الكنيسة . فقد كانت الموسيقى تنقلها الى الاجواء الفسيحة وتأسر عقلها وتنسيها كل شيء . ولم يعلمها أحد تذوق الموسيقى ولم يكن أحد يستطيع أن يشعر مثلما كانت هي تشعر بتلك السعادة الكاملة ، وتلك النشوة الناعمة التي تسري في كيانها شيئا فشيئا كلما ازدادت الترانيم قوة ، حتى تغمر كل شيء وترتفع في السماء . وعندئذ تحس ذهبية أنها هي أيضا ترتفع في أعالي السماء . ولكن ، ما يكاد اللحن ينتهي حتى تلقي نظرة حزينة حواليها ، فتشهق بغصة في صدرها ... انها الفتاة التي لم يفهم مشكلتها أحد ، لا أمها ، ولا غير أمها من أبناء القرية . ولكنها لا تقيم أي اعتبار لسخرية الناس . لأنها معتزة بكونها تحس وتحب على طريقتها الخاصة . أليس من حقها اذن . وهي الفتاة الرقيقة الشعور ، أن تمتع نفسها على هواها ؟ وكانت تقول عن شبان آيت واضو :

ــ وفيم تهمني أموالهم وحكاياتهم السخيفة ؟ بيني وبينهم من البعد ما بين السماء والأرض ...

وعندما أصيبت ذات يوم بمرض خطير ، لم تشعر بالخوف من الموت . وانما احتفظت معها بصورة مريم العذراء وظلت تقبلها طوال مرضها . وكان يخيل اليها أن الطفل المسيح ينتظرها هناك في السماء ، ليستأنس بقربها . ولم تشعر بالخوف أيضا يوم أن توفي أبوها ، وانما قالت :

ــ اغفر لي يا الهي اذا أنا قصرت فى محبته ، واغفر له أيضا لأنك رحيم بعبادك . وعسى آن تدخله دار النعيم مع عبادك الصالحين بعد ما أقامت له الكنيسة المراسيم الدينية يوم دفنه .

لم يمض على كل ذلك زمن طويل . ولا شك آنها اليوم لم تعد الطفلة الساذجة فى تفكيرها كما كانت من قبل . كل ما فى الامر أن ايمانها صار أقوى . ولعل عيبها الوحيد آنها أخذت تفسر حسب رأيها الخاص كل ما بقي فى ذهنها غامضا من أسرار الدين . ومن ذلك أن بوادر أنوثتها آحدثت فى نفسها أثرا غريبا : فهي لم تعد تحب المسيح مشخصا فى صورة طفل صغير ، بل صارت تحبه على هيئة شاب وسيم تبدو عليه علامات الرجولة والشهامة . ان المسيح الذي أصبحت تحبه هو المسيح الذي مات مصلوبا فى سبيل البشرية جمعاء . انه المسيح الذي تتلهف كل عذراء مترفعة عن الحب الدنيوي ، لأن يكون لها زوجا فى السماء . انها متشوقة لأن تكون من بين أولئك العذارى . وقد وهبت نفسها له فى سرها :

ــ يا الهي ، لن أكون لأحد من الناس . لقد وهبت نفسي لك ...

غير أن صوتا لا تعرف له كنها ، يهمس فى أعماق نفسها كلما جددت الوعد الذي قطعته :

ــ لقد وهبت نفسي لك ... الا اذا ...

انه صوت أشبه ما يكون بصوت الغريزة الدنيئة . آو لعله صوت ابليس اللعين الذي استقر فى مكان خفي من جسدها .

الفصل الثالث

لم تشعر ذهبية ، بعد وفاة والدها ، بأي أسف لمفارقة سكان آيت واضو ، فلم تكن تحب أحدا منهم ، وما كان أحد منهم يقيم لها حسابا .

واستصبحت معها جميع صور مريم العذراء فى علبة صغيرة وأودعت صورة المسيح فى قلبها ، ولم تتأسف لا على الكنيسة ولا على الآباء ولا على الراهبات ، بالرغم من أنها تحبهم كثيرا . ولعلها تحب الكنيسة لا لشيء سوى لأنها من بيوت الله ، وتحب الآباء البيض والراهبات لما كانوا يمثلونه ، لا من أجل أنفسهم ، لأنه لم يفضلها أحد منهم على بقية البنات ، ولم يفهموها ، بل على العكس كانوا يرون بأنها متصفة بعيب من أقبح العيوب ، وهو الغرور . وكثيرا ما لاحظوا لها ذلك فتجيبهم معترفة :

ــ ربما كان صحيحا أنني مغرورة بنفسي ... ولكن ذلك لا يمنعني من أن أكون مسيحية من صميم القلب ، بينما الآخرون ليس لهم من المسيحية سوى الاسم .

وهكذا انتقلت من آيت واضو الى ايغيل نزمان ، متذمرة ساخطة ، نكاية بالمسيحيين وانتقاما منهم . انها ليست متخوفة من أن تعيش مع المسلمات ، لأنها بالرغم مما يبدو لأول وهلة ، قوية الارادة وذكية ، ومصممة على التمسك بدينها . وهي تعرف أن أمها لا يعنيها هذا الامر ، لأنها لن تجد حرجا في أن تعتنق الاسلام في ايغيل نزمان ، بعد ما كانت تدين بالمسيحية في آيت واضو . وعلى كل حال ، فلم يعد من الممكن لها أن تتباهى بدينها المسيحي في ذلك المحيط من المارقين الذين يسخرون من اعتقادها بتجسد المسيح ، ويستهزئون بكل ما هو في نظرهـا أعز ما في الحياة : الدين والمسيح . على أن شعورهـا الديني ما لبث أن انطفأ في ذلك المحيط الذي لم يبق فيه من الاسلام سوى بعض من العادات والطقوس البائدة والخرافات الساذجة . وان هي الا أيام وشهور حتى قل اهتمامها بالآخرة وصارت تعنى أكثر ما تعنى بالمواضيع اليومية والمشاريع الدنيوية والآمال البسيطة التي تراود عقول جميع الفتيات الجامحات المتدفقات بالصحـة والحياة :

ـ يا ذهبية ، خذي جرتك ، نحن في انتظارك . ولتعلمي أن النادي غاص بالناس .

ـ دقيقة واحدة يا اخواتي ، أنا لاحقة بكن ..

ولا تكاد تقول ذلك حتى تمسك الجرة في عجلة وتلحق بالمجموعة بعد أن تلقي نظرة مليئة بالرضى والسرور الى المرآة القائمة بالقرب من الباب . انها تعرف بأنها ستصادف في الطريق

بعض الشبان ، وستتركز عيونهم عليها فتشعر بالاعتزاز اذ تثير اعجابهم ، وعندئذ ترن الضحكات وتتزاحم الفتيات فى طريقهن الى العين ، ويتبادلن الاسرار والوشايات والقيل والقال ... تلك هي الحياة ... الايام تمضي سراعا ، وما عليها عندما تأوي الى فراشها ، بالقرب من أمها النائمة ، ما عليها الا أن تسكب عبرة صغيرة من الندم وأن تبتهل الى الله ليغفر لها ذنبها . ولا تكاد تفعل ذلك حتى يراودها خيال شاب جريء النظرة ، فتمحي صورة الصليب من ذهنها . هكذا كانت تقضي وقتها كلما وجدت نفسها وحيدة بالقرب من أمها المستغرقة فى النوم .

وتنهدت فى الليل هامسة :

ـ رحماك يا الهي ، رحماك .

• كانت تعرف الكثير من الامور عن عامر قبل رجوعه من فرنسا ، فقد كان فى بعض الاحيان موضوع حديث البنات فى العين ، كما كان موضوع حديث أمه (مدام) حين تزورهم فى الدار ... وكانت تنتظر مجيئه وفى نفسها له شيء من الجفاء لأنها متيقنة أنه لن يعيرها بعد رجوعه أي انتباه ، فلن تكون فى نظره سوى فتاة مسيحية صغيرة ، لأنه سيعرف فى الحين بأنها مسيحية ، مرتدة عن الاسلام ، وسيعتبرها فتـــاة لا تخلو من شيء من الجاذبية ، وسينظر اليها كما ينظر الى بنت قروية ساذجة لا تصون عرضها . ولكنه مخطيء اذا ظن بها هذه الظنون ، لأنها قررت فيما بينها وبين نفسها أن تشجعه فى البداية على التودد اليها ، ثـــم ستعطي له درسا لن ينساه .

انها تتذكر كيف قالت لها أمها يوم اللقاء الاول :

ــ يا بنتي ، هذا هو ابن عمك ، فقبلي رأسه (1) .

وابتسمت مالحة ومدام (2) وخطا ابن العم خطوة الى الامام ونظر اليها وأحنى رأسه قليلا لكي يتلقى منها القبلة ، ثم أمسك يــد ذهبية ولامسها بشفتيه فى عجلة واضطراب ، كما لو كان منزعجا من القيام بذلك العمل . وعادت ذهبية الى الدار ، غير راضية عن اللقاء الذي تم بينهما ، وقالت في نفسها :

ــ ذلك ما كنت أعتقده بالضبط : لن يعيرني أي انتباه ، ولعله لا يزال يعتبرني فتاة صغيرة .

ولم تنقطع خلال الايام التي تلت المقابلة عن مراقبته والنظر اليه من بعيد ، وسلكت معه سلوك البنت الجامحة المنطلقة التي تريد أن تتدلل على أمها وعلى مدام ، وتجد لذة فى معاكسة ابن عمها . ولم يعد يهمها أن تلفت انتباهه ، لأنها لم تكن تشعر نحوه بالمحبة التي توجد بين سائر أبناء العم . أماعميروش فلم يكن و عبيه ما يدعوها الى الاعتقاد بأنه يعيرها أي اهتمام . وكان أراد الخروج من الدار فى الصباح ، يعرج على بيتهم ، ر صوته فى بهجة وسرور ، ويحيي من فى الدار ، فلا تكاد تسمعه حتى تهرع الى عتبة الباب لترد عليه التحية بمثلها .

---

(1) جرت العادة ان يتبادل الاقارب التحية عند اللقاء بتقبيل الراس . (المترجم) .

(2) ــ « مدام » هي ام عامر ، وتعرف بهذا الاسم لانها فرنسية الاصل ، وقد اشرنا اليها احيانا باسم الرومية . (المترجم) .

وكانت ذهبية فى بعض الاحيان تسبقه الى الزقاق متعمدة ذلك ، وتبادره بالتحية مبتسمة مشرقة الوجه ، فيرد عليها مبتسما هو أيضـا :

ــ صباح الخير يا صبية .

كان عامر وسيم الوجه ، طويل القامة ، مفتول العضلات . وان كانت مشيته المتثاقلة لا تنم عن قوته الجسدية . وكانت ذهبية كلما أبصرته ، تتمنى لو أنه يعتدل فى مشيته ويبرز قامته قليلا . الا أنه لم يكن يحفل بذلك ، كما لو كان متأكدا أنه يستطيع أن يثير الاعجاب بدون أن يتصنع . انه أنيق، ولكن فى غير ما تكلف، ومتكبر ، ولكنه تكبر الانسان المتواضع الذي يحب الجد فى العمل . ولكم يلذ لها أن تسمعه يتحدث ، لأنه على غاية من اللطف . ولأن حديثه معها يبعث فى نفسها الدفء والحرارة ويثير لديهـا روح التفاؤل . على أنه فى بعض الاحيان يرتبك فى كلامه ولا يدري ما يقول فتستـاء ذهبية منه كما لو انه تعمـد ذلك ليعاكسها . لقد سحرها بكل ما فى نفسه من صفات حميدة ، وكذلك بكل ما له من عيوب ، وكم تتمنى لو تدرك سر تلك العيوب . وكثيرا ما كانت أمها توقفه فى الطريق ليتبادل معها أطراف الحديث ، فتحتمي منه وراء ظهر أمها ، وتسمع صوته العذب ، وتحاول عبثا أن تفلت من عينيه الحلوتين الساحرتين . وكانت لا تملك نفسها كلما رأته ، من أن تردد :

ــ ما ألطفه ، ما ألطفه !.

كانت تنصت الى حديثه ، ولكنها لم تكن تسمع مما يقوله لأمها شيئا . واذا انصرف فى حال سبيله فهي ترفقه بنظرة حزينة . ومضت أيام واذا بها تفضله على جميع شبان القرية الذين لم تعد تحفل بأحد منهم ، وما كان يهمها منه سوى أن تنعم بصحبته وأن تشعر به قريبا غير بعيد . واذا مرت بالنادي أو صادفته فى الطريق برفقة بعض الشبان ، فانها لا تكاد تميزه بصوته الحبيب حتى تنعزل عن رفيقاتها من البنات ، فتتوانى فى سيرها لتكون آخر من يمر ، أو تحث الخطى الى رأس الموكب ، أو تنفصل عن سرب البنات حتى يراها ، وحينئذ يخيل اليها انه يرفع صوته ، وان الكلمة التي سمعتها موجهة خصيصا اليها .

وذات يوم ، بينما كانت أمها خارج الدار ، وكانت هي تمشط شعرها جالسة على عتبة الباب ، مركزة عينيها على باب منزله ، اذا بها تسمعه يهم بالخروج . وصار قلبها يخفق خفقانا قويا وحدثتها نفسها بالهروب من ذلك المكان . وحينما مر عامر بالقرب منها القت اليه نظرة استعطاف محملة بحبها واستسلامها له . انها نظرة استعطاف صريحة ولا يسكن لمن له قلب بشر أن يخيب أملها . ولأول مرة أحس عامر بصدمة قوية تهز كيانه ، فاحمر وجهه ووضع يده على رأس ابنة عمه قائلا لها مبهور الانفاس :

ـ ادخلي الى الدار بسرعة .

وفكرت ذهبية فى نفسها :

« هذا الامـــر مكتـــوب ، وكان لابد أن يقع ، فقد صرت أحبه ، وهو يعرفه ذلك فبادلني الحب بمثله . الحمد لله ؛ آنا مسرورة جدا . خلاص ، لم يعد يفكر لا فى ويزة ولا فى غيرها من البنـــات » .

وصارت تحبه بكل ما أوتيت من قوة ، ولا يمضي يوم حتى تعرف عنه ما يزيدها محبة وهياما . ولم يكن يخفى عليها من أمره شيء ، ولم تكن تجد حرجا فى أن تتحدث عنه مع أمها ومع أمه مدام . أما البنات فلا يكاد يخلو حديثهن من الثناء عليـــه ، حين يلتقين فى العين . ووجدت بينها وبينه شبها قويا فى جميـــع الصفات ، الا آنه فى نظرها ، أفضل منها ، بل أفضل من الجميع . وتمنت لو انها تستطيع ان تتبـــادل معه الحديث آنـاء الليل وأطراف النهـــار ، وأن تصغي اليه طويلا وهو يكشف لهـــا عن ذات نفسه .

كانت ذهبية تنتظر تلك اللحظة السعيدة ؛ كما ينتظر الانسان أجمل يوم فى حياته . ولكن يا للأسف ، تلك اللحظة لم تعرفها أبدا ... وماذا تبقى لها الآن بعد وفاته ؟

« ما كان ذلك كله الا حلما جميلا نعمت به بعض الوقت ، فما أقسى الحقيقة المرة وما أصعبها على نفسي اليوم ! لمـــاذا حطمتني يا الهي ؟ وأنت يا مريم العذراء ... هل عاقبتني لأنني قصرت فى حقك ؟ آه ما أقسى العقاب ! لولا المقـــادير لعشت سعيدة مع عامر . لقد كان شهما كريما ، اذ رضي أن أحتفظ معه

بديني المسيحي   بلى ! كان كريم النفس ، لأنه كان يتألم للفقراء والمساكين ، وكان مستعدا لأن يضحي بحياته فى سبيل غيره . فلماذا يا رب مات بتلك الطريقة السخيفة ؟ ما عرفته الا كريم النفس ، ولو طلبت منه أن يتنصر من أجلي لفعل ، لأنني لا أستطيع أن أتصوره على دين آخر غير دين المسيحية .

« يا الهي ، هل سيحظى هذا الكافر الذي كان طاهرا زكي النفس ، هل سيحظى بمكان فى ظلال رحمتك ؟ أم ان قوانين السماء صارمة كحكم الطغاة من عبادك ؟ ألحقني به يا الهي فى الحين ، واجمعني به فى ملكوتك . ما أوسع رحمتك يا الهي ، وما أعظم قدرتك ! ألحقني بدار الآخرة ، ولي أمل يا الهي فى أن تكشف لي عن الحقيقة ، وأن تجعلني معه فى دار السعادة ..

« يا عامر ، يا من أراك نجمة صغيرة تتراقص فى السماء ، عد الي يا حبيبي ، حدثني ، ابتسم لي وخذني معك .

« أعترف لك يا عامر انني لست بريئة . فقد دفعني الجنون الى أن أخون عهد الوفاء لأنني شعرت ذات يوم بالغيرة وتملكني حزن شديد ، فدعوت لك بالشر . لست بريئة ، ولكنني متأكدة انك لو عرفت الحقيقة لسامحتني . اذن لماذا قتلك ؟ لماذا حكمت الاقدار أن تموت بهذه الطريقة السخيفة وأن تتحطم حياتي الى الابـــد ؟

« رحمة بي يا الهي ، ورحمة به .

« لقد مات ولم يعد أحد يفكر فيه ، ومن يا ترى يسكن فى هذه الليلة أن يفكر فى عامر من رجال قريتنا ؟

« قد يفكر فيه مقران ... ومقران هذا من عائلة آيت سليمان ، وأخوه هو ناظور القرية ، ولعل هذا الاخير مسرور الآن ، لكونه قد أعطى لرجال التحقيق البيانات اللازمة عن الحادث ، فأنقذ عائلته مما يحوم حولها من شبهات ... وقد يفكر فيه أيضا شيخ البلدية . وبطبيعة الحال فهو الآن مطمئن البال بعدما استقر الرأي على أن عامرا قد انتحر . آه ، ما من أحد يتحرك ليكشف عن وجه الحقيقة ... ومن يا ترى يفكر فيه أيضا ؟ أبناء العم من عائلة آيت العربي ؟ الافضل أن لا أتحدث عن هؤلاء ...

« ارحمني يا الهي لأنك أنت ... تعرف الحقيقة ... »

وعند هذا الحد استفاقت مالحة من نومها ، فقربت من جنبها ذهبية وقالت لها :

ــ نامي يا بنتي العزيزة ، الله ينسيك يا بنتي ، لا تعذبي نفسك ، المكتوب هو المكتوب ودواء المصائب هو النسيان .

ــ اتركيني لوحدي ، كلامك يبعث على الاشمئزاز ، اسكتي .

ــ طيب ، كوني عاقلة وسأسكت .

وأخذت نتــه مالحة تلامسها بيدها البضة الباهرة ، أخذت تلامسها لمسا لذيذا يكاد يكون فيه شيء من المجون ، وأخيرا قالت بصوت خافت كأنها تخاطب نفسها :

ــ وما الداعي للاسى ؟ لا فرق عندي بين رجل وآخر ، ولا فرق بين امرأة وأخرى .

الفصل الرابع

قرأت ذهبية يوميات عامر بشغف كبير ، فجاشت عواطفها مما كتبه عن حبهما . سيكون لها متسع من الوقت لاعادة قراءتها واستظهارها ،وستحافظ عليهابعناية لأنها أثر عزيز لا يقدر بثمن ، وستبقيها دائما معها كأنها تلك الجمرة التي عثر عليها الانسان البدائي ، واستبقاها الناس من بعده وقادة ليشعلوا بها النار . وحبها كتلك الجمرة : فلن يخمد ، بل سيظل يحرقها باستمرار الى أن تلتحق بعامر هناك ، فى السماء . وتنهدت من أعماقها :

ــ يا الهي ، قرب النهاية ، ولا تجعل عذابي يطول .

كان عامر قاسيا جدا فى القسم الاخير من يومياته ، فقد كان قصده أن يسجل فيها أحداث حياته ، الا أنه فى الواقع عبر فيها عن ثورته العارمة واضطرابه وقرفه من الحياة.. وذنبها فى ذلك انها دفعته الى اليأس ، بينما كانت تستطيع ــ لو شاءت ــ أن تنقذه من الهلاك . وها هي ذي الآن تلاحظ ذلك ، وتقدر البعد الشاسع بينها وبين ذلك الرجل النبيل الذي بذل ما فى وسعه لينهض بأبناء قومه ، ولم يكن له من ذنب فى هذه الحياة

سوى أنه وضع فيها الثقة الكاملة .

لماذا لم يتحدث فى يومياته تلك عن كرم نفسه وعطفه على المساكين ، وحقده على الطغاة والاغنياء ، وتنديده بالظلم والنفاق ؟ من ترى سيذكره بصفاته الحميدة بعد أن تخلصت منه قرية ايغيل نزمان الى الابد ، وصار الناس يرون فى شيء من اللامبالاة ، وغير قليل من الارتياح ، ان موته لم يكن الا نتيجة الطيش والجنون ؟

وفى الواقع ، فان الشيء الذي ينكره كل واحد عليه ، هو صراحته ورفضه لأن يكون مثلهم فى الرياء والنفاق . ومع ذلك فان جميع الناس يعرفون بأنه كان أول من يتطوع للقيام بعمل يعود بالنفع على القرية ، فكان بذلك قدوة حسنة للشبان . وعندما تتعرض القرية لاستفزازات رجال الدرك ، أو تهديدات الحاكم الفرنسي ، يتذكر الناس حينئذ بأنه يوجد بينهم رجل اسمه عامر ، فيقصدونه على عجل ، ويستجيب لهم فى الحين بأدب وتؤدة وعزيمة قوية . وعندئذ تسمعهم يقولون :

ـ والله ، ان ولد مدام لا يخاف منهم ، ويعرف كيف يكلمهم

ـ ابن عائلة والله .. ابن الرجال .. ولا تنس جده قاسي ، هل تعرف جده قاسي ؟ اسأل عنه الشيوخ ، فهم يعرفونه جيدا .

ذلك ما كانوا يقولون عنه فى مثل تلك الظروف الحرجة ؛ وعندئذ كانت أمه وابنة عمه وجميع أعمامه من أبناء آيت العربي ، يرفعون رؤوسهم اعتزازا به .

لقد حاول أن يخفف من البؤس الذي يعانيه أبناء قومه ، وهذا الموضوع أشار اليه فى يومياته وتحدث عنه حديث المجرب الذي ذاق مرارة الحرمان . والناس يعرفون بأنه طيب القلب ، لذلك كانوا لا يتورعون عن تسخيره فى مختلف المهام والاعمال ، مما جعل أمه ــ رغم أنها عاقلة ورزينة ــ ترميه بالطيش والسذاجة. وحينئذ كان عامر يحني رأسه كأنه بالفعل قد أذنب ، ثم ينصرف فى حال سبيله . وكان المتسولون والمحرومون من اليتامى والعجائز يستغلون طيبة قلبه ويقولون عنه بأنه مغفل ، ولا يشفقون عليه أبدا . وفى بعض الاحيان لا يجد ما يتصدق به ، فيستاء ، ويحس بأن الناس لا يريدون به خيرا ، وعندئذ كان يمطرهم بوابل من السباب والكلام البذيء عوضا من أن يسمعهم كلمة طيبة . الإ أن الناس ما كانوا يؤاخذونه على هذه النزوات لأنهم متأكدون بأنهم (سيغفلونه) فى أول مناسبة تعرض لهم .

وكم من أناس أعارهم الدراهم فما ردوا اليه فلسا ! ومن يدري ، فلعلهم مسرورون لوفاته لأنهم لن يدفعوا اليه شيئا بعد اليوم ، بل سينسون ذكره كأن لم يكن ، وسيعجلون فى نسيانه كما يعجل الانسان فى محو الغلطة الفادحة من ذاكرته . الا أن الغلطة تترك دائما فى النفس الندامة . أما عامر فلن يترك من بعده شيئا ، حتى من يتأسف عليه ويتحسر لوفاته .

« وعامر هو أيضا لا يتأسف على شيء . لقد مات واستراح ، استراح مني أنا التي خنته . ولعله من الاحسن أن أنساه وأن أفترض بأنني لم أتعرف عليه أبدا وانه ما عاش فى هذه الحياة

بالمرة . لعله من الاحسن أن أغمض عيني وأهديء من روعي ، وأن لا أفكر فى شيء ... الأحسن أن أستسلم للنوم ، بجنب أمي مالحـــة » .

وخطر ببالها فجأة أن عامرا ربما لم يكن يحبها وحدها ، لأنه شهم كريم ، وأنى لها أن تطمح لمثله من الرجال ! وله مبدأ أساسي يؤمن به : فاما أن يحب جميع الناس ، أو لا يحب منهم أحدا .

انه صاحب أفكار ومباديء يؤمن بها ويدافع عنها . وقد أصبحت هي أيضا فى نظره فكرة ومجرد فكرة .

وعلى سبيل المثال ، فهي لم تفكر فى يوم من الأيام أن تنشغل بحالة أبناء قومها وأن تهتم بأمرهم كما فعل عامر فى يومياته . فقد كانت اذا سمعت بأن أحدهم نزلت به مصيبة ، تتألـــم وترثى لحاله ، لأنها هي أيضا طيبة القلب . غير أنها ما كـــانت لترضى أن تكون فى محله ، وأن تتمنى لو أن تلك المصيبة نزلت بها هي ، لتخفف عنه المحنة ، أو لتبرهن للناس انها تستطيع أن تصبر عند المكاره . لا ! ما كانت لتفعل ذلك ، لأن ما عرفته من الأنانية عند الناس ، جعلها هي بدورها تؤمن بالأنانية ، ولأنها تدرك أكثر من عامر ان حب النفس هو السلاح الوحيد فى يد الفقراء ، من أجل البقاء . أما عامر فقد كان يطمح لأن يصبح غنيا ، وأن يصبح معه جميع الناس أغنياء .

« هل كان ، يا الهي ، على صواب ، أم على ضلال ؟ لقد أراد أن يحسن من وضعه وأن تكون له في داره صنابر للماء وأسرة للنوم وصحون للأكل وأدوية للمعالجة ؛ ولو قدر له أن يعيش لحصل عليها بالجد في العمل والاقتصاد في النفقة . وكل واحد منا يتمنى أن يوفر كل هذه الأشياء في داره .

« ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه ... انه لم يرد هذه الاشياء لنفسه فقط ، بل كان يسعى لكي يحصل عليها الناس أجمعون .

هكذا كان عامر ...

« ليته كان مسيحيا ! اذن لسمع الأب دوبوا يتحدث عن كل هذه الأمور التي هي فوق مستوانا . وقد شرح لنا لماذا كانت فوق مستوانا ، وحذرنا من الشيوعيين ، وقال لنا ان الفقير هو المسؤول عن فقره ، وأكد لنا أن الله سيعوض لنا في الآخرة ما فاتنا من الرزق في هذه الدنيا . ولكن ... لم يعد أحد من أهالي القرية يصدق بأن الله سيعوض لهم شيئا .

« لقد عرفت الآن لماذا كنت أتميز غيظا من ذلك الرجل ... ولئن لم أصارحه ، ولم أعاتبه ، فلأنني كنت أعتقد أنه بلغ حد الكمال . كنت مغتاظة من عامر وحانقة عليه ، لأنه لم يكن لي أنا وحدي ، بل كان لجميع الناس . وبما أن هؤلاء قد أرادوا أن يحرموني منه ، فلماذا لا أدافع عن حقي بكل ما أوتيت من قوة ؟ ان هؤلاء الأغبياء يهاجرون الى فرنسا ، ويعيشون هناك حياة

كلها أتعاب ومحن ، ثم تسمعهم يدعون بأن الفرنسيين هم السبب في بؤسهم وشقائهم ، فما أسخف دعواهم ! والعجيب أن عامرا كان يوافق هؤلاء الكسالى في الرأي ، فلا أفهم منه هذا الموقف ، بل لا أومن بشيء مما يقوله » .

***

هكذا انشغلت ذهبية ، صبيحة ذلك اليوم ، بقراءة يوميات عامر ، بينما كانت الدار تعج بالناس الذين جاءوا لالقاء نظرة أخيرة على جثمانه . ثم أخذت شيئا فشيئا تحلل أسباب ثورته ، وتناقشه فيها ، بل صارت تنكر عليه كيف مات بتلك الطريقة السخيفة . وها هي ذي الآن تشعر بنوع آخر من الغيظ يعتريها ، لأنها ، بعد أن مات ، لم تعد تستطيع أن تبرر خياناتها أمامه ، ولأنه أفلت منها الى الأبد ، ورفض أن يسمع منها أي كلام . لم يبق لها اذن سوى أن تعيد الى ذاكرتها بجميع التفاصيل ، ويوما بعد يوم ، تلك الشهور الستة من الانتظار والعذاب ، ومن السعادة أيضا ، ومن الحب الذي لن تعرفه بعد اليوم ، فيما تبقى من حياتها الشقية .

لابد لها من أن تتحدث هي بدورها عن عذابها ، كما حاول عامر أن يفعل ، فما وفق في عمله ، لأنه ما زاد أن دفع بنفسه الى الهلاك ، وحطم قلب الفتاة التي كان يدعي أنه يحبها . وبما انه أنكر عليها سلوكها ، من غير أن يسمع ما لديها من أعذار ، فلا يسعها الا أن تنكر هي أيضا سلوكه معها .

لقد رفض أن يكشف النقاب عن جميع الأمور كما وقعت ، ولهذا فهي التي ستصرح بكل شيء . انه لمن أسهل الأمور أن

تطالب الغير بما لا تطالب به نفسك ، وان دل ذلك على شيء فانما يدل على أنك لاتحترمه ولاتحبه ولا تعطف عليه. وعلى سبيل المثال، لماذا لم يحاول عامر أن يضع نفسه في محلها ليتفهم حقيقة سلوكها وليغفر لها خطيئتها ؟ بل هو لم ير لزاما على نفسه أن يسأل كيف كانت تعيش في ايغيل نزمان قبل رجوعه من فرنسا ، وكيف عرفت في كل مكان هي وأمها جميع أنواع المذلة والاهانة ، وكيف عامل الناس كلهم باحتقار ومكر وتكبر أمها مالحة ــ المرأة الطائشة في نظرهم ــ وماذا كان موقفهم منها هي ، الفتاة الكافرة المرتدة التي لا يعرف أحد لها أصلا .

حينما استقر بهما المقام ، هي وأمها ، في ايغيل نزمان ، أحدث مجيئهما شيئا من الانزعاج والاضطراب في أوساط عائلة آيت العربي . أما بقية العائلات المحترمة في القرية ، فقد تظاهرت بعدم الاكتراث بهما . ويوجد بين هذه العائلات من هو فقير الحال ، الا أن الأغنياء منهم يمدون اليهم يد المساعدة تارة ويشغلونهم أشغالا شاقة تارة أخرى ليرتاح ضميرهم . أما مالحة وابنتها ذهبية فلم يعطف عليهما أحد ، بما في ذلك أعمام مالحة أنفسهم ، وأبناء عمها الذين كانوا يعرفون ماضيها البعيد ، ويتمنون لو أنها ذهبت الى الجحيم . وها هم قد وجدوا أنفسهم مرغمين على أن يقبلوها لتعيش بينهم . وأخوف ما كان يخيفهم مخالطة مالحة لنسائهم ؛ ووجود تلك الفتاة الناصعة البياض ، الرقيقة القد ، الوسيمة الوجه ، تلك الفتاة التي اصطحبتها مالحة معها ، وقررت ان تربيها بينهم . وهكذا أخفقت جميع محاولات مالحة وابتسامات ذهبية

للتقرب منهم : لقد كانوا جميعا يحتقرونهما علانية ، ولا فائدة اذن من بذل المزيد من الجهود .

قالت مالحة مسلية نفسها :

ـ مالي ولعائلة آيت العربي ؟ لن أعيرهم بعد اليوم أي اهتمام ، لأنني من هذه القرية ، ولي فيها كثير من الاخوة والأصدقاء .

ولذلك صارت تعرض خدماتها على كل من يحتاج اليها حتى تحصل على مورد للرزق . وأنكر الناس منها ذلك ، ولم تشجعها على المضي فى عملها سوى مدام .

وممن اشتغلت عندهم ، سعيد آيت سليمان . وقد استخدمها كساقية ، فاتفق معها على أن تحمل الى داره يوميا ثلاث جرار من الماء ، وذلك لقاء مبلغ ألف فرنك شهريا . فاذا قامت بذلك فلها أن تنصرف الي شؤونها الخاصة . وقبلت مالحة فأثارت استياء آيت العربي، لأنهم ظنوا بأن الشيخ سعيدا،المعروف بمكره ونفاقه، انما أراد بذلك العمل أن يلحق بهم اهانة وأن يلطخ شرفهم . أما مالحة فقد كانت على العكس فرحة مسرورة .

وسعيد آيت سليمان شيخ يتظاهر بالورع والتقى ويناديه جميع الناس بابا سعيد احتراما له ، ويعتبر فى القرية رجلا حنكته الأيام ، فلا يقدر عليه أحد من خصومه . ومن المعروف عنه أنه قليل الوفاء بالعهد ، ولم يكتف خلال حياته الطويلة بالدسائس ونكث العهود، بل لم يتورع من أن يسطو على أموال أقاربه وأصدقائه .

وهكذا أصبح بابا سعيد من الشيوخ المحترمين ، واجتمع له من المال ما يمكن أن يجتمع لامثاله ممن يعتبرون من الاغنياء فى ايغيل نزمان .

أما بالنسبه للمواشي والدواب ، فله فى داره بقرة وبغل وبضعة ثيران، اما بالنسبة للاولاد، فولده البكر يشتغل كاتبا في دار البلديه، وناطورا فى نفس الوقت ، والولد الثاني اسمه مقران ، وهو شاب يشبهه تماما فى الذات والصفات ، مطيع للأوامر ومتعنت فى رأيه الى أقصى حد . وقد سافر مقران مرة أو مرتين الى فرنسا ، غير أن المعيشة فى بلاد الكفار لم ترقه ، ولذلك عاد الى القرية حيث تركت له عائلته مسؤولية القيام بكل ما يتصل بالفلاحة .

أما العجوز ، فقد كانت شديدة فى معاملتها لعروستها ولأولادها. وكانت تثير الرعب فى الحي كله ، ولم يكن يسلم منها أحد ، حتى بابا سعيد نفسه الذي كان يتعرض لبطشها فى بعض الاحيان . وهي هزيله الجسم كانها البغلة العجفاء التي لم يبق منها سوى الهيكل العظمى . كما انها سليطة اللسان ولا تشفق على احد ولا ترحم . وزوجها من جهته قد اعتاد منذ عهد بعيد ان يخونها مع جميع النساء الفقيرات ، سواء مع الارامل أو مع المتسولات . أو القصيرات من اليتامى . وهذه العادة الشنيعة اصبحت وصمة عار بالنسبة لبيت آيت سليمان الذين كانوا يسترون ما ستر الله من تلك الفضائح . وبابا سعيد يعتقد أنه يستطيع أن يجعل الناس يتغاضون عن خطيئاته، بالكلام المعسول والمعاملة بالحسنى . وهو الذي فرض على العائلة أن تشتغل عندهم مالحة كساقية ، وقد وعدها فى السر أن يمنحها

بعض الامتيازات الصغيرة زيادة على الألف فرنك ، على أنه في داخله كان يمني نفسه أن يحقق من وراء ذلك مشروعا جنونيا .

قبلت مالحة اذن ، وكأنها أرادت بذلك أن تقابل التحدي بمثله وصارت تشتغل عند عائلة آيت سليمان ، غير أنها أبعدت عن ذلك الجو ابنتها ذهبية ، ولم تعرفها بأهل الدار ولم تبعث بها هنالك لتحمل اليهم جرار الماء ، كما أنها منعتهـا من الشغل في بيوت الناس . انها تعرف جيدا أن أهالي ايغيل نزمان من أسوء خلق الله ، فعليها اذن أن تحمي ابنتها من شرهم . فهي على استعداد لأن تشتغل في أية دار ، وأن تقوم بأي عمل ، وهي متيقنة أنها تستطيع أن تؤسس بيتها الصغير من غير أن تعتمد على أحد ، لأنها لا تعيل الا شخصين ، فلن يمن عليها أحد بصدقة يخفي وراءها نوايا سيئة .

وسارت الأمور في البداية على أحسن ما يرام مع بيت آيت سليمان . فقد كانت العجوز الماكرة تراقبها باستمرار ، ولكن مالحة كانت ترد على كل كلمة جارحة بمثلها ، وتستهزيء من كلامها ، لأنها ماكانت لترضى أن يعتبرها هؤلاء البخلاء متسولة منحطة أو صاحبة دسائس ومكائد . وسارت الأمور على أحسن ما يرام الى أن وجدت مالحة ذات مساء ، عندما عادت من الحقول ، صحنا وقد تحطمت أجزاؤه وتناثرت على عتبة دارها ، وبجنبه كومة صغيرة من الكسكسي ، فقالت لذهبية :

ـ من فعل هذا ؟ أنت ؟

ـ نعم ، أنا . وهذا الكسكي جاء به مقـران من بيت آيت سليمان .

ـ ماذا حدث بعد ذلك ؟

ـ لا شيء ، ولكنه أراد أن يقبلني ...

ـ ماذا تقولين ؟ .. يا له من حقير ، ألم تضربيه بالصحن ؟ ..

ـ لا ، بل رميت بالصحن على الارض ، وفر هاربا .

ـ حسنا فعلت يابنيتي ، غدا سيعرفون من أنا .

ـ أرجوك يا آماه ...

ـ اسكتي . هذه القضية تمسني أنا بالدرجة الأولى ، ولا تعتقدي أنني فقدت صوابي، فلن أتساهل في ما يسيء الى سمعتك. هذه القضية تمسني أنا قبل كل شيء .

وبالفعل ، ففي اليوم التالي ، ذهبت الى دار بابا سعيد ، وما كان أحد سواه في الدار ، فهزته هزا عنيفا وأوقعته على الارض بالقرب من الجرة الكبيرة ، ثم خرجت وهي تشتمه وتصرخ بأعلى صوتها :

ـ يا قرد ، يا أقذر خلق الله ، لعلك لا تعرفنا نحن بيت آيت العربي . تعالوا يا ناس ، لتروا هذه الفضيحه . عار عليكم يا بيت آيت سليمان .

وغضب باباسعيد غضبا شديداً جعله يرتعش ويضطرب ، وبحث عن عكازته فلم يجدها ، وهرعت الى المكان زوجته التي كانت واقفة غير بعيد ، فقالت لها وهي ترتعش مثله :

ــ العني الشيطان يا مالحة ، ما هذا الكلام الا من وحي ابليس اللعين . أرجوك ، لا تصرخي يا مالحة ، ولا تشمتي بنا أمام الأعداء ... هدئي حالك ...

ولكن مالحة عوضا عن أن تهديء حالها أعطتها هي أيضا درسا لن تنساه ، وخرجت المرأتان معا من الدار الى الزقاق ، وهما تتبادلان الشتائم ، ثم أمسكت العجوز بعصا في يدها وأرادت أن تضرب بها مالحة ، فالتفتت اليها هذه الأخيرة وقالت لها أمام الناس الذين غص بهم الزقاق :

ــ سترين يا حمارة كيف أكسر عظامك .

وارتاعت العجوز من كلامها وفرت الى دارها لاهثة الأنفاس ، مما جعل الحاضرين يقهقهون بالضحك . ولم تملك مالحة نفسها من أن تضحك هي أيضا ، وشرحت للحاضرين كيف حاول بابا سعيد أن يداعبها ، وأرفقت كلامها بكثير من الحركات.، وقدمت عن الحادثة صورة مضحكة ، فاحمرت وجوه البنات حياء ، وصرن يتماسكن عن الضحك ، ولكن عبثا ، فما زادهن ذلك الا ضحكا وقهقهة. وظلت هذه الحادثة لمدة أسبوع موضوعا للتهكم والتعليق بين نساء القرية ، ما بين قائلة ان بابا سعيد ستضربه زوجته كالمعتاد، وأخرى تؤكد أن بيت آيت سليمان ، صيانة لشرفهم ، سيشوهون سمعة المسكينة مالحة ، خاصة أنها لا تتمتع بسمعة حسنة . وهذا ما خافت منه مدام ، اذ ما كادت تسمع بهذه المخاصمة حتى أخذت تنصح مالحة ، فردت عليها :

ـ أنت طيبة يا مدام ، وأنا أعتبرك مثل أختي . ان بيت آيت العربي تبرأوا مني ، ولم أجد الصفاء والهناء الا عندك . وما أنا ممن ينسى أو ينكر الخير . ومهما آسمعه منك ، فلن أحمله منك محمل السوء . طبعا جميع الناس يحترمونك . فأنت فرنسية الأصل ، ولا تحتاجين الى أحد منهم في شيء . وقد رزقك الله بولد ـ الله يحفظه لك ـ وصار اليوم رجلا ، والناس يحترمونك ، ولكن أنا ، هل تعرفين ماذا أساوي عندهم ؟ صدقيني يا مدام ، فأنا أعرفهم حق المعرفة . انهم يقولون في أنفسهم : « ان هي الا نصرانية ، وان هي الا امرأة عديمة الشرف . لقد خرجت من القرية ذات يوم لسبب لا نعرفه ، وها هي ذي قد عادت اليوم لغرض في نفسها لا يعلمه الا الله »

وتابعت مالحة كلامها قائلة :

ـ صدقيني يا مدام ، فأنا أعرف جيدا أولئك الشيوخ المحترمين الذين يتصدرون اجتماعات القرية ويحلون « المشاكل العويصة » ، أولئك الشيوخ الذين يسمونهم (رجال الخير) ، صدقيني يا مدام اذا قلت لك بأنني أعرفهم ، وأشعر بالاشمئزاز منهم . لقد رأيت في عيونهم جميعا الرغبة الدنيئة في أن يضاجعوني خفية ، وأن يشبعوا شهوتهم على غير علم من الناس ، لأنني في نظرهم لا أصلح الا لذلك . ومتى كانت النصرانية تستحق أي اعتبار ؟

ومضت ننه مالحة تقول :

ـ حينما وصلت الى ايغيل نزمان ، راودت هؤلاء الشيوخ من ذوي اللحى الطويلة ، راودتهم جميعا نفس الفكرة عني ، فقالوا

في أنفسهم : « انها لا تستطيع أن تستهوي الشبان لأنها متقدمة في السن ، كما أنها لا تستطيع أن تحصل على زوج . اذن فهـي لقمة سائغة لنا » أما الشرف ، فلم يخطر لهم على بال . غير أن نفاقهم أشد وأقوى مـن شهواتهم ، وأخوف ما يخفيهم هو أن يفتضح أمرهم ، ولذلك قررت أن أفضحهم حتى أتخلص منهم . وتأكدي يا مدام أن أمثال بابا سعيد لن يفكروا بعد هذه الحادثة في ازعاجـي .

فأجابتها مدام :

ــ يا مالحة ، أنت مخطئة ، واذا كنت حقا تريدين أن أحترمك ، فينبغي أن لا يتحدث عنك الناس بالسوء . ولا تنسي أن لك بنتا وانه لابد من تزويجها .

ــ بارك الله فيك يا مدام ، ولكنني أعتقد أن الزواج مسألة في يد القدر ، فمثلا بالنسبة لي أنا ، لم يكن أحد يظن أن نصيبي سيكون في قرية آيت واضو . نعم ، في آيت واضو ، أي عند المرتدين عن الاسلام . وأنت يا مدام ، كيف جئت من فرنسا الى هنا ؟ ان السعادة أو الشقاء في حياة النساء ، مسألة مكتوبة على الجبين منذ الولادة ، وما لنا في ذلك من حيلة . أما ذهبية ، فهي بنت طيبة ، وأنا لا أخاف عليها ، لأن الله سيرعاها .

الفصل الخامس

ان عدم الاكتراث الذي تتظاهر به مالحة حينما يسألها الناس عن مستقبل ابنتها ، لا يعني انها سلمت أمرها للقدر المحتوم . فهي تعرف جيدا أن جميع الأعراس التي يحتفل بها في ايغيل نزمان ، وجميع العلاقات التي تعقد أو تفسخ في هذه القرية ، أو في غيرها من القرى ، ما هي في الواقع الا تجارب يتعظ بها العاقل حتى لا يقع مرة ثانية في ما لا تحمد عقباه ، أو في مكروه ، أو في مصيبة ما بعدها مصيبة . وحينما تفكر مالحة فيما عسى أن تفعله ، وتتذكر ما وقع فيه الناس من مشاكل الزواج ، وما يروى عنهم من حكايات مؤسفة ، فانها لا تجد من حل سوى أن تنتظر صابرة ما سيأتي به المكتوب . وقد عزمت أن لا تلتمس العون من أحد ، وأن لا تنخدع بأحد من الناس . ينبغي لها أن تكون معتزة بنفسها ، لا طموحة ، لأن الطموح قد يضطرك الى التملق ، والناس مهما أحسنت اليهم وتقربت منهم لا ينسون أبدا أنك فقير الحال وأن منزلتك أدنى من منزلتهم . وما على الانسان لكي يتأكد من هذه الحقيقة الا أن ينظر الى الخطابة (1) : فأول ما يهمها أن تعرفه عن

1 ـ الخطابة : المرأة المكلفة بالبحث عن عروسة (المترجم) .

البنت هي حالتها المادية من فقر وغنى ؛ وكل ما عدا ذلك ان هو الا كذب ونفاق .

ما أسخف الأم التي تسعى لتزويج ابنتها من آي شخص كان ، وتبذل فى ذلك المستحيل ، وتتساهل فى كل شيء ، ثم تنخدع فى آخر الأمر بالكلام المعسول ، الى أن تنكشف لها الحقيقة المرة ، وهي أن الأم التي جاءت لتخطب لابنها قد وقع اختيارها على فتاة أخرى . انها تشعر بالاشمئزاز من ذلك ، وكلما رأت مالحة آن جميع مساعي الأمهات لتزويج بناتهن قد باءت بالفشل ، فانها تشعر بالارتياح نكاية بهن ، وتحمد الله الذي جعلها فقيرة ، فلا تقصدها الخطابات ، ولا تتعرض لمكائدهن ، بل تستطيع هي اذا شاءت أن تنظر اليهن باحتقار . ومع ذلك فهي تشعر فى قرارة نفسها أن الله لو رزقها بشيء من المال ، لدخلت هي أيضا فى ميدان المعركة حتى تعثر لابنتها على فتى الأحلام .

ولكن ، أتراها تستطيع أن تتخاصم مع بعض النساء اللواتـي ليس لهن حياء ؟ كلا ! فقد تأكد لديها أن نساء ايغيل نزمان ليس لهن ذرة من حياء ، والا ، فمـا بالهن ينصبن مكائدهن علـى المكشوف ، ولسان حالهن يقول لمن سيصبح صهرا :

ــ تعال يا بني ، أرأيت هذا الفخ الذي نصبته لك ؟ ماذا تنتظر لكي تقع فيه ؟ لابد لأمثالك من الأغبياء أن يقعوا فى الفخ .

والأدهى من كل ذلك أن هذا الغبي فى أغلب الأحيان يقع فى الفخ ، فيصفق جميع الناس نكاية به . على أن هذا الأمر قد يؤدي

أحيانا الى زواج موفق ، أو بالأحرى الى ما يعتبر زواجا موفقا في ايغيل نزمان ... أليس من العيب أن تقـدم بعض الأمهات سرا الصداق الى الشاب ليوهم الناس بأنه هو الذي دفعه ؟ الا يعني ذلك أن مثل هذه الأم قدمت له ابنتها هدية ؟ وبهذه الطريقة فان أهل العروسة هم الذين يدفعون تكاليف جهاز البنت (1) من ثياب وحلي وأغطية وفراش . وما على العريس بعد ذلك الا أن يتقبل هذه الهدية كاملة غير منقوصة .

أما العيب الذي أوقعوا فيه أنفسهم فلا يفكر فيه أحد . غير أنهم لا يقفون عند هذا الحد ، لأنهم يحترمون التقاليد ، ويحافظون عليها . وها هم اليوم يستحدثون بدعة جديدة ما كانت معروفة في السابق : فقد أصبح لزاما عليهم بعد اعلان الخطوبة ، زيارة أسرة الخطيب لتقديم التهاني . وتستعد أسرة البنت المخطوبة للقيام بواجب الزيارة ، غير أن أهلها يشعرون بالرغبة في اصطحاب الأقارب والأصدقاء والذرية كلها معهم . ولابد من أن يأخذ كل واحد منهم معه الهدية التي اشتراها للعائلة السعيدة التي تفضلت بقبول ابنتهم ذات الصون والعفاف . ويستمر هذا الأمر الى أن يتم الزواج ، ويتواصل بعد الزواج الى الوفاة ... فما أقبح هذه العادة ومـا أبغضهـا !

ولا تنتهي المشكلة بزواج البنت ، اذ لابد من العنايـة بهـا والاهتمام بأمرها ولو من بعيد . واذا كانت لا تشبع في دار زوجها

---

1 ـ الجهاز : كل ما يقدمه العريس للعروسة من ثياب وحلي وغير ذلك (المترجم) .

فانها تتردد بين الحين والآخر على دار أهلها لتتناول معهم شيئا من الطعام . واذا امتنع زوجها عن شراء ما تحتاج اليه من الثياب ، فلابد من أن تدبر أمها طريقة لتشتري بعض الأقمشة ، ثم ستزعم لصديقاتها حين تجتمع بهن في العين ــ وهن يعرفن الحقيقة ــ ستقول لهن بأن أهل الدار كلهم يحيطون ابنتها بالرعاية ، وانهم يحبونها وأنهم راضون عنها كل الرضى ، بما في ذلك حماتها . واذا احتاج الزوج الى مصروف الجيب وساء مزاجه بسبب ضيق ذات اليد ، ونفس عن غيظه بضرب البنت المسكينة ، فان الأم هي التي سوف تسترضيه ، وذلك بمد صهرها بين الحين والآخر بشيء من الدراهم . ولاشك انه اذا كان ممن لا ينسى الخير سيردها اليها ذات يوم أضعافا مضاعفة .

وبطبيعة الحال ليست الحياة هانئة بالنسبة للزوجة الجديدة ، ولابد لها من أن تصبر كثيرا . لابد لها من أن تصبر الى أن تنجب أطفالا ، وحينئذ تمسك بمقاليد الامور في البيت وتطالب بحقها ، ويبدأ الناس في تقديرها واحترامها . وما من فتاة تتزوج الا وتعرف سلفا ما ينتظرها من مشاق ، ولذلك تستعد في سن مبكرة لاجتياز المرحلة الأولى ، وهي أصعب المراحل ، ولا تتهيب من الزواج ، بل على العكس تتمنى أن لا يسبقها اليه أحد من رفيقاتها .

وبصورة عامة ، فان الشبان لا يختلفون عن البنات ، فهم كذلك يستسلمون للأمر الواقع ، وان كانت لهم أسبابهم الخاصة . انهم ممزقون بين نمطين مختلفين من الحياة ، وحائرون بينهما ، لا

يعرفون الى أيهما ينساقون . فاذا كانوا فى فرنسا ، فان العاقل منهم يعيش حياة العامل الحريص على أداء مهمته . ولقد يعاشر فتاة أو يتخذ لنفسه عشيقة ، بل قد يتزوج . واذا عاد الى القرية فانه سينغمس بدون تردد فى حياة القرية . وان هي الا أيام قلائل حتى تتبدل سحنة وجهه نتيجة لتبدل الطقس ، ويعود كما كان ، من أبناء القرية ، ويتزوج فيها بنفس السهولة التي اتخذ بها عشيقة له فى فرنسا . ولا تمضي شهور حتى تحمل المرأة أول حملها . واذا قدر له أن يذهب مرة أخرى الى فرنسا ، فلابد من أن يتلاءم من جديد مع الأوضاع هناك ، كما سيتلاءم مع الحالة فى بلاده حين يعود اليها . وأما اذا ظل فى القرية ولم يبحر الى فرنسا ، فان الزوجة لا تلبث أن تحمل للمرة الثانية . وهكذا تجري هذه الأمور كلها ولا يرى فيها بأسا ولا تثريبا . فهل يمكن بعد هذا أن نلوم جميع هؤلاء الشبان من غير استثناء ، وأن نستنكر بدون تردد ما يفعلون ، والحال أنهم لا يشعرون بأي ذنب ارتكبوه ولا يدخرون جهدا لرفع مستوى حياتهم ؟

والحقيقة انه يوجد من بين هؤلاء الشبان من يفكر فى الأمر جديا ، ويحاول أن يحسن أحواله وأن يحقق الى حد ما مطامحه . ومن بينهم ذلك الشاب من ايغيل نزمان الذي عزم على أن يتحرر من جميع القيود ، لأن هذا الحل فى نظره هو الحل المنطقي الوحيد .

وصل هذا الشاب ذات يوم الى البلاد عائدا من مدينة توركوينج ، فقال لزوجته ليضعها أمام الأمر الواقع :

ـ يا هذه ، أنا فقير . وجميع الناس يعرفون بأنني لا أملك شيئا فى ايغيل نزمان . أما فى مدينة نور كونيج فلي على الأقل عمل فى أحد مصانع الغزل والنسيج . والبنات فى هذا المصنع كثيرات . ومابقي لي اذن سوى أن أطلب منك الرجوع إلى أهلك ، وأن تتزوجي مرة ثانية مع من تريدين . أما أنا ، فقد قررت نهائيا أن أعود الى هناك .

وقال له القاضي الذي رفعت اليه قضية الطلاق هذه :

ـ انك ترتكب غلطة فادحة . واذا أردت مني النصيحة ، فالأفضل أن تأخذها معك الى توركوينج ، ولن تجد معها الا الخير ..

فقال الشاب لزوجته :

ـ هل توافقين على الذهاب معي الى مدينة توركوينج ؟

ـ موافقة . وهل هي بعيدة ؟

ـ بل قريبة . هيا بنا اذن .

وحينما وصل الزوج الى توركوينج لم يجد سكنا لأنه لم يكن له سوى ولد واحد ، وادعت مصالح البلدية أنه لابد من ولدين لكي يسجل اسمه فى قوائم الاسكان .

وألح الزوج عليهم فى الطلب ، وقال لهم :

ـ سجلوني في هذه القوائم ، وسأعود اليكم بعد عشرة أشهر ، مستوفيا لجميع الشروط .

وهكذا حصل على سكن في توركوينج ، وظل يعمل ويكدح هناك ، في مصانع الغزل والنسيج في شمال فرنسا .

وآخر ما يروى عن هذا الشاب من أخبار ان زوجته عادت من جديد إلى ايغيل نزمان وبصحبتها طفلان ، بعد أن كان لها طفل واحد . أما الزوج فقد بقي هناك وما لبث أن عوض عن بنت بلاده بفتاة من فلاندره كان قد تعرف بها .

ولكن ، ماذا حدث بينهما بالضبط ؟ لقد قال البعض بأن صورة زوجته نشرت مكبرة على الصفحة الاولى من احدى المجلات الأسبوعية ، وان أبناء بلاده ممن يشتغلون في تلك المنطقة صاروا يقبلون الصورة أمامه بطريقة ماجنة . وأخفقت جميع محاولاته للاهتداء الى هذا الصحافي الوقح ، غير أن هذه القضية سببت له عدة مشاجرات ، فلم ير بدا من أن يتخلص من امرأة فقدت شرفها . ويقال أيضا أنه لم يتأسف على فراقها وانه عوض عنها بأحسن منهـا ...

لا والله ... ما من شك في أن كل هذه الأمور ليس فيها شيء من الجد . واذا نظر الانسان الى الزواج في ايغيل نزمان فلا يجد فيه شيئا من التعقل والمنطق . ولم العجلة في الزواج اذا كان الامر كله هزلا ؟ والغريب ان جميع الناس قد سلكوا طريق الهزل ، فهم يتزوجون من غير أن يفكروا في العواقب ، ويطلقون زوجاتهم

بنفس الطريقة الطائشة ، وينجبون الأطفال بدون أن يفكروا فى أمر مستقبلهم ، ويهملونهم بدعوى الفقر وضيق ذات اليد ، ويسافرون الى فرنسا على أمل ايجاد حل نهائي ، ولكنهم فى الواقع لا يحلون من المشكلة شيئا . وخلال ذلك كله يبلغ الرجال والنساء مرحلة الشيخوخة ، ويتربى الاطفال فى البؤس والشقاء ويصبحون بدورهم شبانا ورجالا . ويتساءلون عن مصيرهم . وذات يوم يحصل بين هؤلاء الشبان وبين الشيوخ سوء تفاهم فيكرهون البلاد ، ولا يفكرون الا فى الخروج منها . ولقد تجد منهم من يرغم نفسه على البقاء فى أرض الاجداد ، الا أنهم يعرفون فى قرارة أنفسهم أن المغامرة الى الخارج ستغريهم ان عاجلا أو آجلا، وأنه متى حدث ذلك فلابد من الاستجابة لندائها القوي . وعندئذ لا يجدون مانعا من الزواج بأية فتاة يقع عليها اختيار أهلهم . وعلى هذا المنوال تستمر المهزلة الكبرى من جيل الى جيل .

وأكثر من يستحق الشفقة والرحمة : البنات ، لأنه لا بد من بقائهن فى البلاد . ولو قبل أزواجهن لذهبن معهم الى فرنسا ، ولكن يتحتم حينئذ على هؤلاء أن يعلموهن ويربوهن ويعاملوهن كالاطفال الصغار ؛ وينقلوهن معهم من مكان الى مكان كالامتعة . والله يعلم كم يتطلب ذلك كله من الوقت . لقد كتب عليهن البقاء فى البلاد ، وليس لهن من حيلة سوى الصبر الى أن تحين الوفاة . ومثلهن كمثل الزرع الرديء الذي لا يتعهده أحد بالسقي فترى الساق منه يذبل ويجف ويدوسه الراعي وتحوله الماشية الى هشيم .

ما كانت هذه الامور لتخفى على مالحة ، وهي المرأة الذكية الفطنة . غير أن الامل كان في بعض الاحيان يعاودها . ولم لا ؟ أو ليست ابنتها ذهبية من أحسن البنات وأجملهن ؟ إذن فليس من المستبعد أن يتقدم شاب عاقل رزين ليخطبها ، ويجعل منها فتاة سعيدة . أضف الى هذا أن ذهبية متعلمة ، واذا رافقت زوجها الى فرنسا فانها ستعرف بدون شك كيف تدبر الامور ، ولن تعود الى ايغيل نزمان خائبة بعد سنة أو سنتين . والمسألة كلها بالنسبة لذهبية مسألة حظ .

كثيرا ما كانت مالحة تفكر سرا في عميروش ، ولد مدام . انها تعتقد بأنه شاب مناسب تماما ويمكن أن يكون لابنتها زوجا مثاليا ، وهي لا تفتأ تفكر في نفسها قائلة : « لا بد من الحذر والحيطة ولا ينبغي أن يسمع بهذا أحد . والمهم قبل كل شيء هو أن يعود عامر من فرنسا ، وعندئذ سندبر معه الامر » .

وفي انتظار ذلك اليوم حاولت أن تستدرج مدام للموضوع حتى تعرف رأيها ، فجرى بينهما هذا الحديث :

ـ ذهبية بنت لطيفة تستحق كل السعادة . وأنت ، ألا تفكرين في تزويج ابنك عامر ؟

ـ لن أسمح لنفسي أبدا بالتدخل في زواج ابني ، فلن أخطب له أية فتاة ، وعلى كل حال فولدي المسكين لا يزال في ديار الغربة . وزيادة على هذا ، فعاداتنا في الزواج نحن الفرنسيون مخالفة لعاداتكم .

ان جوابها واضح كل الوضوح ، وليس فيه أي لبس . ومن الواضح أيضا أن مدام لا ترغب فى ذهبية كزوجة لابنها ، لا لأن هذه الفتاة مسيحية ـــ وان كانت هذه حجة المنافقين الآخرين ، وهي حجة لا أساس لها من الصحة ، لأن الانسان لا يكون مسيحيا الا بمحض ارادته ، وذهبية لم يعد يهمهـــا أن تظـــل على الديانة المسيحية ـــ ان مدام لا ترغب فيها كزوجة لابنها لسبب آخر ، وهو أنها بائسة فقيرة . وهذا ما جعلها تلازم معها جانب الحيطة والحذر . وان هي فى الواقع الا كغيرها من النساء الاخريات ، تحسب حسابها متظاهرة باللطف واللين . ولعلها هي أيضا تبحث وتجد فى البحث عن خطيبة لابنها غنية ، ومن بنات احدى العائلات الكبرى فى ايغيل نزمان . انهـــا بدون شـــك تبحث عن آية فى البشاعة وسيرضى بها ولدها زوجـــة له من غير أن يكـــون له فى الموضوع أي رأي . ألا ما أخيب ظنها اذا كانت تعتبر نفسها ، هي وابنها ، من الاكابر فى ايغيل نزمان !

وهكذا صارت مالحة تنتظر المكتوب ، صابرة من غير أن تفقد الامل . صارت تنتظر متى تســـنح لها الفرصة ويتقدم النـــاس ليخطبوا ذهبية ، وهي تمني نفسها ، اذا تحقق الامل ، أن تتشفى من مدام وأن تخاطبها :

ـــ ألم تقولي يا مدام بأن عامرا سيختار بنفســـه البنت التى يهواها ، بعد عودته من فرنسا ؟ ليكن فى علمك اذن أن الامور تمت على أحسن ما يرام بالنسبة لذهبية . وأنا أخبرك بهذا ، لكي تفرحي معي لأنك صديقتي الوحيدة . وفى الحقيقة يا مدام ان

عامرا وذهبية أبناء عم ، ومن الافضل أن يظلا دائما أبناء عم . وقد بدأت بنتي فى المدة الاخيرة تشعر تجاهه بشيء من المودة . وأنا متأكدة أنه سيبادلها تلك المودة . سيكون لها بمثابة الاخ . أترين فى ذلك مانعا يا مدام ؟ واذا تزوجت ، فلن تكون كاليتيمة التي ليس لها أحد يزورها .

وكاد هذا الامر يتحقق بالفعل ذات يوم . ولكن فرحتها لم تدم فى النهاية الا لحظات ، فخاب أملها مرة أخرى ، بل هي أكبر خيبة عرفتها فى حياتها . ولذلك كتمت الخبر كله عن ابنتها ، فلم تسمع به أبدا .

تصوروا أن شيخ البلدية بنفسه طلب منها الحضور ليفاتحها فى موضوع ، واستقبلها فى مكتبه واتخذ هيئة مهيبة قبل أن يتحرك لسانه بكلمة . وكانت هي تتوقع فى شيء من القلق أن تسمع منه توبيخا على غلطة فادحة ربما ارتكبتها .

والغريب فى الامر ، انه أخذ يتحدث عن ذهبية . وتنفست مالحة الصعداء ، واحمر وجهها من الفرح ، وانتابتها رعشة عصبية . الحمد لله .. ابنتها أصبح لها شأن بين قومها ، وامتلكت القلوب بجمالها وصفاتها . ومن ياترى قصدها ليخطبها ؟ أحد الاغنياء ممن لا يهمه سوى جمالها وصفاتها ، ولا يقيم أي اعتبار لما يبحث عنه الآخرون .. والمعروف أن شيخ البلدية له ولد بلغ سن الزواج ، فيا له من حظ سعيد .

وبعد أن تكلم شيخ البلدية ، قال لها فى الاخير :
ــ أعتقد انك لن ترفضي طلب الزواج من ابنتك ؟

ومالحة تعرف أن ولده متزوج ، غير أنها لا تشعر بأي حرج فى أن يطلق زوجته وأن يحل ذهبية محلها . ومع ذلك ردت عليه لكي لا تشعر بتأنيب الضمير :

ــ ولكن ابنك متزوج ..
ــ الموضوع لا يتعلق بابني ، بل يتعلق بي أنا .
ــ أنت ؟
ــ نعم .. وسوف أعطيها مفاتيح الدار (1) وسوف أقلدها جميع الامور .. أما أنت ، فسوف تعيشين معنا فى البيت ، كأحد أفراد الاسرة . أنا غني ، ولن ينقصكما عندي شيء .

فأجابت بصوت منخفض :
ــ الآن فهمت قصدك .. تريدها لنفسك ..

وأحست مالحة بالرغبة فى البكاء ، والهروب من ذلك المكان ، وتمنت لو تبتلعها الارض فى أغوار عميقة حالكة ..

اذن ، أهذا ما أراده هذا الرجل البالغ من العمر خمسين عاما .. أن يتزوج من ابنتها التي أعجب بجمالها ، وأن يحتفظ بها لنفسه ، وأن يشتريها لأنه غني .؟

1 ــ اعطاء مفاتيح الدار : كناية عن تسليم جميع الامور اليها . (المترجم) .

ثم أضاف شيخ البلدية ، وكأنه أدرك ما يدور فى خلدها .

ـ فكري جيدا يا مالحة فيما قلته لك ، وكوني عاقلة . لابد من أن تفاتحي ابنتك فى الموضـــوع . وأنا لا أريد الا مصـــلحتك ومصلحتها . وتذكري أن بلقاسم آيت شعبان تزوج من علجية ، وهو أكبر مني سنا ، وأقل ثراء . لا تغتري بالشبان يا مالحة ، واياك أن تدفعي بابنتك الى البؤس والشقاء .

وانصرفت فى حال سبيلها من غير أن ترد عليه ، وأحست فى نفسها بالخزي والمذلة . وكيف لا ، وقد مسها فى الصميم عندما قارن بين ذهبية وعلجية . وقالت فى نفسها :

ـ لن يحدث هذا ما دمت حية .

وكتمت هذا الخبر عن ابنتها ، فلم تسمع به أبدا .


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصـــل السادس

أبغض الشبان الى ذهبية وأكرههم عندها ، هو مقران ، فهي تنزعج من لقائه ، لأنه لا يكاد يصادفها فى الطريق حتى يلتهمها بنظراته ، ويكشف عنها ستار الحشمة بدون حياء ، فيغيظهـا ذلك أشد الغيظ . ولا يكاد يراها من بعيد حتى يركز عليها عينيه الكبيرتين السوداوين ، فلا يغض الطرف أبدا ، بل يرسل منهـا نظرات محرقة . وهو لا يكترث بعيون الجيران ، ولا يتحرج من إزعاجهـا ، بل يبـدو من سلوكه معها انه يريد أن يعاكسها ، وأن يعبر لها عن ترفعه عنها وميله اليها فى نفس الوقت . وهو لا يعرف سببا لذلك الترفع ـــ أهو ناشيء عن رغبته الشديدة فيها ؟ كما أنه لا يدري مبعث تلك الرغبة الشديدة ـــ أهي نتيجة للاحتقار الصريح الذى يظهره لتلك الفتاة المسيحية ؟ ان هـــذه النصرانية التي يشعر بأن جمالها يتحداه ، ويزعزع ايمانه كمسلم صادق ، لا تستحق فى نظره الا أن ينتهك عرضها بدون شفقة ولا رحمة ، واذا وجد الى ذلك سبيلا ، فانه على أتم الاستعداد للقيام بهذا العمل ، ولربما سينال على عمله أجرا وثوابا .

أما ذهبية فهي تكرهه لا لسبب معين ، وانما تخاف منه بعض الشيء وتنكر من سلوكه معها تلك النظرات المتعطشة وبعض الاشارات والعبارات البذيئة ، وكلها من الاشياء التى تنكرها أية فتاة أخرى اذا صدرت عن أي شاب . وجملة القول ، أنها لا تنكر من أمره معها سوى تلك النظرات السمجة .

ورغم أنها تتأثر ، بل تغتاظ أشد الغيظ عندما يعرض عنهـا الشبان : فانها تفضل أن تصادف فى الطريق من يشيح عنها وجهه ، على أن تقع وجها لوجه مع مقران ، بابتسامته القاسية وعينيـه الماكرتين . ومع ذلك فاذا حدث أن التقيا فى مكان منعزل ، فان جرأته كلها تتبخر : فابتسامته تتجمد على شفتيه فى بلادة ، وطرفه يتبلل بالدمع . ولا يكون من ذهبية حينئذ الا أن تتركه منتصبا فى مكانه كالأبله ، وتمضي فى طريقها عابسة رزينة . ولم يحدث ولا مرة واحدة أن التفتت الى ورائها لتترحم عليه بنظرة . وعلى كل حال فرغم سوء أخلاقه معها ، أصبحت على يقين بأنها ــ عند اللزوم ــ تستطيع أن ترد اليه الصاع صاعين ، بل هي متأكدة تماما انها لم تعد تخاف منه .

حينما بدأت أمها مالحة تشتغل عند أهله من بيت آيت سليمان وتسقيهم كل يوم من العين ماء ، تظاهر مقران بأنه لا يعرف شيئا عن هذه العلاقة الجديدة التي نشأت بين العائلتين ، كما أن ذهبية التي استاءت من عمل أمها وأحست بشيء من المذلة ، تظاهرت هي كذلك بعدم الاكتراث ، وقررت أن لا تدخل بعد اليوم دار آيت سليمان ، وصارت تقابل ابتسامته السمجة بوجـه عابس

متجهم . ولذلك فقد كان من الطبيعي أن لا تقابله بالرضى حينما أراد أن يقبلها . ولكن ذلك الحمار البليد لا يفهم معنى للشرف والكرامة وحسن الاخلاق ، وقد لقي منها ما يستحقه عندما دخل الى الدار ، حاملا بين يديه صحنا من الكسكسي ، وقد ارتسمت على وجهه الرغبة الدنيئة والبلادة التامة .

ومد اليها يده فى خبث ومكر متمتما بين شفتيه :

ــ أتيت به لأمك .

وعندما تناولت الصحن وأخذت الابتسامة ترتسم على شفتيها ، كأنها أرادت بذلك أن تغفر له وقاحته معها ، أمسك بها غدرا من خصرها ، كالكلب الخداع الذي يغرك منه سكوته فينهشك بأنيابه ، وأنت عنه غافل .

وأطلقت الصحن من يدها على عتبة الباب ، ودفعت بكل قواها مقران على بعد ثلاثة أمتار الى الجدار المقابل . ولم ينبس ببنت شفة وانما مسح كتفه وانصرف فى حال سبيله ، وهو يكن لها فى نفسه الحقد والضغينة .

وفى الواقع انها تشعر فى أعماقها بالسرور من هذا الدرس الذي أعطته اياه . وقد أدركت أنها لن تحس بعد اليوم بأي خوف منه ، وخشيت أول الامر أن تعقد أمها المسألة ، غير أنها لم تستطع أن تمنع نفسها من أن تكلمها عن الحادث وأن تصفه لها كأنه انتصار تستحق عليه كل ثناء .

وبالرغم من المشاجرة العنيفة التي نشبت على اثر ذلك الحادث ؛ ورغم الاقاويل المشينة التى روجتها أم مقران العجوز عن « الكافرتين بالله » اللتين بعث بهما الشيطان الى ايغيل نزمان لافساد الشيوخ والشبان ، فان ذهبية لم تضمر فى نفسها أي سوء لمقران . وكانت على العكس من ذلك ؛ تنتظر فى شيء من الفضول أن تصادفه ثانية فى الطريق وأن تلقي نظرة عجلى الى وجهه الماكر لعلها تسمعه يلمح تلميحا بذيئا الى رجولته ، أو يتلهف من النار التى شبت فى قلبه ، وحينئذ ستسمعه ما يستفزه ، وستجيبه اذا اقتضى الامر بعبارة لاذعة تلمح بها للحادث الاخير . وما من شك انه سيفهم ما تعنيه منها . لقد بدأت تستلذ هذه اللعبة التي أرغمها عليها مقران ، لأن ذلك الشاب ، بالفعل ، بشع جدا ، وكانت ــ وهي الفتاة اللعوب ــ تجد لذة فى السخرية منه .

وفى الحقيقة انه أشبه ما يكون من حيث الهيئة والصورة بكلب (بولدوج) ، اذ له رأس كبير وفم منفرج جدا ، وعينان تبعثان الفزع فى قلوب الاطفال . ومهما أجهد نفسه فى حلق ذقنه فان النقاط السوداء من لحيته الكثيفة تضفي دائما مسحة رهيبة على وجهه الذي أحرقته الشمس حتى صارت بشرته الملساء سمراء داكنة السمرة . ويحسب من ينظر الى يديه الكبيرتين انه قوي البنية ، غير أنه لم يكن يفوقها فى الطول ، بل ان قامته لهي دون المتوسط بالنسبة للرجال . ولا يحبه الشبان لأنه فى نظرهم شخص

متأخر ورجعي ، يصدق خرافات العجائز ولا يقل عن أبيه فى الحقد والنفاق . وباختصار ، فقد اجتمعت لديه من الصفات ما جعل عائلته تعتمد عليه ليحافظ على تراثها .

ولئن كان الناس يتحملون معاشرته أحيانا ، فلأنه غني ولأنه قد يقرضهم عند الحاجة بعض المال . وهو من جهته لا يميل للمخالطة ولا يستعين بأحد لمساعدته فى أعمال الفلاحة .

أما فى سلوكه مع ذهبية ، فقد أظهر من العناد ما يبعث على الغيظ مما جعلها تشعر برغبة شديدة فى أن توسعه ضربا وتفقأ عينيه وتغرز أسنانها فى وجهه الداكن .

ظنت ذهبية أنه سينقطع عن معاكستها بعد تلك الفضيحة ، ولعله سيحمل لها فى نفسه الحقد الدفين ، ثم يتحول عنها الى غيرها . ان هذا الشخص المكبوت الذي لا يفتأ يلاحقها بنظراته المتعطشة قد نغص عليها العيش وعكر عليها شعورها بكونها جميلة ، فاتنة الجمال . وقالت فى نفسها :

ــ سأرى ما اذا كان قد عرف قدره .

وتم اللقاء الاول بينهما فى النادي (1) بعد انقضاء عدة أيام على الحادث ، ولكن النادي كان غاصا بالناس ، ومرت ذهبية مع رفيقاتها ، وقد حملت على ظهرها الجرة ، فلم تتجاسر أن ترفع رأسها ، الا أنها عرفت أنه موجود هناك . ولم تكد تمر من ذلك المكان حتى قال أحد الشبان ممن لم تكن تتوقع منه الاذى لأنها تحترمه ، قال بصوت مرتفع لا يخلو من السخرية :

1 ــ المقصود بالنادي هنا هو ما يسمى فى الامازيغية (ثاجمايث) اي الجماعة ، وهو مكان اجتماع اهالي القرية لحل المشاكل او للسمر وقضاء الوقت (المترجم) .

ــ لا نزال فى فصل الربيع يا مقران ؛ والتين لم ينضج بعد ؛ وفاكهته اللذيذة ليست لك على كل حال .

ولم يرد عليه مقران بشيء ، واغتاظت ذهبية من المتكلم ، وقالت فى نفسها ، وهي لا تدرك لغيظها سببا : « قل ما شئت ، فأنا لست له ولا لك ، ولا لأي واحد منكم أيها الاغبياء » .

لقد مسها فى الصميم حينما اعتبرها كالفاكهة التى يتمتع بها . أهذا هو معنى الحب عند هؤلاء الاجلاف من ايغيل نزمان .؟ وحينما وصلت الى الدار ، نظرت الى نفسها فى المرآة الصغيرة بزهو واختيال ، ورأت بينها وبين الخوخة شبها ، ولو قال عنها بأنها خوخة لأعجبها ذلك منه ، ولكن يا له من غبي ! أرأيت كيف شبهها بالتين ؟

وفى الايام التالية انقطع مقران عن التعرض لها فى الطريق ؛ ولعله كان ينوي أن يتركها حتى تنسى الحادث تماما . الا أنها ذات يوم رأته على سبيل المصادفة واقفا فى البعيد بالقرب من العين ، حيث يملك أهله حقلا . وفى اليوم التالي ؛ ثم فى سائر الايام الاخرى وجدته هناك ، وقد وقف لها بالمرصاد مرة فوق شجرة من أشجار الكرز القائمة على جانب الطريق ــ وكانت حينذاك قد بدأت ثمارها تنضج ــ ومرة أخرى وجدته مشغولا بادخال الاعشاب اليابسة الى الكوخ . وذات مرة صادفته فى نفس الطريق منهمكا فى تصليح ثغرة حدثت فى السياج .

ومن عادة مقران كلما أبصر البنات قد أقبلن فى الطريق أن يدير لهن ظهره . فاذا اختفين عن الانظار مبتعدات ، انصرف بدوره من المكان وانهمك فى شغل آخر . ولم تلاحظ أية واحدة منهن هذا الصنيع سوى ذهبية . ولكي تكشف ذهبية عن وجودها بين البنات ، كانت تكتفي فى أغلب الاحيان بأن تضحك ضحكة عالية لأتفه الاسباب أو تتفوه بكلمة نابية تضحك لها البنات ثم تمضي كأن شيئا لم يكن .

أصبحت دهبية على يقين بأنه لا داعي للخوف من مثل هذا الشخص . وها هو الآن يتظاهر أمامها بالخجل ، حتى يجعلها تعطف عليه . ولكنه فى الواقع منافق . وما زادها ذلك الا كرها له . وقالت فى نفسها :

« ما أخطأه اذا كان يظن بأنني أعيره أي انتباه » .

ولزمت الدار لمدة يومين ، ولم تبرحها الى العين لأن أمها هي التي قامت بالسقي ، وشعرت برغبة جامحة فى أن تستخبر عما حصل ، ولكنها لم تفاتح أمها فى الموضوع ، ولم تجد من يخبرها عما اذا كان مقران قد خرج خلال اليومين ليحوم حول العين .

وفى اليوم الثالث نزلت بمفردها الى القرية لتملأ جرتها ، وفى مثل ذلك الوقت من النهار لا يوجد عادة أحد فى العين ، فقالت فى نفسها : « لن يخطر بباله أبدا أن يتعرض لي فى مثل هذه الساعة .

وسيطول به الانتظار اذا كان يتوقع أن يراني بصحبة البنات عندما يذهبن الى العين » .

وكم كانت دهشتها حين شاهدت مقران بالقرب من الكوخ ، منهمكا فى عمله يحتطب . ومرت غير مكترثة به ، غير أنها لاحظت بأنه انقطع عن العمل ، ومد نحوها وجهه الذي ارتسمت عليه الدهشة ليحملق فيها بعينيه الواسعتين . وتوقف فأسه لحظة — احتراما لها — قبل أن يهوي به الى الارض .

وحثت خطاها الى العين القريبة ورددت فى نفسها : « أنا .. مشمئزة منه .. مشمئزة تماما » .

وان هي الا لحظة حتى أقبلت الى العين عجوزان ، وتلاحقت النساء واحدة بعد الاخرى ، حتى غص بهن المكان .

وذات يوم ، بينما كانت ذهبية متأكدة أنها ستجد مقران قد تعرض لها فى الاماكن المعتادة . واذا به يتخلف عن الموعد . وما كادت تلاحظ ذلك حتى أجالت بصرها يمينا وشمالا ، ونظرت الى الكوخ وتطلعت لعلها تشاهده تحت الشجرة الباسقة أو تحت الكرمة ، أو فوق شجرة الكرز . ولما تأكدت أنه بالفعل لم يحضر ، أحست بشيء من خيبة الامل ، كما لو حدث فراغ هائل فى قلبها . وتوترت أعصابها ، فقالت للمرأة التى كانت تسير أمامها :

— مالك نائمة ؟ عجلي فى السير ، أو افسحي لي المجال حتى أمر .

ــ فأجابتها الاخرى :

ــ أمامنا متسع من الوقت يا بنتي . فما بك فجأة تستعجلين ؟

وعند ذاك قالت فتاة أخرى بأن مقران قد أخلف وعده فى هذه المرة . فأخذت البنات كلهن يضحكن . واحمر وجه ذهبية ، ولزمت الصمت وتساءلت :

« ترى . هل يعتقدن بأنه لا يتعرض لنا فى الطريق الا من أجلي ؟ »

ثم طمأنت نفسها : « ما أبلد هؤلاء النسوة . ومتى كنت أعير هذا الغبي أي انتباه ؟ »

وفى طريق العودة من العين . صادفن مقران فى مدخل القرية ، وكان واقفا بمفرده ومستندا الى باب مغلق . وقد ارتدى بمناسبة ذهابه الى السوق عباءة بيضاء فوق صدارة سوداء ، ووضع برنوسه على كتفه . وكان يبدو عليه أنه ينتظر شخصا سيفتح الباب عما قليل ليخرج من الدار . وحينما وصلن اليه أدار لهن ظهره وتنحى جانبا ليفسح لهن الطريق . ثم صاح بأعلى صوته :

ــ أسرع ! أنت عارف انني وصلت الآن فقط من السوق . ولا بد من أن أتفقد أشجار الكرز .

الا أن الباب لم ينفتح ، ولم يخرج منه أحد . وتأكدت ذهبية أن هذا الكلام موجه اليها وأنه يعتذر عن تخلفه عن الموعد .

وامتلأ الفراغ الذي أحست به فى قلبها . لقد أدركت السبب وعادت الامور الى مجراها . غير أنها تظاهرت بعدم الاكتراث ، ورددت فيما بينها وبين نفسها مرة أخرى :

ــ أنا مشمئزة منه .. مشمئزة تماما .

الفصـــل الســـابع

ذاك الصباح ، رجعت مالحة من الحقل في حوالي الساعة العاشرة ، ورمت عن ظهرها أمام عتبة الباب حزمة صغيرة من الحطب اليابس،ثم مسحت وجهها بأحد أطراف فوطتها(1)وتطلعت في حزن الى ابنتها التي كانت منهمكة في فتل الدقيق من الشعير ، على القصعة الكبيرة ، لتعد منه شيئا من الكسكسي ، وقالت بصوت كئيب :

ــ خلاص .. مساء البارحة ، خطب مقران ويزة نايت حموش . فقد سمعت النساء يزغردن حينما مررت بالقرب من دارهم وجميع الناس في القرية يتحدثون عن هذه الخطوبة .

فأجابتها ذهبية ، وهي تهز كتفيها غير مكترثة :

ــ وفيم يهمني ذلك يا أماه ؟ هنيئا لويزة بهذه الخطوبة .

انها تعرف أن أمها ستظل عابسة الوجه طيلة النهار ، كما لو أن كل فتاة يخطبها الناس في ايغيل نزمان ، انما تحصل على ذلك الشاب الذي كان من المفروض أن يكون لابنتها هي ، وكما لو أن ذهبية ــ وهي الفتاة المغفلة ــ تسمح لجميع البنات بحرمانها

1 ــ الفوطة : قطعة من الثوب زاهية الألوان ، تأتزر بها النساء في الخصر (المترجم) .

من نصيبها . وذهبية ، فى مثل هذه الظروف لا يسعها الا أن تكون عاقلة مع أمها ، فتقول لها بأن الذنب ذنبها ، وتطلب منها العفو ، فتسر أمها لذلك الموقف منها ، وتغفر لها ويعاودها الامل من جديد .

ومع ذلك ، فقد كانت مالحة متيقنة فى تلك المرة أن عائلة آيت سليمان لن تنزل الى مستوى فتاة بائسة كذهبية .. ذهبية التي هي نصرانية ، زيادة على فقرها ، وليس لها أهل ولا خلان ، بل هي عديمة الشرف أيضا . أليست هي الفتاة التى يقول عنها الشيوخ بأنها (بنت الزبل) ؟ انها تعرف جيدا بأنه لا أمل فى الحصول على أية نتيجة من عائلة آيت سليمان . ولكن ما عساها تفعل وهي تكره كل من يتزوج فى القرية ؟

وبعد لحظات ، راحت تقول :

ــ معك حق يا بنتي ، تلك العائلة هي آخر العائلات التى أتمناها لك . انها بؤرة الفساد والرذيلة ، والله يرزق من يشاء .. وعلى كل حال فأنا أعرف من قد لا يفرح بهذه المصاهرة . وأما من جهتى ، فأنا راضية .

ــ ومن هو هذا الشخص يا أماه ؟

ــ وهل هناك أحد سوى الرومية (1) ؟ جميع الناس يعرفون بأن علاقاتها حسنة جدا مع أهل ويزة . وقد بذل دادا أحمد وأختي فاطمة كل ما فى وسعهما لتحسين تلك العلاقات ، وكنا

1 ــ الرومية : اي (مدام) الفرنسية . (المترجم) .

تتوقع أن تنتهي الامور الى نتيجة ، وكادت مدام رغم حذرها واحتياطها تورط نفسها وتخطب ويزة لابنها . ولا أدري اذا كانت الآن متأسفة على ترددها . وعلى كل حال ، فلا بد من أن تبحث لابنها عن فتاة أخرى .

ولم ترد عليها ذهبية ، الا انها قالت فى نفسهـــا بأن الشيء الوحيد الذى استحوذ على عقل أمها ، هو البحث عن فتـــاة أخرى :

« لعل أمي تعتقد بأنني سأكون تلك الفتاة ، وهذا ما جعلها مسرورة » .

كان بودها لو تستطيع أن تشرح لأمها مرة أخرى بأنها غير مستعجلة ، وأن فكرة عدم الزواج ، والبقاء معها طول الحياة ، قد خطرت ببالها مرارا . ان صوت ابليس اللعين الذى لا يفتأ يهمس فى آذان جميع الفتيات لا يزعجها كثيرا ، بل هي فى بعض الاحيان تغبط الراهبات وتتمنى أن تكون مثلهن . وهل خفي عليها ما يجري فى ايغيل نزمان ؟ فلم العجلة فى الزواج بأول من يخطبها اذن ؟ واذا تزوجها فلابد من أن تقر له بفضله عليها ، لأنه اختارها دون غيرها ، ولا بد أيضا من أن تتحمـــله مدى الحياة لا لشيء سوى لأنه رجل رضي أن يتزوج بها .

غير أنها لم تقل شيئا ولزمت الصمت الى أن عادت أمها الى حالة الهدوء وختمت كلامها كعادتها :

ــ ما عندك حظ يا بنتي المسكينة . المسألة كلهــا يا بنتي متوقفة على نصيبك المكتوب على الجبين . واذا لم يكتب عليــه شيء فانك مهما انتظرت الخطاب ، فلن يقصدك أحد منهم . نعم يا بنتي .. المسألة كلها متوقفة على المكتوب فوق جبين كل انسان .

وعندما تسمع ذهبية ذلك الكلام لا يسعهــا الا أن تحني جبينها فى طاعة وخضوع . على أن عتاب أمها لا يتجاوز هــذا الحد . ولا يدوم غيظها الا لحظات ، لأنها تتشفى بشتم العروس من حيث الذات والصفات ، ثم تنتقل بعد ذلك الى العريس ، ثم الى أهل كل منهما ، فتستعرضهم واحدا بعد الآخر ، وتنال كل واحد منهم بالسخرية والاستهزاء ، فاذا فعلت ذلك استراحت نفسها وعاد اليها السكون والرضى .

أما فى تلك المرة ، فلم تنل مقران ولا أهله بالانتقــاد ، لأن الشيء الذى يعرفه الناس عنهم يكفي ولا حاجــة لمــزيد من الشتم . ولكنها سلطت لسانها على ويزة وأهلها آيت حموش ، كما اغتاظت من مدام التي كادت تورط نفسها معهم :

ــ لعلها تتوهم أن الناس لا يذكــرون الخصومة القديمة الموجودة بين عائلة آيت حموش وعائلة آيت العربي ، فزوج مدام قتله أحد أفراد عائلة حموش . طبعا ، وقع ذلك من زمن بعيد . ولعلها نسيت زوجها .. أما أنا فلم أنس أبدا ، ولم أنس أيضا أن مصرعه تختفي وراءه أسباب غير مشرفة .

ـ ما هذا يا أماه ؟ وماذا سيكون موقفها اذا سمعتك تقولين ذلك عنها ؟

ـ معك حق يا بنتي ، فهي لطيفة معنا ، ولا يجوز أن أنتقدها، وعلى كل حال فلم يتم ذلك الزواج ، ومن يدري فلعل عامرا هو الذى عارض فى قبره وكذلك كمومة ، فلم يوافقا على هذا المشروع .

ـ ومن هو عامر ؟

ـ عامر هو زوج مدام ووالد عميروش . أما كمومة فهي العجوز أمه . وأصلها من عائلة آيت حسوش . كم مرة شرحت لك ذلك ؟

ـ أنا على علم بأنه توجد أواصر قرابة .

ـ ماذا تقولين ؟ قرابة ؟ ان جميع الناس فى ايغيـل نزمان بينهم أواصر قرابة . كل العائلات بينها روابط قرابة ، فأنت مثلا ..

وراحت نته مالحة تبحث عن أصلها وفصلها فى القرية وتحدثها عن قرابتها مع مختلف العائلات . وتلك هي عادتهـا لقضـاء الوقت .

وهكذا غيرت مالحة موضوع الحديث وصارت تفكر فى أمور أخرى ، الا أن ذهبية ظلت على العكس منها كئيبة طوال النهار .

مامن شك لديها فى أن الطرق التي يستعملها مقران فى ملاحقته لها طرق تدعو الى الاستهزاء ؛ لأنه يكتفي بمجرد النظر اليها كلما تعرض لها فى الطريق ، كأنه يجد فى ذلك متعة . ولا شك أنها ما كانت لترضى أن تكون زوجته ، وكل ما فى الامر أنها تجد فى تلك المغازلة الصامتة ما يشبع أنوثتها . ولذلك فسرعان ما فقد مقران لديها ذلك القليل من العطف الذي بدأت تشعر به نحوه ، على غير علم منها . وما هذه الخطوبة الا دليل آخر على غدره وخيانته . وتلك هي فى الحقيقة عادة جميع أبناء آيت سليمان . ولكم تتمنى الآن أن تصادفه فى الطريق لتعبر له عن احتقارها . غير أنه لن يتجرأ بعد اليوم على المجيء الى المكان المعتاد لانتظارها ، بل هي متأكدة أنه سيتحاشى لقاءها ، وسيصد عن الطريق حينما يراها .

لعلها كانت غيورة بعض الشيء من ويزة . وكيف لا ، وهي محرومة من جميع ما تتمتع به هي وأغلب البنات فى ايغيل نزمان : فكل واحدة منهن لها أب واخوة وعائلة تحميها ، وللبعض منهن مال كثير ، فمن المؤكد والحالة هذه أن الشبان سيتقدمون ان عاجلا أو آجلا للخطوبة والزواج بهن . أما ذهبية فمن سيخطبها يا ترى ؟ .. أحد التعساء من أمثالها بدون شك .. وستجبرها أمها على أن تقبله زوجا .. وما دام الأمر على هذا الشكل فلم العجلة فى الزواج ؟

وظلت ذهبية تجتر هذه الافكار السوداء الى أن تحولت كآبتها الى حزن عميق ، وشعرت على غير عادتها بالرغبة فى

البكاء . وما فتئت طول النهار تقول فى نفسها : « ما آنا فى نظر المعجبين بي الا فتاة للمتعة . انهم لا يفكرون الا فى تشويه سمعتي . أنا أحتقرهم جميعا لأنهم لا يختلفون عن مقران ... كلهم جبناء » .

وأحب الفتيات الى نفسها هي ويزة ، بنت الجيران . وهي تحب الخروج معها لمرحها وجرآتها فى الكلام ، وطيبة قلبها . فاذا ذهبت معها الى العين ، فان تلك اللحظات التى تقضيها معها تتحول الى نزهة ممتعة ، اذ أنها تعرف كيف تنتقم من أولئك الشبان الوقحين الذين يستفزون البنات عند اجتياز النادي ، فاذا مر أحدهم لوجده بالقرب من العين ، فان جرأته تتبخـر فيصير بدوره خجولا . انها تعرف كيف ترد على النكتة بألذع منها ، فتضحك جميع الحاضرين مما يجعل ذلك الشاب الوقـح ينهزم أمامها منحني الرأس . ثم ان ويزة وسيمة الوجه ، أقصر من ذهبية فى الطول ، ولكنها أكسل منها بدنا لأنها تكبرهـا بسنتين أو ثلاث . وما على الانسان الا أن ينظر الى أوراكها الواسعة وخصرها المكتنز لحما ، حتى يتبين له انها امرأة ناضجة الانوثة ، بينما يجد على العكس من ذلك فى مشية ذهبية ، وحركاتها وصوتها ، شيئا من العفوية الممزوجة بالطيش ، كأنها لا تزال بنتا صغيرة . واذا وقفتا جنبـا الى جنب ، وقـارن الانسان بينهما ، فانه سيحكم بدون تردد أن ذهبية أجمل منها بسحنتها الناصعة البياض ، وقدها الفارع الطول . غير أن ويزة

لا تقل عنها جاذبية ، فهي المثال المجسم للفتاة السليمة المتوازنة المتفتحة للحياة ، بل هي أكثر منها جاذبية بعينيها الضاحكتين الجريئتين ووجهها الناعم البسام مما جعلها محبوبة من طرف سائر من يتردد على العين من النساء . أما الشبان المعجبون بها فلا يجدون صعوبة فى الحصول على ابتسامة منها . وهي من جهتها كذلك تبادل ذهبية المودة وتحب أن ترافقها الى العين ، مما جعل أمها تحذرها غير ما مرة :

ــ لا أحب أن أراك دائما برفقة ذهبية ، فالناس لهم عيون ترى وآذان تسمع .. أنها جميلة ، وأنت إذا وقفت بجنبها تظهرين قبيحة .

فتجيبها ويزة ، ساخرة منها :

ــ أنا أيضا جميلة .

وبالفعل ، فقد لاحظت بدون أن تغتر بنفسها ، أن الشبان يعيرونها كثيرا من الانتباه ، فما الداعي اذن للغيرة من ذهبية ؟ بل هي على العكس ، تفضلها على الكثير من رفيقاتها .

وحينما التقت بذهبية بعد اعلان الخطوبة ، قبلتها بعطف ومودة ردا على تهانيها وتمنياتها ، وأخذتا على طول الطريق تتحدثان فى مختلف المواضيع ، ولم يكن بامكانها أن تتهرب من الاجابة على أسئلة البنات الفضوليات ، وراحت ويزة تتفنن فى اثارة غيرتهن . وهكذا فقد ظلت لمدة أسبوع محفوفة بالعناية

من طرف سائر رفيقاتها . أما صديقاتها فقد فرحن لخطوبتها غاية الفرح ، وأما الاخريات ، فقد كن يستمعن بكل انتباه لما يدور من أحاديث حتى اذا خلون الى أنفسهن ، حينئذ فكل واحدة منهن تبحث عن نقاط الضعف وتلفت الانتباه الى ما لاحظته فى كلام ويزة من المبالغة والكذب ، وكل ذلك لكي يقنعن أنفسهن أن ويزة مهما تظاهرت بالبهجة والسرور ، فانها لن تكون سعيدة فى البيت الجديد الذى ستدخله .

وسألتها ذهبية بشيء من المكر ، عما اذا كانت تحب خطيبها ، فأجابتها :

ـ أتريدين مني الحقيقة ؟ .. وجهه لا يروقني ، ولكنني مع ذلك سأحبه اذا كان لطيفا معي . ولا تنسي يا عزيزتي أن أهله أغنياء، فلهم بقرة وبضعة ثيران وكثير من أشجار التين والزيتون ودار كبيرة . ومن هذه الناحية لعلك توافقين أنه سيكون زوجا أحسد عليه . وعائلته معروفة كعائلة آيت حموش . وأنا لا أنوي من هذا أن أحط من قدر عائلتكم آيت العربي لأن أعمامك أيضا من ذوي الحسب والنسب .. وهذا الامر على كل حال مهم فى الزواج ، ولا تنسي أن له أخا . وهل تعرفين من هو أخوه ؟ رجل متعلم ، ولا يقل علما عن شيخ القرية ، بل هو أحسن منه ، تصوري انه يشتغل ناطورا (1) .

---

1 ـ الناطور : كان مرهوب الجانب فى القرية او البلدة ، على عهد الاحتلال ، ويسمى : garde - champêtre (المترجم) .

ـ لقد فرحت لك غاية الفرح يا أختي ، وما بقي عليك الا أن تحبيه لتكوني من أسعد الناس .

ـ فهمت قصدك ، وأنا لا أعرف ما اذا كنت سأحبه أم لا ، وعلى كل حال سأفعل كما تفعل بعض النساء . اسألي المجربات منهن وسيشرحن لك ذلك . ان المسألة على غاية من البساطة : ما على المرأة الا أن تغمض عينيها ، وعندئذ لن يكون الشخص الذي يضمها بين ذراعيه ويلثم ثغرها .. لن يكون سوى الرجل الذي تحبه هي .. ولكن كفى من هذا الكلام ، لقد جعلتني أقول ما لا يليق .. وأرجو أن لا تغاري مني أنت على الخصوص . اتركي الحسد والغيرة لغيرك من البنات .

ـ ولماذا أنا بالخصوص ؟

ـ طيب ، لقد ذكرتني بأمر .. ألا تعرفين عميروش ؟.. انه سيعود الى البلاد قريبا ، وسيكون عميروش لك أنت وحدك . يكفيه أن يراك مرة واحدة حتى يغرم بك . لن يكترث بأحد سواك أبدا . سترين عندما يصل ، من هو عميروش .. نجم يتألق بالجمال .

وتحدثت بعض رفيقاتها على سبيل التهكم عن أفراد البيت الجديد الذي سوف تدخله، فلمحت احداهن الى أن العجوز صعبة، وقالت أخرى ان بابا سعيد على العكس منها ، لطيف مع البنات فوق حد اللياقة ، وان زوجة الناطور هي ـ فيما يقال ـ صاحبة الامر والنهي عند بيت آيت سليمان ، فردت عليهن ويزة :

ـ أتردن الصراحة ؟.. لو تقدم أحد الشبان ليخطب فتاة ودفع لها مهراً يقدر بمائة ألف فرنك ، لشعرت بالحسد والغيرة منها ، ولكن ما كنت لأفتح فمي ، ولا كنت لأنتقدها في شيء . أما الشيخ بابا سعيد فإذا دار بخلده أن ينال مني أي شيء فسأنتف لحيته . أما العجوز ، فأنا أنصحها أن لا تتدخل فيما لا يعنيها . وليكن في علمهم أن أهلي من ذوي الأنفة والشرف ، وبنتهم لم تبر (1) عليهم ، ولم يحركوا ساكنا ليزوجوها ، بل جاءوا هم ليخطبوها . ان بيت آيت حموش لا يدللون على بناتهم كما يدلل على السلعة الكاسدة . ومن هذه الناحية فلتكن مطمئنات علي . أما زوجة الناطور فهي من بنات العم ، وأنا لا أخاف منها لأنها معوجة القد كالعصا المعقوفة ، وهيهات أن تكون مثلي في الجمال .

ـ قد يبلغها يا ويزة ما تحدثت به عنها ..

ـ سيبلغها بدون شك ، وأنا أعلم أن قصدكن هو اثارتي ونقل كلامي اليها ..

وأحدث هذا الجواب شيئا من الاضطراب والضوضاء ، فأعادت ذهبية الهدوء عندما سألت ويزة عما سيشتمل عليه جهازها من الثياب ، فراحت ويزة تنسج لهن صورة مدهشة عن ذلك الجهاز ، وتصفه لهن في غير قليل من الاعتداد بنفسها ، بينما كانت رفيقاتها يستمعن اليها ويتغامزن .

1 ـ بارت الفتاة : لم يتقدم احد ليتزوجها ... انظر ص 24 . (المترجم) .

وحينما عادت ويزة الى الدار ، قصت كل ما حدث على أمها . وما كادت هذه تسمع منها ذلك حتى ارتاعت للأمر ، فأعطتها درسا فى الحذر من الناس ، ثم ذهبت فى الحين لتعطي لتلك المرأة التي ستعيش معها بنتها فى نفس الدار ، صابونة معطرة ، وقد حرصت كل الحرص على أن تسترضي تلك المرأة التي وصفتها بنتها بأنها معوجة كالعصا المعقوفة. ، ومن يدري فلعلها ستذيق ابنتها الأمرين .

ان أمها تعتقد أنه آن الاوان للسياسة والملاينة ، فلابد مهما كلف الامر ، من أن تصل الى الغاية المنشودة بدخول بنتها الى بيت آيت سليمان ، وتركيز مكانها بينهم كشجرة التين الصغيرة المغروسة فى أرض قاحلة .

ولم يغب عن بالها أن أفراد هذه العائلة لا يشفقون ولا يرحمون ، فاذا لم تعجبهم احدى النساء فانهم يطلقونها فى الحين ، ولا يخبرونها عن الغلطة التي ارتكبتها . ولذلك كان من الحكمة أن تركز مكان بنتها بينهم حتى لا يقع ما لا تحمد عقباه

الفصل الثامن

قال مقران فى نفسه :

« خطيبتي ليست قبيحة الصورة . أنا متأكد من ذلك . واذا كنت محظوظا ، فسأتمكن اليوم من مشاهدتها عن قرب ، ليطئن قلبي » .

واندس بين أوراق اللبلاب وأخذ مكانه وراء جذع شجرة الدردار الغليظ ، وتخبأ هناك حتى لا يراه أحد . انه على بعد عشر خطوات فقط من العين التي لا تزال باحتها خالية من النساء . ثم استرسل يقول فى نفسه :

« ربما أوقعت نفسي فى ورطة ، اذ لا أستطيع أن أنصرف من هذا المكان حينما تغص باحة العين بالنساء . سأبقى حبيسا فى هذا المكان حتى المساء . يا له من عمل سخيف... كأنني لا أعرف ويزة ولا أستطيع أن أراها فى وضح النهار وفى أي مكان أريد » .

وأقر في نفسه أنه جاء على أمل مشاهدة أشياء أخرى ، وأن تلك الاشياء اذا حدثت أمامه فانه لن يغض بصره ، بل سينظر ملء عينيه .. ثم طرد هذه الفكرة الخبيثة من ذهنه ولعن ابليس واستعد لمغادرة المكان . وما كاد يفعل ذلك حتى أبصرته خلوجة في طريقها الى العين . ورآها وهي تدنو بخطوات ثقيلة وعلى ظهرها جرة وفي يدها جرة أخرى . ونته خلوجة هي التي تسقي بيت شيخ البلدية بالماء ، ومن عادتها أن تذهب الى العين حاملة معها جرتين ، فتترك احداهما هناك لتملأها احدى النساء في غيابها ، وخلال تلك المدة تمضي بالأخرى الى البيت ، وبهذه الطريقة لا تضيع وقتها في الانتظار .

وهكذا وجد مقران نفسه مضطرا لأن يلازم مكانه ، ولم يجد ما يصنعه سوى أن يعد الجرار ، وأن يتفرج على النساء وهن يتلاحقن الى العين ، واستعد للبقاء هناك الى أن يحين الوقت ليتسلل من مكانه بدون أن يراه أحد .

رآهما مقبلتين واحدة بعد الأخرى في اللحظة التي كانت فيها ننه خلوجة خارجة من تحت قبة العين ، وبين يديها جرتها التي فاض منها الماء . وتركز بصره عليهما ، فلم يعد ينتبه لغيرهما من البنات . لقد رأى ويزة وذهبية مقبلتين فشعر بالسرور يغمره .. أليس هذا ما كان يتمناه ؟ أن يقف على مقربة منهما ، مواجهـا لهما تماما ، وبدون أن يعلم به أحد ، وأن يقارن بين تلك الفتاة التي ستصبح زوجته ، وبين تلك الفتاة الأخرى التي يكرهها لأنها سحرت عقله . انها البنت التي لا يرضاها لنفسه زوجة ، وان كان

يشعر نحوها بميل شديد .

وأخذ مقران يردد في نفسه : « خطيبتي جميلة جدا . وكم أنا غبي اذ شككت في ذلك » .

وأبصر ويزة تسبق البنات في ثوبها الناصع البياض ، وقد وضعت على رأسها محرمة صفراء وتمنطقت بفوطة من الحرير الاحمر كأنها الجبة الضيقة ، فأبرزت أعطافها المكتنزة . وكانت تتحدث بأعلى صوتها وتتضاحك وتلتفت بين الحين والآخر الى من يمشي وراءها من البنات .

أما ذهبية ، فقد كانت تسير خلفها وظهرت أطول من ويزة ، ورأى وجهها الذي يشع منه الجد والوقار ، ونظرتها العميقة التي طالما أثرت فيه . ولقد لبست عباءتها العتيقة ذات الزهور الوردية ووضعت على رأسها محرمتها السوداء ، واسترسلت ضفائرها الرقيقة الى خصرها كأنها سلسلة ناعمة .

ومضى مقران يقول في نفسه : « خطيبتي جميلة ، ومحياها ينم عن السعادة . وأنا أيضا أشعر بالسعادة تغمرني .. الحمد لله ، لقد نجوت من تلك الصبية النصرانية التي كادت تضلني عن الصراط المستقيم . وأبي معه حق ، فلابد قبل كل شيء من القيام بالواجب ، ومن يهمل واجبه فليس برجل يعتمد عليه » .

ولكنه أدرك في شيء من الاسى ، أن تلك الفتاة التي لا يرضاها لنفسه زوجة قد انتهى أمره معها الى الابد ، كما لو كان

لا يعرفها وهي لا تعرفه . ومن يدري فلعلها لم تفكر فيه اطلاقا . انها تتجاهله تماما ، ولذلك يكرهها .. وخطر بباله أنها ستكون ذات يوم لغيره ، فأحس بألم شديد كأنه وخزة ابرة ، وكاد يصرخ بقوة . غير أن ذلك الالم ما لبث أن زال.وتمتم بين شفتيه كمن يستيقظ من حلم مزعج :

ــ الله يلعن الشيطان .. مالي ولتلك الفتاة الكافرة الملعونة ؟..

وأخذ فى نفس الوقت ينظر اليها بعيون متعطشة ، غافلا عن خطيئته ويزة التي وقفت حينذاك أمام ذهبية فى الباحة الصغيرة من العين . انه مسحور بقوامها وأعطاف جسمها وخبايا صدرها ، ومفتون بذلك الوجه الوسيم الذي ليس اليه من سبيل . أما ويزة فانه يحس بها قريبة منه . انها فى متناول يده . وما عليه الا أن يناديها حتى تأتي اليه طيعة . واعتراه خزي من رغبته الدنيئة ، وبدا له أن كل ما فكر فيه باطل وسخيف لأنه لا يوجد أي شبه بينه وبين تلك الفتاة . انه اذا نظر اليها بوجهها الكئيب وثيابها الرمادية ، يتمثل فيها الأمل البعيد الذي لا سبيل الى تحقيقه لأنها الفتاة التي يسعى وراءها كل من أصيب بالكبت ، ويبحث عن المستحيل . فتكون عاقبته معها الفساد والالحاد والعار. وأغمض عينيه وأسند رأسه الى جذع الشجرة، وبدون أن يدري ، أخذ يقطع بأظفاره أوراقا غليظة من اللبلاب . وفكر فى نفسه :

« سأبقى هكذا مغمض العينين ، وحينما يصلني صوتهما فى طريق العودة الى القرية سأنصرف بدوري . ابعدي عني يا بنت ، أنا لا أريدك ولا أعرفك ، وانما ابليس اللعين هو الذي أراد آن يضلني عن الصراط المستقيم . وابليس اللعين يتمثل لبني آدم فى مختلف الصور والوجوه » .

ولكنه لم يمنع نفسه من أن يفتح عينيه ، فأبصر ويزة قابعة فى زاوية من زوايا الباحة ، وقد أدارت له ظهرها ، وسمعها تنادي ذهبية فجاءت اليها وناولتها اناء من الماء لأنها قضت حاجتها وأرادت أن تستنجي ، وكانت تتضاحك ، بينما صدت ذهبية وجهها وأخذت تبتسم ابتسامة لطيفة .

وخيل اليه أنه قصدته خصيصا بتلك الابتسامة لأنها وجهت بصرها فى تلك اللحظة الى ناحية النبلاب . ومن يدري فلعلها رأته حيث هو يختبيء ، ولعله هو المقصود بتلك النظرة الناعمة وتلك الابتسامة اللطيفة . أما ويزة فقد ظلت قابعة غير بعيد عنها فى وضعية مخزية ، تضحك وحدها ضحكة سخيفة ما لبثت أن أثارت غيظه . فلطالما أراد أن يرى خطيئته من مكان قريب وها هو ذا يراها على المكشوف .

وحدثته نفسه أن يخرج من مكمنه وأن يسبها بكلام قبيح ، غير انه تمالك وصد وجهه عنها كما فعلت ذهبية . ولم يلبث الا قليلا حتى رآهما تغادران العين ، وبعد لحظات خرج بدوره من مكمنه وسرعان ما اختفى عن الانظار .

وكانت خلوجة حينذاك عائدة من القرية فرأته من أعلى الطريق وعرفته ، وكان يعدو الى جرف الوادي ويهيل فى عدوه الاحجار والتراب ...

وفكرت فى نفسها : « شبان اليوم لاحياء لهم .. ها هو ذا مقران يلاحق خطيبته ويسترق اليها النظر ، ولا يستحيي أن يفعل ذلك هنا بالقرب من العين وفى وضح النهار » .

وهزت رأسها استنكارا لعمله وذهبت فى حال سبيلها لتأخذ جرتها من العين .

حينما عاد مقران الى حقله أنكر على نفسه ما فعل ، فما كان يليق به أن يذهب الى العين وأن يسترق النظر الى الفتاة المسكينة التي لم تكن تدري من أمره شيئا ، فيا لخيبة أمله مما لقي منها ! كما أن البنت النصرانية لقنته درسا فى الأدب لأنها صدت بوجهها ، بينما كان هو يتفرج على ويزة بكل وقاحة .. أليس من العيب عليه ، ومن العار على المسلم أن يأتي الى مكان مخصص للنساء ، وأن ينتهك أسرارهن ويراقب حركاتهن وسكناتهن ويسترق السمع الى أحاديثهن ؟ ..

لابد من أن ينسى تلك الفتاة النصرانية ، لابد من أن ينساها كما لو كانت غير موجودة بالمرة ، فما خلق لها وما خلقت له . وهو يتذكر كلام والده قبل اعلان الخطوبة ، حينما أخبره بما تم فى الموضوع ، وأراد أن يستطلع رأيه :

ـ الواجب يا بني يفرض على كل واحد منا أن يحافظ على قدره وعلى مرتبته . ولولا الواجب لتهدم بيت آيت سليمـــان . الواجب هو الشرف والدين والعائلة . ونحن عائلة كبيرة ومعروفة وكذلك بيت آيت حموش . ونحن أغنياء وعائلة آيت حموش غنية أيضا . ولنا رجال وكذلك ويزة لها ثلاثة اخوة يشتغلون فى فرنسا ، فاذا ذهبت الى تلك البلاد فسيمدون اليك يد المساعدة . كل هذه الأمور يا بني دليل على أننا اخترنا لك الفتاة التي تليق بك ، فلابد اذن من أن تقبل ويزة زوجة لك .

وهكذا وافق مقران ... وافق لأن بابا سعيد ظل يتحدث طوال المساء بعدما اجتمع أفراد العائلة حول قصعة الطعام . ولم يجد مقران أي مجال للمعارضة ، لأن أخاه وزوجة أخيه أيدا والده على طول الخط ، وكذلك العجوز أمه التي كانت قد دبرت كل شيء سلفا ، فاتفقت مع أم ويزة على الصداق ، وأعطتها بعض الوعود الأخرى ، فلابد اذن من أن تسير الأمور على أحسن ما يرام . ما بقي على مقران بعد كل هذا الا أن يكون سعيدا لأنه استوفى جميع الشروط التي يفرضها الواجب والدين والشرف والعائلة . ما بقي عليه الا أن ينهض من مكانه ليقبل رأس بابا سعيد ، اعترافا له بالجميل ، وأن يقبل كذلك رأس أمه وأن يتمنى لهم جميعا ليلة سعيدة قبل أن ينصرف لينام وليرى ويزة فى أحلامه . لقد وقع الاختيار على ويزة فلابد اذن من أن يفكر فيها كزوج مخلص لزوجته وأن يكن لها فى قلبه المحبة ...

واستعاد هدوءه تدريجيا واستأنف عمله بحماس ، وهو يفكر انه سيتزوج قريبا ، بل خلال بضعة أيام ، وستكون له امرأة كغيره من الرجال ، وسيحتل الغرفة الموجودة فى الطابق الاول فوق غرفة أخيه تماما . عما قريب سيزداد به عدد المتزوجين فى القرية أي أنه سيصبح فى عداد العاقلين القادرين على تكوين أسرة وتربية أطفال ... ومن يدري فلعله بعد عام سينجب طفلا ... وأثارت هذه الفكرة اضطرابه تماما ، وحينما سلك طريق العودة فى المساء بعد انتهاء العمل فى الحقول كان يفكر فى ويزة .

وتمالك نفسه الى أن جاء يوم الزفاف وخلال تلك المدة صار يتجنب الملاقاة مع ذهبية ، بل صرفها من ذهنه تماما . وكلما ارتسمت صورتها بباله ، فانه يبعدها عنه كما يبعد الانسان بحركة عصبية ذبابة عنيدة تزعجه ... خلاص اذن ، انتهى امره معها ، ولم تعد ذهبيه فى نظره الا ذبابة ... مع فرق واحد، وهو أن الذبابة يمكن للانسان أن يسحقها فيتخلص منها . أما صورة ذهبية فلا سبيل للامساك بها ، بل تظل دائما ساخرة منه بعيدة عن متناول يده . ثم انه لا يستطيع أن يتجنب اللقاء معها ، اذ لابد من أن يصادفها ذات يوم فى الطريق فيتظاهر بعدم الاكتراث بها ، ويلقي اليها نظرة خاطفة ويظل بعد ذلك على جمر ...

سارت الأمور فى حفلة الزفاف على أحسن ما يرام ، فقد كان من الأعراس المشهودة فى ايغيل نزمان . وكيف لا وقد تمت المصاهرة بين عائلتين تعد كل منهما من أشهر العائلات وأغناها .

وما بقي على الحساد الا أن يموتوا من الغيظ أو يتظاهروا أمام الناس بالفرح رياء ونفاقا . وكانت الدعوة عامة ، وتناول الفقراء والمساكين الطعام ووزع منه على من تعذر عليه الحضور من الأرامل . وأقيمت كذلك حفلة غداء فاخرة لأكابر القرية وشيوخها ، ولم ينس الناطور أن يمر بهم على الزقاق الكبير حتى يراهم جميع الناس . وتواصلت حفلة النساء طوال الليل وسمح لهن بالغناء والرقص. أما الرجال، فقد قضوا السهرة في المقهى، وانفرد الشبان منهم بمقران لحمله على الشرب والسكر . وبالفعل فان مقران الذي لم يذق ولا قطرة واحدة من الخمر طوال حياته ، سكر سكرة شنيعة كان لها أحسن الأثر في نفس أمه لأنها كانت تعتقد أنه لا يقوى على مثل ذلك الصنيع .

وفي مساء اليوم الموالي دخل على زوجته حسبما جرت به التقاليد ، دخل عليها حينما أسدل الليل ستاره وخيم الظلام على القرية وساد الصمت في أزقتها ، وآخذ الناس يأوون الى فراشهم ، بينما كان البعض منهم نائمين . غير أن ستة من أصدقائه أبوا الا أن يظلوا معه حتى اللحظة الأخيرة . وما كاد الظلام يهبط حتى بدأوا يشجعونه على الدخول لأنه كان حائرا في أمره فقالوا له :

ـ اسمع جيدا هذه النصيحة : لا تتردد بالمرة،وعليك بالهجوم في الحين ، والا فأنت من الخاسرين . عليك اذن بالهجوم ، ثم أطلق البارود حتى نعرف بأنك قضيت الأمر . ولا تبق معها طول الليل . اخرج في الحين لنعود سوية الى المقهى حيث سنقضي السهرة الى الصباح . وعليها أن تدبر الأمور وحدها .

فأجابهم مقران :

ـ أما بالنسبة للبارود ، فأنا موافق ، وأما بالنسبة للخروج ، فلا ... لذلك لا تنتظروني .

قال لهم ذلك لأنه لم يكن متأكدا من مقدرته على «قضاء الأمر» في الحين ، فأراد أن يتخلص منهم ..

ـ طيب ، لكن ما أردت . ولكن عجل وائتنا بالاسفنج[1] والبيض .

ان تقديم الاسفنج والبيض للرفاق العزاب من أهم الواجبات على المتزوج . وإذا لم يفعل فهؤلاء بامكانهم أن يمطروا سقف داره بالأحجار ، كما تقضي بذلك عادة متوارثة من القديم . وقد يوجهون اليه بعض العبارات الساخرة من وراء الباب ليمنعوه من القيام بما ينتظر من العريس في تلك الحالة ، فيجعلون منه أضحوكة بين الناس .

ـ معكم حق بالنسبة للاسفنج . ولكن أطلب منكم بالمقابل أن تكونوا يقظين حتى لا يزعجني أحد بالرجم . وأنا أقصد بعض الجبناء من أعدائنا ، فأنا لا أثق بهم ...

ـ لا عليك ... سنكون لهم بالمرصاد . ولكن لا تضيع وقتك هباء . لن يفكر أحد في ازعاجك شريطة أن نسمع الطلقة النارية .

وأضاف أحد رفاقه ، وهو أكثرهم مكرا ..

ـ لي اليك نصيحة أخيرة : اياك أن تخاف منها ، بل على العكس هي التي يجب أن تخاف منك . مفهوم ؟ .. كن عابس

(1) أكلة من العجين والخميرة تطبخ في الزيت فتنتفخ كالاسفنجة ، وتسمى أيضا : الخفاف (المترجم) .

الوجه ، خشن اليد . انظر ، انظر الي .. أرأيت ؟ .. تكلم بالجهر ولا تستعطفها . فليس الموقف موقف استعطاف ، والا فأنت من الخاسرين ..

حينما دخل عليها ، ألقى نظرة حائرة الى البندقية المعلقة بالقرب من الباب ، ثم صرخ بصوت مرتفع غضوب :

ــ يا الله أنت .. ناوليني القفة .

غير ان مقران لم ينظر اليها ، وظل يحدق الى الارض . انه لا يدري كيف وأين وجدها ، وماذا كانت تصنع حينما دخل . لم يستطع أن يرى شيئا ، فقد بهره ضوء الفنار كالخفاش الذي يعسيه الضياء ، وخيل اليه ان ضبابا كثيفا قد غطى كل شيء من حوله . وناولته القفة المليئة بالحلويات وأمسك بها مرتعشا وانسل من الغرفة قائلا لها بصوت ينقصه الحزم :

ــ يا الله ، هيئى لنا الشاي .

وسمع صوتها لأول مرة منذ أن دخل الى الغرفة ، سمعها تقول موافقة بصوت هاديء تماما :

أنا أعرف انه يلزم اعداد الشاي ، وها هو ذا جاهز .

فقال فى نفسه وهو يحث الخطى نحو رفاقه : « الأمور لا تبشر بالخير ، ولابد من الحزم . أنا غبي ، غبي جدا ... »

ولم يقض مع رفاقه الا وقتا قصيرا ، لأنه صمم أن يجابه في الحين تلك التجربة الصعبة ، ووجد ويزة جالسة على فراش وثير كانت قد أعدته لنفسها ، وجدها متطلعة بكل هدوء الى البطاقات البريدية التي ألصقها على الجدران قبيل الزواج ببضعة أيام ليزين بها الغرفة ، وما كان منها حين رأتها الا أن انتزعتها من مكانها لتتفحصها عن قرب . وتمثل تلك البطاقات فتيات جميلات من ذوات الخدود الحمراء والشعر المذهب والابتسامة المشرقة . فقالت له وهي تركز عينيها في عينيه :

ـ تعرف ولاشك هؤلاء البنات ...

ـ بالطبع ، باريسيات ...

كان واقفا أمامها ، فشعر بانزعاج من نظرتها الهادئة ، وتطلع اليها فرآها كالباريسيات قد وضعت مثلهن المساحيق ويداها وقدماها مصبوغة بالحناء ، وجيدها مزين بقلادتين ، وجلست على فراشها فبدا رأسها غائرا في ثيابها الفضفاضة الجديدة وكأنها متضايقة من لباسها .

أما مقران فهو متضايق أيضا ، ولكن لا من ثيابه ، بل من كونه لا يدري ماذا يفعل ... هل يجلس أو يقترب منها ؟.. كان ينتظر في حيرة وتردد لعلها تقطع الصمت ، غير أن ويزة لم تنبس ببنت شفة ، وأخيرا قال في همس :

ـ أنا متضايق من هذه البندقية ، والجماعة ينتظرون .

ـ وماذا ينتظرون ؟ ..

ـ آن أطلق البارود

ـ وما يمنعك من ذلك ؟ أطلق البارود .

وبدت له الفكرة رائعة ، بلى .. ما عليه الا أن يطلق البارود مسبقا فيبعد الشبان ويشعرهم ان الأمر كله انتهى . وعندما تسمع أمه الطلقة ستحدث نفسها فى فرح وسرور : « خلاص ... ولدي أصبح رجلا » وبعد ذلك سيكون لديه طوال الليل متسع من الوقت . وأخـذ البندقية فأغلقت ويزة أذنيها ، وبعد أن دوت الطلقة ، قال :

ـ استرحنا منهم الآن .

فأيدته ويزة فى قوله ، وهي لا تزال تقلب بين يديها البطاقات البريديـة :

ـ نعم ، استرحنا منهـم .

ثم ساد الصمت بينهما من جديد ، وفكر فى نفسه بأن هذه الطلقة التي طمأنت أهله على رجولته صارت تفرض عليه أن لا يتراجع . وأخذت هذه الفكرة التي تسللت تدريجيا الى ذهنـه تبعث فى نفسه الاضطراب ، وظل يردد بينه وبين نفسه : « لابد .. لابد .. ومن حسن الحظ ان الليل طويل ، وعندي وقت واسع .. »

وأراد أن يجلس بالقرب منها ، غير انها ابتعدت عنه في أدب ، مبتسمة في استحياء ، فصرخ مغتاظا :

ــ أنسيت انني أطلقت البارود ؟ ..

ــ ما كان ينبغي أن تفعل .

ــ وهل من حيلة أخرى للتخلص ممن كانوا يسترقون السمع ؟ ..

ــ حسنا فعلت اذن .

ــ لا تسخري مني يا بنت أحمد ، ولتعلمي انني رجل صعب ... هيا ، صبي لنا الشاي .

ولم تجبه ويزة ، وانما صبت له كأسا من الشاي . وأراد مرة أخرى أن يقترب منها ، وحاول أن يمسكها من ذراعها ، فحطت أمامه البراد (1) ثم استوت جالسة على فراشها وأدارت له ظهرها. فقال في نفسه :

« المسألة واضحة ، فهي لا تريد أن تستسلم . ان هذه الغبية تريد أن تجعلني أضحوكة بين الناس . واذا تمادت في الرفض فلن أصل معها الى نتيجة . ولكن ألست رجلا كسائر الرجال ؟ »

وشرب كأس الشاي وحده عابس الوجه حتى يشعرها بأنه مصمم أن يضع لهذا الأمر حدا ، غير انه كان منزعجا من الطلقة

1 ــ البراد : ابريق الشاي . (المترجم) .

النارية ، ومن الموقف المعاكس الذي اتخذته ويزة ، اذ لا يبدو عليها انها خائفة منه اطلاقا ، فهي تمانع وتتظاهر بأنها لم تفهم قصده ، وبكلمة مختصرة رفضت أن ... تساعده .

وقال فى نفسه : « الحل الوحيد هو أن أرتمي عليها بدون مماطلة وأغلق فمها حتى لا تصرخ وينتهي الأمر فى لحظة ... »

الا أن المشكلة هي انه يشعر بقواه قد خارت وبرغبته قد زالت . ورأى أن يتظاهر أمامها بالرزانة والوقار ، كما لو كان أمام جماعة من الشيوخ أو أصبح هو نفسه أحد أولئك الشيوخ الموقرين ، وشعرت ويزة بشيء من الهيبة والدهشة لموقفه ذاك منها ، ولعلها كانت تتوقع أن يكون جريئا معها ، أو يقوم بعمل من تلك الأعمال الخشنة التي تخاف منها كل عروسة وتحبها فى نفس الوقت . ولما رأت منه ذلك الموقف تمددت على المطرح (1) وغطت نفسها باللحاف وقررت أن تتركه يدبر الأمر وحده كما يشاء ، ورفضت أن تقدم له أية مساعدة .. ومن يدري ... فلعلها بدأت فى سرها تحتقره على ضعفه .

وآل به الأمر الى يأس ، ثم الى حيرة فتناول من أحد الرفوف زجاجة من الأنيسات(2) وصب منها كأسا كبيرا فشربه صرفا من الماء ، ثم أطفأ الفنار ، وقال فى نفسه وقد عزم على أمر : « سنرى الآن اذا كنت رجلا أم لا . »

---

1 ـ المطرح : المفرش . (المترجم) .

(2) الأنيسات : شراب مسكّر (مغيّب) يستخرج من نبات الأنيسون (المترجم)

وتحسس مكانه فى الظلام ، وتمدد بالقرب منها وقرر آن لا يتحرك من مكانه الى آن يحين الوقت المناسب ، واذا حان فلن يستأذنها فى الموضوع ، وما عليه الآن الا آن يستعد .

وأخذ يردد فى نفسه : « لابد ... لابد ... لابد ... » وأحس برأسه يدور ... وابتسم ابتسامة ساخرة لغباوته : « انه عمل سهل جدا لو لم أكن غبيا ، وكل واحد من رفاقي يتمنى أن يكون محلي . مـــا ألعنهم ! أستطيع أن أفتخر بعد اليوم ان لي زوجة .. زوجة رائعة كالدمية . لقد وقعت على تحفة رائعة » .

وأحس برأسه ثقيلا وسرت النشوة فى بدنه ولم يعد يكترث لشيء مما حوله ، ودب النوم الى جفنيه ، ونسي بعض الوقت مخاوفه . انه لم يذق طعم النوم لمدة يومين .

واستيقظ مرتاعا وقد أحس بفزع شديد يخنق أنفاسه ، وحملق بعينيه فى الظلام الدامس لعله يرى شيئا . وتدفقت الدماء الى وجهه ، وشعر بقوة عمياء تريد أن تنطلق من عقالها وارتمى عليها بدون شفقة ولا هوادة ، وقبل آن تستفيق ويزة من نومها كـــان الأمر مقضيا .. لم تبدر منها الا صرخة واحدة ، ولكنها لم تستطع أن تتخلص من قبضته . وقام منتصرا ليخرج من الغرفة ، وقال لها باستعلاء :

ــ ابكي الآن بالدموع يا بنت أحمد ، ولتعرفي بعد اليوم

أنني رجل .

وأغلق الباب من ورائه بعنف .

وفى تلك اللحظة تماما أخذ الديك يصيح . فادرك أن الصباح لم يعد بعيدا ، ومعنى ذلك أنه لم يقض الأمر الا فى آخر لحظة ، ولو تخلف قليلا لصار أضحوكة بين الناس . وابتعد عن الدار بمنتهى السرعة ، وتنفس هواء الفجر فزال عنه أثر النعاس . ووجد نفسه يضحك من الفرح عندما هبط الى الكوخ بالقرب من العين حيث سينام قليلا . ويبقى فيه وحده الى أن يحين المساء .

ولم ينم فوق الكلأ اليابس الا ساعات قلائل ، ثم استيقظ ليفكر من جديد فى العمل البطولي الذي قام به وشعر بنفســه تتفتح للحياة ، وتصور أمه وزوجة أخيه وحماته وبعض النساء الأخريات قد أقبلن على العروس لمعاينة ما وقع . ولما رأين ذلك تأكد لديهن أن الأمل لم يخب وكل شيء قد تم على أحسن ما يرام ، والعرس قد انتهى ، وأن القرية أصبح بعد اليوم فى عداد أفرادها رجل آخر وامرأة أخرى ... ومن يدري فلعله سيصبح عما قريب من أفرادها صبي ، ومن بعده صبيان ...

واستفاق مقران من أحلامه . وقال فى نفسه : « كفاني . كفاني من هذا » .

وفجأة خطرت بباله صورة ذهبية . وفى الحقيقة لم ينس تلك النصرانية أبدا ، بل حتى عندما كان ليلة البارحة مع ويزة ، لم

يستطع أن يبعد خيالها عن ذهنه . لقد تمثل ابتسامتها الرائعة ،
وقال فى نفسه ، بأنها لو كانت هي التي قاسمها فراش النوم لكان
معها أفصح لسانا . وأخذ يشعر نحوها بشيء من الشفقة والرحمة
وعاهد نفسه أنه ، اذا ما التقى بها فسيجود عليها بنظرة عطف
ومودة ، وبذلك سيبرهن لها عن كونه لايزال مخلصا لهـــا ...
بالنظرات على الأقل ... وهذا لا يتنافى أبدا مع واجباته الزوجية
نحو ويزة .

وشاءت المصادفة أن يلتقي بها عندما عاد الى القرية ، وكانت
هي فى طريقها الى العين برفقة أمها وخلوجة . وارتبك فى أمره
لا يدري ما يفعل لأن أخوف ما يخافه هو أن يقابل ننه مالحة وجها
لوجه فى الطريق ، وفكر فى نفسه :

« الله ينجينا من شر هذه المرأة . لا أظن أنني سأسلم من سبها
وشتمها . ولكن ... لا علي منها .. »

وخطا خطوات الى الامام وأدار ظهره ليفسح مجال المرور
لخلوجة وننه مالحة . أما ذهبية التي رأته مقبلا ، فقد تخلفت
قليلا . وعندما أراد أن يواصل سيره وجدها أمامه تماما على بعد
خطوة فتسارعت دقات قلبه وأراد أن يبتسم لها فما كان منها الا
أن قذفته فى وجهه بالعبارة الفرنسية :

ــ يا زبل .

وتلقى منها تلك السبة كأنها بصقة ، فمسح خده بطريقة آلية ،
وقال فى نفسه : « يالها من بنت حقيرة . انها تكاد تموت من الغيرة»

ومعنى ذلك أنها لاتزال متعلقة بي . وأنا في الواقع ما أردت الا أن أضحك منها وأمتع نفسي بها » .

وأحس مقران أنه فقد الشهية ؛ وأن الجوع الذي كان يشعر به قد زال فاستأنف سيره الى الدار بخطوات وئيدة .



الفصـــل التاسع

قالت مالحة لابنتها قبل أن تستغرق فى النوم :

ـ الرجال كلهم لا فرق بينهم يا بنيتي .

لقد مات عامر، ولكن ما أكثر الرجال ! وفى الحقيقة انها لم تتكل أبدا لا عليه ولا على أمه مدام . ومع ذلك فهي التي تكلفت بمراسيم دفنه ، ولم يساعدها أحد ، حتى أنهكها التعب ولم تعد تستطيع أن تسهر مع ذهبية ، ولا أن تسليها وتؤاسيها ؛ لأن ذلك علــى العكس لا يزيدها الا ألما وحزنا ، ولذلك لزمت السكوت وقررت أن لا تتحرك من مكانها فى الفراش ، الى أن يغلبها النوم ... وما لبث النعاس أن سرى اليها وخيم عليها كأنه حمولة ثقيلة من الحطب، غير أنها قبل أن يدب اليها النعاس استعادت الى ذهنها صورة شيخ البلدية وتخيلته وقد ارتسم الوقار على وجهه ، وتركزت عيناه على عينيها فى عناد ليؤكد لها مرة أخرى رغبته أو يجدد لها طلبه . وتذكرت ما دار بينهما من حديث :

ـ أتعبت نفسك كثيرا من أجل هذا المسكين ، فلم تستريحي منذ الصباح . بارك الله فيك .

ـ ما قمت الا بالواجب . وأنا أعتبر نفسي منذ أن توفيت والدته مدام ، كأمه .

ـ نعم أنا عارف .. مسكينة بنتك ، ستتألم كثيرا لوفاته .

ـ أي والله ، ستمر بعذاب أليم . ولا أعتقد أنها ستسلو أبدا .

ـ الحياة طويلة يا مالحة ..

ـ ... وقاسية على الفقراء والمساكين .

ـ من الواجب عليك يا مالحة أن تخففي عنها الألم وتعيديها الى الصواب . أنت ولا شك جربت الحياة وتعرفين ...

لم يصعب عليها أن تفهم الى ماذا كان يرمي ، ولا حاجة للالحاح لأن المسألة واضحة .

وتذكرت ذلك ، ثم قالت فى نفسها قبل أن تستسلم للنوم : « سنرى فيما بعد ، فالحياة بالفعل طويلة .. »

وكان شيخ البلدية خلال تلك المدة قد أظهر اهتمامه بأمرها ، فأخذ يسعى لكي يشغلها عنده ، وكلفها بقطف جزء من غلة الزيتون .

عندما سمعت ذهبية كلام أمها فكرت فى نفسها : « لا ، والله . هذا غير صحيح ، اذ لا يستوي الرجال ، بل حتى النساء قد تجد بين الواحدة منهن والأخرى فرقا كبيرا . وهل عرفت أمي فى حياتها

كلها .. هل عرفت الحب الحقيقي الذي عرفتــه أنا ؟ .. فلماذا تتدخل اذن في ما لا يعنيها ؟ »

غير أن الشك ما لبث أن خامرها ، فتساءلت : هل كان حبها بالفعل عظيما ؟ واذا كان عظيما ، فلماذا وقعت لها تلك المصيبة ؟ ان عامرا لم يتحدث في يومياته الا عن التفاهم بينهما ، ولم يشر الى أي نوع من الجفاء ، ولكن سوء التفاهم بينهما وقع في البداية .. في بداية التعارف تماما .. أتراها اذن مسؤولة عن هذه المصيبة ؟ وهل هي وحدها المذنبة ؟ وخيل اليها أن مقران وويزة وعامرا قد تحولوا الى أشباح واختفوا من حولها في الظلام ليعذبوها . انها تراهم يقبلون عليها واحدا بعد الآخر ، ثم ينصرفون ويعودون سوية ويختلط البعض منهم بالبعض الآخر ، ويحاول كل واحد أن يبرر موقفه ، ويتكلمون في نفس اللحظة كلاما لا يكاد يبين ، ثم يهزون رؤوسهم ويقهقهون قهقهة رهيبة . واستوت ذهبية جالسة وفركت عينيها لعلها تبعد الأشباح .. انها صممت أن تظل طوال الليل صاحية حتى تشرح كل شيء لعامر الذي تخيلته قد جلس غير بعيد منها بالقرب من الصندوق ، يستمع بكل انتباه الـى شرحها . وهي لا تشعر بأي خوف منه . بل تتمنى أن تلحق به ...

وصل عامر من فرنسا عندما أينعت ثمار التين . وبعد بضعة أسابيع فقط من زواج ويزة . وكانت تنتظر قدومه بفارغ الصبر ، وكانت سائر البنات في القرية ينتظرن قدومه لأنه وسيم الوجه ولأنه يتعرض لهن في الطريق . غير أنها اعتبرته كأنه عامرها هي ،

ولا يشاركها فيه أحد ، لعدة أسباب معقولة : لأنها جميلة ، ولأنها بلغت سن الزواج ، ولأنها نصرانية . وبما أن أمه فرنسية ، فهي ولا شك أقرب البنات من عامر .

وبالاضافة الى كل هذا ، أليست ذهبية بنت عمه ؟ اذن ما على البنات الأخريات الا أن يختفين من الميدان ، وأن يعترفن لها بحقها ويفسحن لها المجال .

كانت هذه الأفكار تشغل بالها قبل وصوله من فرنسا ، وكانت أمها تشجعها بطريقة غير مباشرة وتتعلق هي أيضا بنفس الأمل .

التقت به لأول مرة منذ وصوله حينما كانت عائدة بصحبة رفيقاتها من العين ، وكان ذلك بمقبرة تازروت ، وهو مكان طلق الهواء ممتع للغاية ، وكثيرا ما يتردد عليه الشبان ليتجاذبوا فيه أطراف الحديث ، فيستاء لذلك الشيوخ بسبب قربه من العين . وأبصره سرب الفتيات جالسا على أحجار أحد القبور بجانب الطريق ، ولم يكن وحده ، غير أنهن لم ينتبهن لأحد سواه ، فحدجنه بنظراتهن المتعطشة .

بدأت المسألة كلها فى ذلك اليوم عندما قرصتها ويزة من ساعدها بعد أن مرت على عامر وهمست فى أذنها :

ـ أرأيت يا أختي انني لم أبالغ حينما قلت لك بأنه كالنجم المتألق بالجمال ؟

وظهر الاضطراب على ويزة ، مما أثار مخاوف ذهبية التي فكرت في نفسها بأن رفيقتها ربما ستنافسها في حبه . وبينما هي على تلك الحال من الوجوم ، أضافت ويزة :

ـ الله لا يرحم أهلي .. لو أنهم صبروا قليلا وما زوجوني ...

وفكرت ذهبية في نفسها : « أخاف أن تسحره بابتسامتها ، وسحرها فتان . وهي تعرف كيف تستولي على القلوب ، فاذا صادف عامر منها ذلك فلا شك أنه سيميل اليها » .

كانت بالفعل خائفة من ويزة لأنها الفتاة ذات الجمال والجرأة والحسب والنسب . ولئن كانت ويزة مخطوبة ، فان هذا لا يغير من الأمر شيئا لأن ذهبية أدركت منذ اللحظة الاولى أن رفيقتها ستجرب سحرها مع عامر ، ولن يثنيها الخوف من الفضيحة عن ذلك . ومنذ تلك اللحظة أخذت تشعر بالغيرة . وتحولت تلك الغيرة الى عذاب لا يكاد يطاق . وما حيلتها أمام ذلك السحر الفتان ؟ وهل كان عامر يدري بأنها تقاسي من أجله أشد أنواع العذاب ؟

وقدرت منذ البداية انها ستخسر المعركة مع ويزة ، غير أنها كانت تهدىء من روعها أحيانا فتفترض أن التعارف بين ويزة وعامر قديم ، وانه ربما كان يحبها قبل ذهابه الى فرنسا ، فليس من المستغرب اذن أن يتجدد الحب بينهما وأن يشتد .

ومما يؤكد ذلك ان ويزة كانت منذ أربع سنوات مكتملة الأنوثة ، وان عامرا كان أيضا مكتمل الرجولة . أما ذهبية فلم تكن حينذاك تعرفه بالمرة ، لأنها كانت تقيم مع أمها فيقرية أخرى . وكانت ويزة تتردد متى شاءت على دار أمه مدام لوجود قرابة بينهما ، لأن كمومة أصلها من عائلة آيت حموش ، فهي عمة ويزة .

انها تتذكر ان الناس لم يكونوا يستغربون أن يشاهدوا ويزة تعرج فى طريقها على منزل مدام لأن سي أحمد وأم عامر حصل بينهما تفاهم على أمر الزواج ، وأصبح جميع الناس يعرفــون ذلك ، كما أنها تتذكر ان ويزة كثيرا ما كانت تتوقف قليلا فى طريقها لكي تسلم عليها فتستقبلها ذهبية بكل فرح وسرور ، ومنذ ذلك الحين حصلت بينهما مودة عظيمة .

واذا كان الأمر كذلك فليس من حقها أبدا أن تتحامل عــلى صديقتها ، لأن الذنب هو ذنب عامر . لقد اتخذ معها بعد وصوله من فرنسا موقفا أثار غيظها ، لأنه اعتبرها كالبنت الصغيرة فتارة يشدها من أذنها وتارة أخرى يقرصها من خدها ، وطورا آخر يؤدبها . وطريقته في التحدث معها لا تروقها ، لأنه يخاطبها بصوت غليظ قاس كما لو قصد من ذلك أن يمنعها من مناقشة آرائه او نصائحه ، فيقول لها : « يا الله يا ذهبية ، عجلي ... افعلي هذا ... مالك لا تسرعين ... » طبعا فهي تشعر أنه يحمل لها تحت هذه العبارات كثيرا من العطف ، غير انها متمردة على اعتباره لها صبية صغيرة ، بينما هي أطول من ويزة . وقالت فى نفسها متأسفة :

« المشكلة ان ويزة أصبحت امرأة كاملة الأنوثة ، وأن عامراً مسحور بهذه المرأة » .

وأخذت ذهبية تتجسس عليهما ، ولم يعد يخفى عليها شيء من أمر المواعيد المستورة والاشارات الخفيه بينهما ، وصارت تلاحقهما أينما ذهبا ، وان كانا لا يدريان . الا أن هذه الملاحقة التي أصبحت شغلها الشاغل ما لبثت أن تحولت الى عذاب ، لأنها لا تجد من تصارحه بمكنون قلبها . انها خبأت سر عذابها عن كل انسان ، بل حتى عن أمها ، كأنه من الأمراض التي يخجل المرء من التصريح بها .. على أنها تحب المرض الذي أصيبت به وتجد لذة عندما تحس بالدموع تنسكب من مآقيها .

لاحظت ذهبية منذ الأيام الاولى ، ان ويزة أخذت تعنى بزينتها ، وكلما رأتها قد غيرت ثوبها أو وضعت الكحل فى عينيها أو حمرت شفتيها ، تقول فى نفسها : « انها تتزين من أجل عامر لا من أجل مقران... مقران ليس له أي اعتبار عندها ، بل لم تقم له أبدا أي اعتبار » ولا يسعها حينذاك الا أن تشعر بشيء من الشفقة على مقران وتتمنى أن تقابله فى الطريق حتى تنظر اليه بمودة وعطف . وسنحت أمامها عدة فرص ، غير أن مقران كان يتجنبها بترفع لا يخلو من الاهانة ، فأعرضت عنه .

ولم تصارحها ويزة بشيء من أسرارها . بل هي لم تعبر لأحد عن خيبة أملها فى زواجها . غير أن جميع صديقاتها يعرفن أن زوجها وأقاربه وبيت آيت سليمان قد خيبوا ظنها . ولعلها متألمة

من ذلك في قلبها ، غير انها لم تبح لأحد بألمها .. لقد كانت صابرة لأن أمها نصحتها بالصبر ، ولأن والدها يرى بأنها لن تجد بيتا أفضل من بيت آيت سليمان .. هذه الامور كلها أصبحت موضوع الاحاديث بين النساء في العين . وهنالك ما يدل على صحة الاقاويل التي تشاع عنها ، خاصة أن سلوك ويزة لا يخلو من شيء من الطيش ، فهي لا تخاف من أحد في بيت زوجها ، ولا تحب منهم أحدا . أما أمها ، فقد كانت تتظاهر بتأييد ابنتها في سلوكها ذلك ، بل تعتبر هذا الطيش منها أمر طبيعيا ، لأنها أجمل من مقران بكثير ، فلها الحق في أن تكون بين أهل زوجها محبوبة ومدللة .. على انها كانت اذا خلت بابنتها تؤنبهـا تأنيبا شديدا ، وتحذرها من الاستهتار الذي قد يؤدي الى الطلاق .

ولاحظت ذهبية وغيرها من البنات أن ويزة لم تكن منذ أن تزوجت تعنى بزينتها . وذات يوم سألتها عما اذا كانت تحب مقران ، فردت عليها ويزة :

ـــ ما أغربه من سؤال ! طبعا أنا أحبه ...

وكاد يؤدي ذلك الى القطيعة بينهما . ثم نسيت كل منهما الحادث .. غير أن التغير أصبح واضحا منذ أن رجع عامر ، اذ أخذت ويزة تعنى بهيئتها مما جعل ذهبية تراقبها خفية عنها . ولم يمنعها ذلك من مرافقتها الى العين ، وكثيرا ما عرجت عليها ويزة في الدار حتى ان ذهبية فكرت بأن قصدها هو الامل في ملاقاة عامر . وأظهرت لها من المودة أكثر من السابق وخيل اليها أن

عامرا صار يعجبه أن يلتقي بهما معا . غير أن كل واحدة منهما التزمت بأن لا تتحدث عنه ولو بالاشارة ، فتتظاهر بعدم الاكتراث.

أما ذهبية فكلما وقعت عينها على النظرات التي يتبادلانها ، فانها تتألم أشد الالم .. كانت في بعض الاحيان تفاجيء أحدهما وهو يوجه الى الآخر اشارة ، فيرد عليها الآخر بطريقة لا تدع مجالا للشك . وكانت تارة أخرى تباغت ابتسامة خاطفة لا تكاد ترف فوق شفتيهما حتى تختفي ، فينشرح صدر ويزة وينطلق لسانها ، بينما تعبس ذهبية ويتقطب جبينها .

واذا مضت أيام بدون أن يلتقيا ، فان قلقها يزداد لكونها تتصور بأن ويزة وعامرا ينعمان بالسعادة بعد أن استراحا منها ، ولعلهما يسخران من تلك « الصبية الحمقاء » التي أبت الا أن تعترض طريقهما وأن تمنعهما من تبادل الحب والمودة . وبالفعل فان تصرفاتها لا تخلو من شيء من الحمق ، لأنها في بعض الاحيان كانت تستبعد أن تكون قد نشأت بين ويزة وعامر أية علاقة مهما كان نوعها ، وحينئذ كان الامل يساودها ، فتقول في نفسها بأن عامرا رجل لا يمكن أن ينحط الى تلك الدرجة الدنيئة ، وان ويزة من أحسن صديقاتها ، واذا كانت غير سعيدة في زواجها ، فهي على كل حال وفية لزوجها ومخلصة له . ما من شك اذن أنها وفية له رغم ما يبدو من طيش في سلوكها . وكلما فكرت ذهبية في هذه الامور ، تقول في نفسها : « وما يمنعني أنا أيضا من أن أكون جريئة وأكثر تصريحا بما أكنه لعامر من عاطفة ؟ » ولكنها

لا تكاد تلتقي بويزة وتقف معها أمام عامر حتى تشعر من جديد بالخذلان فتنهزم هزيمة نكراء .

وذات يوم بينما كانتا واقفتين معا في باحة العين الصغيرة ، اقتربت ويزة التي كانت شبه حالمة ، وطوقت خصر ذهبية برفق ، وقالت لها بصوت عميق وهي لا تزال شاردة الذهن :

ـ يا أختي ، أنا عارفة أنه سيختارك زوجة له .. أما أنا ، فقد فات الاوان .. ولكن صدقيني اذا قلت لك بأنه قد أحاط خصري بذراعه هكذا ..

فأجابتها ذهبية وهي تدفعها بعنف :

ـ لا يهمني أن أعرف ذلك ، اتركيني .

وفي طريق العودة إلى الدار ساد الصمت بينهما ، ومنذ ذلك اليوم لم تترافقا الى العين أبدا .

في نفس الأسبوع ، أعيدت ويزة الى دار أهلها . وقد أشار عامر الى ذلك في يومياته . ورغم أن بيت آيت سليمان لم يذيعوا أي خبر عن هذا الحادث ، لأنهم من أحرص النـاس على كتمـان أسرارهم ، فقد شاع في القرية أن مقران رجل غيور ، ويعامل زوجته بالعنف والشدة ، لا لشيء سوى لأنها جميلة ، ولأنها لا تحبه ، فكان من الطبيعي أن يطلقها .. وذهب البعض الى أن عامرا ربما سيتزوج بها شريطة أن يسرحها مقران ويأذن لها كما تقضي بذلك التقاليد .

وأنكر عميروش وأمه هذا الخبر أيما انكار .. أما ذهبية ، فقد تيقنت فى قرارة نفسها أن مقران وجدهما فى حالة مشبوهة . وهذا اليقين زادها يأسا وقنوطا : بل حطمها تماما .. ثم خفت حدة غضبها ، لأنها لم تعد تحس بشيء : لقد كانت منهارة ..

* * *

أخذت ذهبية تنتظر دورها ، فراحت تعد الجرار الفارغة التي وضعت فى باحة العين ، وقد بلغت اثنتي عشرة جرة أو نحو ذلك ، وقالت فى نفسها : « لن يأتي دوري الا بعد مدة طويلة . سأعود الى الدار ، على أن أرجع الى العين بعد ساعة » ، وقررت ذلك لأنها لم تكن ميالة للضحك والمزاح مع البنات الموجودات هناك ، وهن من البنات الطائشات المدللات .. وضعت جرتها فى زاوية من الزوايا ، ودستها بين الاعشاب الشائكة ، ثم انصرفت فى حال سبيلها . وبينما هي متجهة الى الطريق ، اذا بها ترى مقران واقفا وراء شجرة الدردار الكبيرة ، وقد صوب بصره نحوها . وأحست بقلبها يخفق ، واحمر وجهها ، فقالت فى نفسها : « يا لها من مصادفة ... مسكين والله ... سأبتسم له اليوم ، لأنه يبعث على الشفقة » .

وتقدمت الى الامام فرأته قد أقبل للقائها .. انها تستطيع الآن أن تتخيل المشهد مرة ثانية ، فهي لاتزال تذكر جميع التفاصيل .. وصلا فى نفس الوقت الى السياج ، ورفع كل منهما بصره فى نفس اللحظة . وبقيا مدة من الزمن وجها لوجه وكل واحد منهما

مسحور بالآخر . ومنذ تلك اللحظة لم تعد تذكر ما حدث بالضبط .. انها لا تدري هل أمسك بها من يدها ليسحبها معه الى الكوخ ، أم انها سارت خلفه من غير مقاومة ؟.. كما أنها لا تدري هل بقيا وجها لوجه ، وقد انعقد لسانهما ، أم تبادلا بعض العبارات ؟..

وكل ما تذكره انها شعرت بالرغبة في عضه كما كانت دائما تتمنى أن تفعل ، ولكنها عوضا عن ذلك وضعت يديها على كتفيه وأسندت رأسها الى صدره .

وسمعته في شبه غيبوبة يحدثها بسرعة وغضب ، بينما رأت من خلال أهدابها الطويلة التي لا تقوى على رفعها ، رأت ابتسامته الماكرة ووجهه الاسود الذي يتصبب منه العرق . وسمعته يقول وهو يهزها هزا عنيفا :

ـ تذكري كل ما سأقوله لك يا ذهبية . لقد تجسست على ذلك الرجل اللعين وتيقنت انه فضحني وامتهن شرفي .. والآن ينوي أن يتزوج بك ، أنت التي أحبها . خلاص .. استحوذ على كل شيء وأراد أن ينتزع مني قلبي وأحشائي وأن يجردني من كل شيء . هل سمعت يا ذهبية ؟ من كل شيء .. وستكونين له .. له الى الابد .. له وحده ، وأنا سأبقى صفر اليدين .. اسمعيني جيدا ، وبلغيه انني سويت القضية القائمة بيني وبينه حول الشرف : فقد أخذت ثأري . أما ويزة فاني أسامحها على ما فعلت . وعلى كل حال فلن تراه بعد اليوم أبدا .

ثم صار يقهقه :

ـ أما البقية .. يجب أن تبلغيه البقية ... وان كنت لا أعتقد انك ستفعلين .. قولي له من أنا اذا كان لا يعرفني .. أنا مقران ، مقران آيت سليمان ..

وانصرف في حال سبيله من دون أن يلتفت الى الوراء . وأخذت دموع غزيرة تنسكب من مآقيها بعد ما استعادت وعيها وأحست بأوجاع مبرحة تسري في بطنها . لقد تركها مقران لاهثة منهارة بعد ما ألقى بها في هاوية سحيقة ، وها هي الآن قد أدركت بعد فوات الأوان ما آل اليه أمرها ... لم يبق لها الا أن تلعنه على ما فعل بها ، وأن تبكي على حالها ... وعندئذ فكرت في عامر وقد تملكهـا الحزن والأسى فجاش قلبها الجريح بدعاء حار .. ولكن ما الفائدة من الدعاء اذا كانت يد الأقدار قد تسلطت عليها منذ الولادة ...

انها تتذكر تماما عبارات مقران : يجب أن تبلغيه البقية ... وان كنت لا أعتقد انك ستفعلين ... » وبالفعل ، فلن تقول له شيئـا أبدا ، لا ، أبدا . أما مقران ، فلم ينتظر وفاة خصمه لكي يعيد ويزة الى داره حتى يستر الفضيحة ويزيل الشبهات . لقد حسب لكل شيء حسابه سلفا ، ولعله الآن نائم بكل ارتياح مع زوجته في هذه الليلة الفظيعة التي تقضيها هي مسهدة الجفن ... لعله نائم بكل هدوء وطمأنينة بعد أن أخذ الثأر لشرفه .

وتحسست ذهبية بيدها في الظلمة الحالكة لعلها تجد فوق الصندوق يوميات عامر ، وهي رزمة من الأوراق كانت قد لفتها في محرمتها قبل أن تتمدد في فراشها . فلما وجدتها قربتها من

شفتيها وقبلتها طويلا . وفى شغف ، ثم تمددت مرة ثانية ، وأمسكت بالرزمة وضمتها الى صدرها ، وما لبثت الأشباح الثلاثة الكامنة فى ظلمة الليل أن تحركت من جديد . وحاولت أن تغمض عينيها ، الا أنها كانت تراها قريبة منها . ثم تحولت الى ثلاثة أزواج من النجوم وخيل اليها انها ترسل السهام الى مخها وان ويزة تقول لهـا :

ـ ان بيت آيت حسوش يا بنتي سيكون وبالا على بيت آيت العربي . ولا تنسي ان أحد أفراد آيت حسوش قد اغتال عامرا الأب دفاعا عن شرفه وها هو ذا أحد أفراد آيت سليمان يغتال عامرا الابن من أجل ويزة آيت حسوش . هذا الشيء يا بنتي مقدر ومكتوب وليس لك فيه من حيلة .

وشبه لها ان عامرا تسلل الى مضجعها مبتسما وانحنى فوقها وفتح ذراعيه ... ولكنها فجأة عرفت فيه نظرة مقران الحادة المليئة بالشهوة ، وابتسامته القاسية . وحينما أدركت ذلك زمت شفتيها . ولكنه أهوى عليها وعضها منهما ..

وأزاحت يديها عن صدرها ومدتهما وأحست بنفسها ضعيفة ثقيلة ، بينما أخذت تشعر بموجة عارمة تغمرها وتهدهدها وتخدر أعصابها وتحطها بنعومة ورفق ... واستسلمت لتلك السفرة المتعـة ..

وحينما فتحت عينيها ، كان ضوء النهار الشاحب قد بـدد الظلمات . وأحست بمعدتها خاوية ووجدت فى نفسها شهية كبرى للطعام ، واذا بأمها الحنون تمد اليها فنجانا من القهوة الساخنة ذات الرائحة اللذيذة المنعشة ، فتناولت الفنجان بيديها معا وركزت عينيها النجلاوين فى وجه أمها البسام ، وتذكرت نته مالحة ما قال لها شيخ القرية ذات يوم : « سوف أعطيها مفاتيح الدار ، وسوف أقلدها جميع الأمور ... » .



القسم الثاني

يوميات عامر



اليوم الأول : 20 يناير من الخمسينات

الاسم الذي أعرف به هو عامر أن عامر ، واذا شئت فقل : عامر ابن عامر ، وهذه التسمية كافية لكي تميزني عن سائر من سمي باسم عامر فى القرية . وذلك ان اسم الوالد عندنا يخالف دائما اسم ولده ، فللأب اذن اسمه الشخصي الذي يعرف به وللابن اسم آخر . وعلى وجه العموم ، فان الطفل يسمى باسم جده أو أحد أعمامه أو اخوته ممن ماتوا . وبما أن أبي كان قد توفي حينما ولدت ، فقد أعطيت اسمه لأكون خلفه فى هذه الحياة ... وعلى هذا فكل من يريد أن يقابلني فى ايغيل نزمان ما عليه الا أن يسأل عن « عامر بن عامر » ، ففي الحين يدرك الناس من هو المقصود ويرشدونه الى حيث أنا موجود ...

أمي فرنسية ، وقد جاءت الى هذه المنطقة من بلادنا مع والدي . ومنذ ذلك الحين لم تغادرها اطلاقا . وهي التي ربتني ، وأنا ابنها الوحيد . والخلاصة ان لي اسمين لا اسما واحدا ، وأما لا كغيرها من الأمهات ، كما أنني صرت يتيما حينما كنت لا أزال فى بطن أمي .

كل هذه الأمور لا تخلو من الغرابة . غير أن هناك ما هو أغرب منها ، لأنني منذ البارحة صرت يتيما تماما .. .صرت وحيدا في هذه الدنيا تماما . لقد لفظت أمي أنفاسها الأخيرة في حوالي الساعة الحادية عشرة ليلا ــ عند الساعة الحادية عشرة . والدقيقة السابعة عشرة بالضبط ــ وأنا الآن راجع من مقبرة تازروت . انتهى كل شيء .. دفناها تحت التراب . وها أنا أعود الى الدار .. وبعد ما دخلت أغلقت الباب الكبير وقررت أن لا أفتحه لأحد ، أو .. من يدري ، ربما سأفتحه بعد حين

حينما جمع رفاقي المعاول والمجارف ألقيت على ظهري الزربية الحمراء السميكة ؛ وغادرت المكان على عجل . وبطبيعة الحال سلمت الى أحد أبناء العم الدراهم المخصصة للمرابطين ؛ وما عليهم الا أن يتقاسموها فيما بينهم . وأدرك الناس ما أعانيه من الحزن والأسى ففسحوا لي طريق المرور . وقد أثار غيظي أحدهم واسمه بشير ، لأنه قطع الصمت وقال :

ــ يا ناس .. بنتي لا تزال في المستشفى ولابد من أن تعود الآن من الجزائر لأنها شفيت من مرضها ... وكنت على يقين بأنها ستشفى . المشكلة هو رجوعها من الجزائر ، اذ ما معي دراهم لأدفع تكاليف السفر .

فأجابه بعض الحاضرين :

ــ كان ينبغي أن تختار وقتا أنسب من هذا للسؤال ...

ـ لم أجد يا ناس أحسن من هذا الوقت ، فأنتم اليوم مجتمعون ، واذا انفض الاجتماع فأين سأجدكم ؟ .. وأنتم تعرفون جيدا بأنني أعسى ...

أليس من العيب عليه أن يستغل هذه الفرصة وأن يتناول الكلمة في نفس اللحظة التي انتهوا فيها من ملء الحفرة بالتراب وفسحوا لي طريق المرور ؟ ويا ليته حصل منهم على شيء ... لأن كاتب البلدية قاطعه بخشونة :

ـ ابنتك لا تزال في الجزائر ولكنها شفيت من المرض . كن على يقين انها ستعود اليك قريبا يا شيخ . وهنالك موضوع آخر يا سادة: لدينا كمية من الطوابع الخيرية لمكافحة السل ، لدينا منها مجموعة ولابد من شرائها : فأنتم تعرفون ان ميزانية المركز البلدي ليست كنزا لا ينقص ولا ينفذ .. كونوا عاقلين أيها السادة واشتروا هذه الطوابع .

وسمعت بعض الناس يقهقهون استخفافا به فسرني ذلك . ولا أدري ماذا حصل بعدئذ ، ولا يهمني أن أعرف ، فقد قررت أن لا أدفع فلسا لبشير . أما الطوابع التي حثنا الكاتب على شرائها ، فليلصقها اذا شاء على ظروف رسائله .

ثم انني ساخط على كل واحد منهم لشيء آخر ، وهو أنهم ما جاءوا الا لقضاء الوقت في التهكم . فحينما أقلع موكب الجنازة

وصرنا فى الطريق ، كنت فى آخر الموكب تقريبا ، وسمعت الناس يتبادلون مختلف الأحاديث بدون مراعاة لشعوري ، ولم يكن يردد الشهادة (لا اله الا الله) الا حملة النعش ، ولكن بصوت منخفض لا يكاد يسمع ، وأظن أنهم ما جاءوا الا للتجول ، كأنهم خرجوا فى نزهة . وبادرني أحدهم ، وكان بجواري ، فقال لي :

ــ الطقس ليس رديئا ، بل هو رائع بالنسبة لشهر يناير .

فأجبته باقتضاب :

ــ نعم .

فارتبك فى كلامه لا يدري ما يقول :

ــ متأسف ... كنت أظن ...

وارتسمت على وجهه آيات الحزن والبلادة . وأعرضت عنه غير مكترث به . ورأيت أن ألتحق بحملة النعش ، وكلهم من الشبان ، ومن رفاقي ، وهم يتناوبون على حمله ، فوجدتهم بالفعل ينتظرونني ، وما ان لحقت بهم حتى قال لي أحدهم مستنكرا :

ــ أرأيت هؤلاء الشيوخ المرابطين ؟ .. ألم تدفع لهم الدراهم ؟ متى نسمع صوتهم ؟ .

وأدركت ان رفيقي على حق فصحت بلهجة فيها شيء من السخرية ، وأنا أبتسم ابتسامة خفيفة :

ــ يا مشايخ .. نحن فى أشد الشوق لسماعكم .

وما كدت أتلفظ بهذه العبارة حتى انطلقت ألسنتهم المعقودة . وأخذوا يرتلون الآيات البينات . لقد أحسنت صنعا حينما ذكرتهم بواجبهم ولم أترك لهم الفرصة لاختلاس المال مني بدون مقابل .. وحسبت أن الأمور آيلة للتحسن ولكن خاب ظني .. وربما كنت ممن يغتاظ لأتفه الاشياء ، اذ لاحظت أن رفاقي أساءوا الأدب معي ، فما أعجبني منهم تزاحمهم على أخذ المعول والمجرفة ورميهم التراب بقوة ، وضحكهم ، كلما صعب على أحدهم أن يملأ المجرفة بالتراب . لا والله ، ليس فى طريقتهم تلك شيء من اللياقة والحياء . ومما زادني حزنا أنني أنا وحدي أعير الانتباه لهذه الأشياء . وما كان مني فى آخر الأمر الا أن شعرت بأن موقفي يبعث على السخرية وأن المصيبة التي حلت بي لا يشاركني فيها أحد من رفاقي ، مما جعلني أستاء منهم . غير أن أحدهم ممن كان أكثرهم ثرثرة ، اقترب مني ثم صافحني طويلا خفية عن الانظار ، تحت البرنوس . واغرورقت عيناه بالدموع ، وما كدت أراه على تلك الحال حتى توقفت عن البكاء . ثم فكرت فى نفسي وقلت بأن المرء لا ينبغي أن ينغص حياته حزنا على من مات . وكل ما علي الآن هو أداء الواجب . وطلبت منهم أن يهيلوا على القبر التراب وأن يملأوا جميع الفراغات تحت الأحجار .

لم تترك تلك المصافحة أثرا كبيرا فى نفسي . ولعله أراد بها أن يعتذر عما بدر منه . وأنا الآن أستطيع أن أتصور ما أراد أن يعبر عنه بتلك المصافحة . لقد أراد أن يقول لي :

« طيب... نحن نعرف أن والدتك ماتت. ولكن أنت لا تزال على قيد الحياة . أو تحسب أن القيامة قامت بموتها ؟.. كلا ! لا تفكر

فيها بعد اليوم . لقد أودعناها فى أسفل هذه الحفرة ونحن الآن فوقها ندوس هذه التربة .. سترى بنفسك بعد أيام قلائل انه لا فرق بين من له آم ومن كان يتيما » .

وبالفعل ، لاحظت ذلك ووجدت بأنه لا فرق ... وأنا الآن أتحدى الموت .. فما له الي من سبيل ، الا اذا غلبني بالحيلة والغدر . أنا لا أستطيع أن أتصور نفسي ميتا كما ماتت أمي ، ولا أرى ما يدعو الى أن أستخرج من وفاتها أية عبرة أتعظ بها . ومع ذلك فبودي لو أستطيع أن أفكر فى الأمر بوضوح ، وأن أتعمق فى النظر والتأمل ، كما يفعل الناس فى مثل هذه الظروف . ولكن ، لعله من الأفضل أن ألازم الصمت ، لأن جميع الناس يعرفون ما معنى وفاة الأم ، وذلك ما قصده رفيقي حينما جاء ليصافحني ، فكأنه أراد أن يقول : « كل واحد منا كانت له أم » . انه قد فقد أمه هو أيضا ، وما نسيت ذلك ؛ بل فكرت فى هذا الأمر بمجرد أن رأيته مقبلا علي .

حينما كنت صغيرا ، كنت دائما أشعر بعطف كبير على كل من يفقد أهله . أما الآن فأنا ألاحظ بأني كنت على خطأ . وفى الواقع لا أرى من لزوم لعطف الناس ... وبطبيعة الحال ، فقد أخذت أنا أيضا نصيبي من ذلك العطف ، وكنت مسرورا أن أجدهم يعطفون علي وأن أسمعهم يقولون :

ــ كن واثقا يا عميروش أننا تتألم لمصابك . ولكن لا داعي للحزن ما دمت قد أديت واجبك . الموت شيء لابد منه واذا جاء الأجل فلا يمكن لك أن تخلصها منه ...

ــ ما من أم يا عميروش الا وتتمنى أن يرزقها الله بأمثالك من الشبان ...

ــ أمك يا ولدي ، قد فارقتك قريرة العين وستبارك عملك فى دار الآخرة . انها لم تخلف من بعدها بنتا ليس لها من يحميها ، بل تركت رجلا ذكيا يستطيع أن يعيش فى هناء . لا تخف يا عامر لأنك نلت رضاها ، ونلت منها دعوة الخير ...

كل هذا سمعته البارحة من الناس حينما كانوا يتوافدون الى داري للتعزية . وظهرت لهم كأنني قد خرجت من تجربة قاسية وتغلبت على الحزن فهنأوني على صبري ، وأضافوا غير قليل من عبارات المدح والثناء على المرحومة أمي التي كانت مسجاة على الأرض فى وسط الدار . ولك أن تتصورها على تلك الحـال معروضة لمدة ساعات أمام أنظار الناس كأنها فى متحف .

ومن الذين كلفوا أنفسهم مشقة المجيء للتعزية أحد أبناء عمي وهو معلم وممن أقدرهم أحسن التقدير . وبما أن المناسبة تقتضي منه أن يتكلم ، فقد قال لي :

ــ تصور انني علمت مساء البارحة بأن أحد زملائي مات فجأة . وهو شخص أعرفه جيدا ، بل أعتبره من أعز الاصدقاء . ولم يكن أحد يتوقع موته ، فقد تمدد على فراشه لينام ، ونـام نومتـه الاخيرة . وحينما جاءت زوجته لتأوي هي أيضا الى الفراش ، لم يبق فيه حيا سوى السيجارة التي كانت لا تزال تحترق شيئا فشيئا بين أصابعه . وأصيب كل من فى القرية بوجوم شديد ، لأن

المرحوم يتمتع بصحة جيدة ، وكان معلما ممتازا . وأنا متأكد أنه قبل وفاته لم يكن يفكر سوى في ما يفكر فيه أمثاله من المعلمين الممتازين ، كالتوزيع الشهري للسواد ، والتحضير اليومي للدروس ، وتصحيح الدفاتر ، واحتمال زيارة المفتش . وما كان يدري أن أجله قد حان ...

لم يكن لهذه القصة علاقة كبيرة بموت أمي . غير أن ابن عدي استطاع أن يثير اهتمامي ...

وأمي كذلك لم تكن في الشهر المنصرم تشعر بأي قلق على حياتها ، ولم يدر بخلدي قط أن الموت يهددها . ثم لزمت الفراش وأخذت ترفض ما يقدم لها من الطعام . وكانت تتألم من شيء أشبه ما يكون بكرة صلبة تحس بها في وسط بطنها تارة ، وفي جنبها الايمن تارة أخرى ، وكانت هذه الكرة تؤلمها أشد الألم . وتخنق أنفاسها وتمنعها من تناول الطعام . وعندما جاء الطبيب قلت له مهونا الأمر :

ــ لا بأس عليها يا دكتور ، وكل ما في الأمر أن أمي قد تحتاج الى مسهل ، لأنك سترى بنفسك بأنها تعاني ألما في المعدة .. حالتها ستتحسن بمجرد أن تراك . هل فهمت ما أعني ؟.. لأنها مثلك فرنسية .

ــ نعم ، فهمت قصدك ، وأنا سمعت بها . هل أنت ولدها ؟

ــ ولدها الوحيد يا دكتور ، وستكون مسرورة برؤيتك .

ــ طيب ، هيا بنا . لن يكون الا الخير ..

وحينما وصلنا الى الدار تجاذبنا معه أطراف الحديث ، وحصلنا منه على بعض الأدوية ، وكان قد جلبها معه فى حقيبة صغيرة اعتاد أن يحضرها معه كلما جاء الى القرية . والناس عندنا مسرورون من هذا الفحص الطبي ومن هذه المعالجة فى عين المكان ، ومن الحصول على الأدوية من غير أن يتكلفوا فى ذلك مشقة السفر . وكنت أظن أن المشكلة انتهت ، وانه ما بقي على أمي الا أن تتماثل للشفاء . ومازحتها قليلا لأنها تناولت فى الحين نصف الأقراص التي أوصى بها الطبيب لليوم كله .

لقد كانت مستعجلة للتخلص من تلك الأدوية . وها هي ذي قد استراحت منها ، ولكن بعد شهر من العذاب . ولم أتخل عنها ، ولم أفرط فيها ؛ وكل الناس يعرفون ذلك ، بما فيهم الطبيب . وكنت موزعا بين الامل فى شفائها والخوف من فقدها . ولعل هذا الكلام قد يبدو ساذجا ، ومع هذا فان الامل فى شفائها ملأ نفسي بالارتياح ، لأنه أمل قوي ثابت لا يتزعزع ، وكان لي خير معين لتحمل المشاق ، والسهر والتضحية . غير أن الخوف من فقدها أخذ يعذبني ويضعف معنوياتي .. ان الخواطر التي كانت تراود ذهني لا أستطيع اليوم أن أعبر عنها . وكنت مثلا أقول فى نفسي :

ــ ما الفائدة من تبذير الدراهم جزافا ؟ ما الفائدة من ذلك ما دامت ستموت لا محالة ؟ لماذا لا تكف عن طلب بعض الأشياء التي لا أكاد أحضرها من أجلها حتى ترفضها ؟ لماذا ــ وقد أصبحت قاب قوسين من الموت ــ لا تترفق بي قليلا ولا تشفق علي ؟ ما أشد أنانيتها وما أكثر تشبثها بالحياة ! انها لا تريد أن تموت ،

ما في ذلك شك . والدليل على ذلك أن بريق الأمل كان يشرق في عينيها عندما أكذب عليها لأطمئنها على صحتها .

لقد أصبحت أمي في حالة يرثى لها . وأحسبها لم تلاحظ بأنني أكاد أهلك من أجلها ، ولم أعد أنام ولم أعد أتناول شيئا من الطعام ، وأن ما عندي من المال القليل قد نفد . لماذا كل هذا التبذير اذن ، ما دامت ستموت كغيرها من الناس ! .. ان ملامح وجهي تكشف أحيانا عن أشياء لا يمكن أن ينخدع بها أحد ، حتى المريض المحتضر . وكانت أمي حينئذ تتفهم موقفي فأراها قد صارت امرأة تستحق الاعجاب ، اذ ليس في نظراتها شيء من الخوف أو المسكنة أو التوبيخ ، بل كانت نظراتها مشرقة طاهرة تعبر لي عن مكنون صدرها بهدوء وطمأنينة .

ودام ذلك شهرا ، شهرا كاملا . ولم يسمع الناس الا في اللحظة الاخيرة بأنها تعاني سكرات الموت . وكانوا يعتقدون بأنها مريضة كما يمرض جميع الناس ، وأنها لن تلبث حتى تتماثل للشفاء . غير انها لم تشف من دائها الى أن جاءهم خبر وفاتها . ولم يأخذوا في السؤال عن صحتها والاستفسار عن أحوالها الا في الأيام الأربعة الأخيرة ، ولم يساعدني في ساعة المحنة أحد سوى ذهبية وأمها .. أما الآخرون ...

والشيء الذي لم أستطع أن أتحمله هو تلك الليالي البيضاء التي قضيتها ساهرا لوحدي مع أمي المريضة ... ومن الغريب أن نقال عن تلك الليالي بأنها بيضاء اذ ليس لها من البياض سوى الشمعة

الشاحبة الصغيرة المتراقصة التي تنفث البترول وتملأ مناخيري بالدخان ، لأنني كنت أضع المصباح على الأرض بالقرب من الوسادة ، وتحت أنفي تماما .. ومثلها فى الشحوب ، ذلك الوجه المسكين الذي يذوب شيئا فشيئا كأنه قناع من الشمع ... ومثلها فى الشحوب أيضا ، ذلك الوجه الشارد النظرات ، المتوتر الاعصاب ، المبتسم تارة والمتجهم تارة أخرى ... انه وجهي أنا . وكل ما عدا ذلك لا أرى منه شيئا ، لأنه قد اختفى فى الظلال : فالثياب المعلّقة على الجدران تبدو كأنها آشباح ، وخوابي الحبوب أراها قد دبت فيها الحياةفرنزت علي فى سخريه عيونها(1) المستديرة، وأخشاب السقف الغليظة قد استحالت الى وحوش رهيبة . وخيل لي أن عشرات المتفرجين يطلون من خلال مصراعي الباب وينشغلون بتعذيبي . لقد كنت أشعر أن هالة من الضياء الأصفر قد أحدقت بي ، أنا وأمي .. وان هي الاهالة الموت الشاحبة . ما أفظع تلك اللحظات ، وما أشد الخوف الذي يعتريني ! حين تغفو أمي ، أرى صدرها يرتفع كأنه يقاوم ثقلا باهظا يكاد يسحقه ، فأحس بذلك الثقل يحني كتفي ، وأشعر أن ماردا جبارا يخيم علينا معا .. وكنت أحيانا أفقد الوعي وأستسلم للنوم وأنا فى مكاني قابع . وحينئذ كنت أرى نفس الحلم المزعج الذي تراه أمي ، لأنني لا أكاد أنتفض صاحيا من سكرة النوم حتى أجد أمي قد استيقظت هي أيضا من سباتها فتفتح عينيها بمشقة وتناديني بالهمس فنتبادل النظرات فى صمت ، اذ ليس هناك ما يستحق أن يقال .

---

(1) المقصود بالعيون هنا هو الفوهة المستديرة الموجودة فى اسفل الخابية واعلاها ، ومنها يؤخذ الحب (المترجم) .

ولكن ما الفائدة من الحديث عن تلك الليالي ؟ كفاني منهـا ما عانيت . سوف أتحدث الآن عن موضوع آخر : حينما قررت ذهبية أن تجيء الى الدار لكي تقاسمني مشقة السهر ، لم أكن أتوقع منها ذلك أبدا . انها بكل تأكيد بنت طيبة ، ووجودها معنا قد أثر في أمي تأثيرا جعلها تذرف آخر دموعها في هذه الحياة . الا أنني رأيت بالاتفاق مع أمي أن أمنعها من المجيء وحدها لأنها قد تعرض سمعتها للقيل والقال . وعلى كل حال فلها فضل كبير علينا لأنها سنت سنة حسنة فأخذت جاراتنا من العجائز يأتين كل ليلة للسهر في دارنا . ودام ذلك أربعة ليال بما فيها الليلة الاخيرة ، ثم انتهى كل شيء ، وقضي الأمر الذي ليس منه مفر ..

لأول مرة سأنام اليوم وحدي هنا في نفس المكان الذي نامت فيه كل يوم لمدة شهر كامل .. في نفس المكان الذي نقلوها منه منذ حين . لم أعد أشعر بالخوف . وما الفائدة من الخوف ؟ أنا اليوم راض عن نفسي كل الرضى ما عدا اللحظة التي شعرت فيها بشيء من الانزعاج عندما كنا في المقبرة نستعد للانصراف منها . وقد ظن الناس حينما رأوني أغادر المكان انني أردت أن أبكي لوحدي . ولكن هذا غير صحيح فلم تقطر ولا دمعة واحدة من عيني .

والحقيقة أن كل ما اريده هو أن اكتب وأن أتحدث عن كل شيء : عن حياتي وعن حياتها . وأن اقول للناس بأن أمي . وان غابت عن الانظار ، الا أنها لا تزال هنا تحوم من حولـي كأنها قد حـلت في بدني لـكي تتحدث بلسـاني

وتحثني أن أكتب اليوميات . لابد اذن من أن أقول كل شيء، كل شيء بدون استثناء . ولكن ، لماذا لم تعد الكلمات تتوارد الى ذهني ؟ ولماذا أحس برأسي يكاد ينفجر ؟..

سأفتح الباب على كل حال ، ومن يدري ، فلعل ذهبية ستأتي .

* * *

فى بعض الاحيان تتضح الامور فى ذهني وتشرق اشراقا يكاد يسبب لي الحيرة، فأجدني مرهف الشعور، سريع الفهم والملاحظة، ثم لا تلبث معالم الاشياء أن تنطمس أمام ناظري ، فلا أرى سوى نقطة تتراقص أمام عيني ، وتظل كذلك تتراقص بدون انقطاع .

وها آنا اليوم أمر بتلك اللحظات من الاشراق . فلا بد من الاستفادة منها فى النظر والتأمل .. كل شيء يبدو لي فى منتهى البساطة وما من شيء معقد أبدا ، فالطريق ممتد الى الامام وسأمضي فيه بدون أن أتساءل عن الهدف ، لان جميع من أحبهم سلكوه من قبلي : جدتي وأمي وشابحة وغيرهن ، فما الداعي للحيرة اذن ؟ سأمضي فيه بدون تردد وسأذكر دائما أن هؤلاء الأحباب الثلاثة : جدتي وشابحة وأمي ، فارقوا الحياة ، وسيأتي بعد ذلك دوري .. ودور ذهبية .

فى الشهر المنصرم ماتت احدى العانسات من بيت آيت حموش فى نوبة حادة من الغضب ، وكانت هي أيضا تعرف أن ساعتها الأخيرة قد اقتربت ، وكانت أختها الصغيرة تترقب موتها بفارغ الصبر لكي تستولي على ما تتركه من ثياب . غير أن المريضة لم

تخف عليها نوايا أختها ، فكانت تتبادل معها الشتائم وتثير معها ضجة كبيرة ، فيهرع الناس للتفرج على ذلك المشهد الغريب . وذات يوم خارت قوى هذه البنت العانس فما استطاعت أن تتشاجر معها ولا أن تصرخ ولم يبق لها من سلاح سوى النظرة الشزراء ، فوضعت فى تلك النظرة كل ما فى قلبها من حقد دفين . على أن أختها كانت تتحداها فتأخذ الثوب تلو الأخر ، وتختال به أمام هذه المرأة المسكينة ، فتنهمر الدموع من عينيها ساخنة غزيرة ... ويتدخل الأهل أحيانا لحمايتها ، ولكن بدون حماس . وفى صبيحة يوم من الايام انتابتها نوبة من الغضب فأصبح جسدها يابسا كالحجر اذ خارت قواها حين أرادت أن تقوم من مكانها لتدافع عن نفسها ، فما كان منها الا أن لفظت أنفاسها الأخيرة .

وحينما سمعنا نحن الشبان بهذا الخبر جعلنا منه موضوعا للتهكم والمزاح ، وضحكنا لحماقة هذه المرأة التي أبت أن تسلم ثيابها ما دامت على قيد الحياة . ولعلها ظنت بأنها ستكون فى حاجة اليها فى الآخرة ، وأن الموت لا يمكن أن يحرمها منها ... أو ربما قالت فى نفسها بأن أختها غير معذورة حينما أخذت تتحداها وتستولي على الثياب التي هي ملك لها .

واذا أمعن الانسان النظر فى هذه الحادثة فانه سيجد بأن الموقف الذي اتخذته هذه البنت المسكينة هو الموقف الذي ينبغي أن يتخذه كل واحد منا فى لحظاته الأخيرة . اذ يجب على الانسان أن يعيش وأن يتمتع بالحياة الى آخر رمق ، وليأت الموت من بعد ذلك متى يشاء .

اليوم الثاني : 21 يناير من الخمسينات

البارحة نمت نوما عميقا .. نمت وحدي فى الدار . كنت متعبا جدا ، وبقي الباب مفتوحا لأنني كنت أنتظر ذهبية . يا للحماقة ! ليس مبعث هذا الامل السخيف سوى رغبة فى نفسي طائشة . وتوقفت عن الكتابة وقلت فى نفسي : لابد أنها ستأتي . وتركت الأوراق فوق الصندوق وتسددت على الأغطية بعد آن فرشتها على الأرض ، وأغمضت عيني فى الحين . وعندما تطلعت الى المرآة فى هذا الصباح وجدت بأن وجهي متورم ، ثم خرجت أحث الخطى نحو المقهى حيث مكثت طوال النهار ...

المطر يهطل منذ أكثر من ساعة ، والطقس بارد وأنا أتمنى آن يستمر المطر فى التهطال ، وأن يبقى الطقس باردا الى الصباح . وقربت الصندوق من الموقد وقبعت أمامه لكي أدفيء ظهري ..

سيان عندي أن أقضي الليل هنا أو أنتقل الى أي مكان آخر من العالم ، الى جزيرة خالية أو الى غرفة حقيرة فى احدى المدن الكبرى ... الى جنة النعيم ، أو الى عذاب الجحيم . وعندما يحترق كل ما فى المصباح من بترول ، سوف أتصور نفسي كأنني

انتقلت الى القبر ، ودخلته غير هياب ، لأنني على يقين بأن ملاك الموت لن يزعجني فى عزلتي وانفرادي .

ومهما يكن من أمر ، فغدا تشرق الشمس وتستيقظ القرية كما تعودت أن تستيقظ فى الشتاء ، وتزيح عن نفسها جو الخمول الكثيف الذي يخيم عليها حين ينزل البرد الشديد . سيبدأ النهار كالعادة بصياح الديك (وبالمناسبة ، فلابد من أن أخنق أنفاسه ذات يوم) ثم يأخذ صبيان موح والي فى الصراخ ، وأسمع صوت أمه المرتعش وهي تصلي وتسلم على سيدنا محمد . (يا لها من عجوز لا ينقطع لها أنين !) ، وأخيرا ستنفتح بعض الابواب وتنغلق أخرى وينهض الجيران ويخرج بعضهم ويتقابلون فى الطريـــق ويتبادلون تحية الصباح ويسير بعضهم وراء بعض فى عتمات الفجر ... انهم يحثون الخطى لقضاء الحاجة والاستنجاء ، وبعدئذ يؤدي بعضهم فريضة الصلاة ، بينما يعود آخرون لتدفئة أرجلهم فى انتظار فنجان القهوة . وهكذا يبدأ الصباح حزينا باردا فى أغلب البيوت ، اذ لابد من اسكات الاطفال باستعمال الشدة معهم ، ولابد من تبادل العبارات اللاذعة ولابد مـــن النفخ فى الحطب الاخضر الذي لا تندلع فيه النار الا بعد مشقة ... سيقبل كل واحد وبدنه يقشعر ، سيقبل على الجرة الباردة كالصقيع ، ليصب منها الماء ويبلل به وجهه ويديه ، وما بقي عليه بعد ذلك الا أن يتفاءل ويسعى فى الارض ويضع نصب عينيه مشروعه اليومي لكي يعمل ويكد ، وحينئذ يكون قد استيقظ من النوم تماما واستعد لأداء دوره فى مهزلة الحياة .

المشكلة التي أواجهها الآن هي أنه لابد من اتخاذ قرار : فإما أن أواصل دوري في هذه المهزلة ، وإما أن أضع له حدا .. ان موقفي بسيط جدا، وذلك أن الموضوع يتعلق بمصيري أنا، ولذلك أتساءل : ماذا تراني سأفعل الآن ؟ والواقع أنني لست في حيرة من أمري ، بل أعرف تماما ماذا سأفعل. وأنا في الواقع أكتب هذه الصفحات لأبرر موقفي ، أو بالاحرى لأعبر عما يختلج في نفسي . أما الناس فلا يهمني أن أعرف رأيهم ، لأنني أريد أن أفهم نفسي وأن أحيط بالموضوع من جميع جوانبه وأن أوضحه على هذه الأوراق حتى لا يفلت مني أبدا . وحينما أنتهي من شرح الموضوع ونسخه على هذه الاوراق فأنت لا شك، يا أماه تعلمين ماذا سأفعل.. وما عليك اذن الا الصبر .

أود أولا أن أبدأ من البداية وأن أتحدث بتعقل عن جميع الامور التي تخصني وأن أكون موضوعيا في كلامي . أريد أن أشرح لماذا أرفض هذه الحياة ولماذا صرت منذ البارحة أصرخ في وجهها ساخطا مستنكرا . غير أنني أشعر برأسي يغلي غليان القدر ، وبفقاعات الهواء تتولد فيه وتنفجر بدون انقطاع . وكل واحدة من تلك الفقاعات ان هي في الواقع الا عنصر من عناصر الموضوع الذي أحاول عبثا أن أمسك به قبل أن يفلت، وأحس به يكاد ينفجر في رأسي ويبعث الاضطراب في مخي ويشوش بصري ويتركني بعد ذلك خائر القوى .

لقد انتهى الامر بأمي الى اعتناق الاسلام في قريتنا . ولعلها خاتمة حسنة بالنسبة لامرأة فرنسية تخلت عن عاداتها وتبنت

التقاليد المحلية ، ولذلك لم ير شيوخ المرابطين أي مانع ليشرفوها بالحضور في تشييع جنازتها . الويل لهم من قوم لا يصلحون ! فكلما سنحت أمثال هذه المناسبات كالجنائز أو غيرها فانهم يشعروننا أن فضلهم علينا كبير . وعلى كل حال فنحن واياهم على قدم المساواة . ولابد من أن يسود بيننا روح التفاهم . وما قلته عنهم لا ينبغي أن يؤخذ على علاته لأنني في الواقع لا أحمل لهم الحقد في نفسي ، بل أنا لا أحمل الحقد لأحد . ولكن ... هذه هي الحقيقة ولابد من التصريح بها .

كنت في وقت من الأوقات أكن الحقد لجميع الناس ، ويرجع ذلك الى عهد بعيد ، وبقي معي ذلك الحقد مدة طويلة ، ومبعثه أن أترابي من الاطفال ، كانوا ينادونني « ولد الرومية » كما لو كنت بدون اسم أعرف به . وجدتي هي أول من اغتاظت للامر حينما رأت أن الرجال والنساء أخذوا يقلدون الاطفال وأنهم جميعا مصرون على أن لا يذكروا اسم والدي عامر واسمي أنا عامر ، وكأنهم يريدون أن يندثر هذا الاسم تماما وأن لا يبقى له أثر في العائلة . وذات يوم قالت لهم :

ــ اعلموا يا ناس أن هذا الطفل هو ابن عامر ، والويل لمن ينسى ذلك . انه عامر بن عامر ، من بيت آيت العربي ، بيت الحسب والنسب ، فاعرفوا اذن قدرنا لكي نعرف قدركم .. وأنت يا حمار ، ارفع رأسك ودافع عن نفسك ! سترى أنهم لن يسخروا منك اذا ضربت وشتمت وبصقت في وجوههم .

وهكذا فرضت اسم عامر على الناس ، و لاأعتقد أن أحدا منهم ينازعني فيه الآن . وأنا على يقين أنهم حينما يتحدثون عني في غيابي يقولون « عامر بن عامر » وليس « ولد الرومية » . وأنا راض عن هذه التسمية لأنها تشير الى أصلي من جهة الاب لا من جهة الام .

ان الصورة التي بقيت منذ عهد الطفولة راسخة في ذهني عن جدتي ، هي صورة امرأة عابسة الوجه ، وكلما واتتها الفرصة ، أذاقت الناس ألوانا من لسانها السليط . وكنت وأنا صغير ، أحب أن أراها في حالة الغضب وأن أسمعها تسب وتشتم . وعندما أعود من النادي أو من المدرسة لأشكو لها دامع العينين ما نالني من الضرب على يد طفل أكبر مني سنا ، أو ما لحقني من اهانة من طرف رجل أو امرأة ، كانت جدتي تسمعني الكلمات التي تشفي قلبي الجريح فأمسح دموعي . الا أن أمي كانت تبكي ، فتقول لها جدتي :

ـ انهم يستضعفونه لأنه يتيم لا أب له يدافع عنه ، ولكنه رجل ولن يكون جبانا مثلهم .. البكاء ليس من شيم الرجال ، بل هو من شيم البنات .. هل فهمت يا عميروش ؟

طبعا فهمت . وفي الواقع ما ذكرت هذا الكلام الا لكي أقول بأنني بدأت منذ الصغر أفهم نفسيات الناس عندنا . وأنا اليوم أعرفهم جيدا حتى إنني صرت لا أحمل الحقد لأحد ، لا للمرابطين ولا لغيرهم . والمثل عندنا يقول : « ما من اعرمة من القمح الا

وفيها نفايات (1) » فما أصدق هذا المثل ! بل أنا ميال للاعتقاد بأنه لا يوجد فى البيدر الا أكوام من النفايات وان العثور على شيء من القمح فيها أمر نادر . وكذلك الناس : فى كل جماعة يندر أن تقع على رجل صالح . ان ذكرياتي عن مرحلة الطفولة ليست واضحة فى ذهني تمام الوضوح ، ولذلك أشك فى صحة الاحكام التي كنت أطلقها ، وفى معرفتي آنذاك للامور حق المعرفة ، وفى تقديري للناس حق قدرهم .

لقد كنت دائما أسمع من يقول فى عائلتنا بأن جميع الناس يكرهوننا ، وأنهم ينوون بنا شرا ، وان كانوا لا يتجاسرون على ذلك . وهذا الامر أصبح بالنسبة لجدتي حقيقة ثابتة لا مراء فيها . أما أنا فقد كنت أرى فى هذه الكراهية شيئا طبيعيا لا يحتاج الى أي برهان ولا أي دليل . كنت أنظر الى هذه العداوة كما أنظر الى الظواهر الطبيعية ، كالسماء حين تتلبد بالغيوم ، والاشجار حين تسقط أوراقها ، والأجسام اذ تهوي بها الجاذبية الى الارض، والمقادير اذ تقذف بالناس الى الهلاك . ما هذه العداوة اذن الا قانون من القوانين الطبيعية التي لابد من تحملها والصبر عليها . وأنا أتساءل اليوم : هل كنا ـ ونحن نظن السوء بالناس ـ على صواب أو على خطأ ؟ ... ربما كنا على خطأ وعلى صواب فى نفس الوقت ...

لقد تركت مخـاوف الطفولة فى نفسي أثرا لا يمحي ... فما أشد تلك الأيام ، وما أقساها ! كنت اذا خرجت من الدار الى حيث

---

1 ـ مثل امازيغي، ونصة باللغة الامازيغي : «كل ثير شث ذكس اكرفا» . (المترجم).

يلعب الاطفال : كنت لا أجد من يحميني سوى جدتي . الا أنها لا تأتي متوكئة على عكازها لنجدتي الا بعد فوات الأوان ، فتمسكني من يدي وتأخذني معها الى الدار لتزيح عن قلبي الأسى . أما أقراني من الاطفال فقد كانوا دائما يجدون من يشجعهم ويساعدهم لأن جميع الناس يريدون أن أكون مغلوبا . وبالفعل فقد كنت فى أغلب الاحيان مغلوبا ، وكم كان ذلك قاسيا على نفسي .

كثيرا ما كنا ــ ونحن ستة أو نحو ذلك من الاطفال الصغار ــ نجتمع لنلعب فى الطريق المليء بالغبار والتراب ، فلا يلبث أن يأتي طفل أكبر منا سنا ويفسد علينا اللعب ، ويكون سببا فى المخاصمة بيننا فيحرض رفاقي علي قائلا :

ــ هل أنت خائف من ولد الرومية ؟

ــ لا ، لست خائفا منه .

ــ اذن ماذا تنتظر ؟ .. اضربه .

وأنا أعرف سلفا أن الامور ستنتهي الى تلك النتيجة ، لأنني منذ البداية لقمة سائغة لهم . واذا دافعت عن نفسي فان هذا الطفل الأكبر يتدخل فتنهال الضربات علي ، حتى اذا جاءت جدتي ، اذا بهم يشرحون لها بأنني أنا المذنب . وما كنت أقوى على أن أشرح لها كيف انهم ظلموني وتحاموا (1) علي . وقد سيطر على نفسي منذ الصبا خوف يشبه خوف الحيوان المتوحش ،

---

(1) تحاموا علي : تناصروا واجتمعوا ضدي (المترجم) .

ولم يعد هذا الخوف يبرحني . فأنـا أحس به يخنق أنفاسي ويسبب لي مغصا في المعدة ، ويجعل بدني يقشعـر ، ويزعج أحلامي في الليل ، فأصرخ كالمجنون . كنت أخاف من الاطفال الكبار ومن الرجال ، وصرت خداعا ماكرا كالحيوان الضعيف الذي يقع على حيوان آخر أضعف منه فلا أشفق على الصغار أبدا . واذا صادفت منهم أحدا بمفرده أجد لذة كبرى في الانتقام منه ، وبهذه الطريقة ألقن الصغار ما أتلقاه من الدروس القاسية من الكبار ، ولا أصارح بذلك أحدا لأنني لم أكن أستطيع أن أتكلم ، لصغر سني ، وان كنت أفهم كل شيء . لم يكن عمري فيما أعتقد يتجاوز الخامسة أو السادسة لأن جدتي ماتت سنة 1934 . وتغيرت الامور بعد ما دخلت الى المدرسة ، اذ حدث شيء كان فيه خير . وأنا اليوم مندهش كيف انني رغم صغري أدركت ذلك الشيء الذي حدث في حياتي ، وأعتقد أن الاطفال ممن لا يتجاوز عمرهم التاسعة أو العاشرة ، قل أن تجد بينهم من يدركه .

كان خصومي من الاطفال يزدادون على مـر السنين قوة وبطشا ، وأخذت المشاجرات معهم تزداد شدة . وكثيرا ما رجعت الى الدار ممزق العباءة مصابا بخدش أو عض أو جرح خطير أو بغير ذلك من الاعتداءات التي لا تزال الى حد اليوم تثير حفيظتي وغيظي كلما تذكرتها . وما أنا في نظرهم الا ولد الرومية الحقير ، فليكن اذن كبش الفداء ! ما أنا في نظرهم الا طفل لا يستحق الشفقة والرحمة .

وتمضي الايام واذا بي أتقدم فى العمر واذا بالحي يعــج بالصبيان واذا بالاطفال الكبار يتركون المدرسة نهائيا ويصيرون شبانا وكهولا ويقطعون البحر الى فرنسا ويعملون فى المزارع والحقول وتنقطع أخبارهم عنا نحن الاطفال ، والاحظ ذلك فترتاح له نفسي لأنه يؤذن بأن دوري قد حان لأن أكون قويا مهابا بين من بقي فى القرية من الاطفال . وما لبث الصغار أن أخذوا يتوددون الي ويتقربون مني ويخضعون لارادتي . وصرت أنا أيضا أسبب مشاجرات بينهم وأؤدب منهم من أشاء فلا يكون منهم الا أن يشتكوا لأمي . لقد أردت أن أنتقم لنفسي لأنني ما نسيت أبدا . وما من رذيلة الا واتصفت بها ، كالوقاحة والكذب والسرقة . وكنت أطوف فى المقاهي لجمع أعقــاب السجــائر والمشاركة فى الالعاب التي ما لبثت أن مهرت فيها ، مثل الدومينو والروندا ولعبة 31 والبولوت ، حتى صرت أربح مع أشطر اللاعبين . الا أن الرجال ما كانوا يترفقون بي فلا يكون مني الا أن أبكي وأصرخ وأسب وأرجم بالاحجار كل من يريد أن يعتدي علي ، ثم أنسلّ هاربا . لقد أدركت أنهم يكرهونني أشــد الكراهية ،لذلك قررت أن لا أقيم حسابا لأي واحد منهم ،وصرت لا أخاف من أحد . أما أقراني الذين كانوا فى السابق يجدون من طرف الكبار المساندة ويضربونني فقد تغلبت عليهم جميعا وأصبحوا لي خاضعين .

ومنذ ذلك الوقت صار لي أصدقاء .. أصدقاء بأتم معنى الكلمة . وقد حافظوا على عهد الصداقة الى حد اليوم ، واتفقنا

فيما بيننا على نسيان الاحقاد والضغائن الدنيئة التي لا تجدي نفعا . وعلى كل حال فسأعود الى الحديث عن تلك الاحقـاد مـرة أخرى .

ان السنوات الاولى من حياتي هي التي كونتني . أليس كذلك يا أماه ؟ تكلمي .. أليس كذلك ؟ الا ترين انني لا أحتاج الى جدتي كمومة لتحميني من شر الناس ؟ ماتت ولم يعد أحد يسمع صوتها . وبقيت أنت في هذه القرية .. لماذا بقيت فيها ؟ لولاك لرحلت عن هذه الديار ولما شقيت بها كما شقيت ، فيا ليتك غادرت البلاد .

وهكذا بقيت أمي في القرية فلم تبق لي حرية الاختيار ، وأصبح لزاما علي أن أكون أحد أبناء ايغيل نزمان ، وأن أخلص لبلادي وأن أعتز بأصلي وأن لا أتنكر له . لقد حصلت على مكان في هذه الارض وأنا مصمم على أن أحتفظ به . وان الذين يريدون أن يتخلصوا مني من أهالي القرية يعرفون ذلك جيدا .. البعض منهم يريدون بالفعل أن يتخلصوا مني وهؤلاء أكرههم ، وسأبقى هنا لكي أكون غصة في حلقهم . ولعلهم يقولون في أنفسهم كلما أبصروني بينهم : « ما لنا الا الصبر » ولا شك انهم كانوا مسرورين جدا حينما ذهبت الى فرنسا :

« استرحنا من ولد الرومية وتخلصنا منه .. الله يبقيه في بلاد الكفار ، عند أخواله » .

وبالفعل مكثت هناك أربع سنوات ، وها أنا قد عدت الى البلاد ، عدت اليها لأجد من يقول عني : « ان هذا الشاب لا يشذ عن القاعدة المتبعة عندنا .. سيسافر من حين الى حين الى فرنسا وسيعود منها كما يفعل أمثاله من شبابنا وسيمضي فى عادته القديمة من التحدي والتشكيك فى عقائدنا والاستهتار بديننا وافساد شبابنا وتضليلهم لأنه هو الذي أصبح يوجههم الى سبل الفساد » .

أنا أعرف أيها الاغبياء أنكم لا ترحبون بي . ولكن الى أين تريدون أن أذهب ؟ هل تعتقدون أن أخوالي الفرنسيين يرحبون بي ؟ أنتم مخطئون . اسألوا أولادكم ممن كانوا معي فى فرنسا فسيخبرونكم عن سيرتي فى بلاد « أخوالي » وهل تكبرت على أبناء بلادى .. اسألوهم ، هل رضيت ولو مرة واحدة بالهوان وكيف كنت أنال حظي من الاهانة على يد السلطات ، وكيف كنت أقاسمهم المعيشة التعسة فى الغرفة الحقيرة ، ولقمة العيش المرة فى باريس وفى غيرها من المدن . أنا أمقتكم أيها الاغبياء ، ولكن أولادكم اخواني فلطالما استرشدوا بآرائي ، وأنا معهم على وفاق تام ..

لابد لي قبل أن آنام من أن أسجل هذه الخواطر .. كم الساعة الآن يا ترى ؟ ما عندي ساعة . الهزيع الأول من الليل قد انقضى .. منذ لحظات وقعت أحجار على سقف الدار ، فاهتز لهـا السقف ... لاشك أنهـا أحجار كبيرة . من أي مكـان قذفوها يا ترى ؟ من مكان قريب بكل تأكيد . من باحة الدار

أو من الزقاق ؟ لا أدري .. لقد أرهفت السمع مدة طويلة لعلي أتبين وقع خطوات ، ولكن لا شيء .. لا شيء سوى الصمت .. من المحتمل أن تكون هذه الاحجار قد حطمت بعض القراميد .. يا له من جبان ! لماذا لا يقابلني جهارا ، عوض أن ينهزم خائفا كلما أبصرني في الطريق ؟...

ها أنت يا أماه تلاحظين أنني صرت — والحمد لله — أشغل بال الناس . والشخص الذي أشغل باله على وجه الخصوص تعرفينه جيدا ، وما كان قلبك يطمئن اليه أبدا . انه يضمر لي الحقد والضغينة . وقصتي معه طويلة ، يكتنفها الغموض والابهام، حتى صرت أتساءل هل يصح أن أسميها قصة ، وهي تتلخص في ما يلي : انه من ناحيته يضمر لي الحقد ، وأنا من ناحيتي أحتقره . المسألة اذن واضحة ، ولابد من ايجاد حل لها .

أما الاحجار ، فهو الذي ألقاها فوق السقف ، وأنا أعرف لماذا فعل ذلك .

اليوم الثالث : 22 يناير من الخمسينات

العقلاء من أهالي قريتنا لا يشعرونني صراحة بأني دخيل عليهم . وأنا لا أعني أبناء عمي من بيت آيت العربي ، فهؤلاء ليس فى وسعهم أن يتبرأوا مني .. وحتى لو فعلوا ، ما كنت لأكترث بهم ، لأنهم موصومون الى الابد بوصمة العار ، وأنا فى نظرهم تلك الوصمة .. لا أكترث بهم ولا بغيرهم ممن يقول اذا خلا بعضهم الى بعض :

« الحمد لله الذي جعلنا من أبناء القبائل وأنعم علينا بنعمة الاسلام ونجانا من الكفر » . انهم يتبجحون بكونهم من الشرفاء . أما أنا فلست فى زعمهم من أبناء الحسب والنسب .. ولكن أمثال مقران وغيره من المرابطين والمتزمتين ليسوا فى الحقيقة أفضل من غيرهم من الناس . أتذكر أنني فى احدى السنوات الماضية لم أؤد فريضة الصيام تحديا لهم ، غير انهم لم يقيموا لذلك أي اعتبار ، وأدركت فى الحين ان ذلك هو بالفعل ما يبحثون عنه وربما قالوا فى أنفسهم :

ـ ومتى كان أبناء الكفار يصومون ؟ ولو أنه صام ما كان صيامه ليقبل . ان شهر رمضان ما فرض الا علينا .

وقلت فى نفسي :

« سأريهم أنني أحسن منهم » ؛ وفى السنة الموالية توكلت على الله وصمت رمضان كغيري من الناس ، بل أحسن منهم ، لأنني كنت دائما عندما نتلاقى فى النادي ، خاوي البطن ، فارغ الذهن ، ناشف الريق ، بينما كان أمثالي من الشبان يفطرون خلسة ويتظاهرون أمام الناس بالصــوم . أما أنا فقد صمت مخلصا لله ، غير أنه لم يصدقني منهم أحد .

ومنذ ذلك الحين أفسدوا نيتي ولم أعد أصوم أبدا . وصرت أنا ومن اتبعني نشكل حزب الشيطــان ، ولا نقيم لهم أي وزن فيزيدهم ذلك كراهية لي أنا وحدي .. يا لهؤلاء المساكين ! انهم يظنون ان التــزمت الأعمى هو الذي سيخرجهم من الــذل والشقاء ... الذل والشقاء . انها نفس العبارات التي يرددها الشيوعيون ، ولكن ، هذه هي الحقيقة المرة . فبلادنا ليس فيها الا الشقاء والذل . أما الاول منهما فقد أصبح واضحا للعيان ولا ينكره أحد . وأما الثاني فلا يزال الكثير منا عنه غافلين . ولكن كيف السبيل الى شرحه لهم وما الفائدة من الشرح ؟

لقد عشت فى باريس ، ومما لا شك فيه أنني سأعود اليها ... الا اذا حدث مانع .. فنحن هناك لسنا غافلين عن واقع حالنا . انهم لا يمارسون معنا سياسة التمييز العنصري ، والمجال مفتوح أمامنا فى كل مكان .. ولكن أينما استقر بنا المقام فى فرنسا فنحن دائما أشقياء ومعذبون فى الارض . الناس هناك أشكال وأنواع ،

فمنهم الاغنياء والفقراء ، ومنهم اللصوص والمتسكعون ... أما نحن فلا ننتمي الى أية واحدة من هذه الفئات . اننا لا نستحي من واقع حالنا ما دمنا بالفعل معذبين فى الارض .

ومن الناس من ينظر الينا شزرا وما أكثرهم ! ونظرتهم تلك لا تخفى علينا ، فلا نملك معهم الا أن نتظاهر بالغباوة لتزداد نفوسهم غيظا . ومن الناس من يشفق ويعطف علينا . وهؤلاء يضيعون وقتهم معنا لأن عقولهم الضيقة لا يمكن أن تتفهم قضيتنا . وكم أتمنى أن أقول لهم :

« أنتم تشفقون علينا . أليس كذلك ؟ اسمحوا لي اذن بسؤال بسيط أيها السادة. لماذا تعطفون علينا نحن الجزائريين بالخصوص؟ أتراكم تشفقون علينا كما تشفقون على المساكين ممن لا مأوى لهم ، وعلى الأوباش من الناس ؟ ألا فلتعلموا أننا لسنا منهم . فنحن ننتمي الى فئة خاصة هي فئة المعذبين فى الارض ، ولا أحسبكم تهتمون بأمر هؤلاء . ولتعلموا أيضا أيها السادة أن المعذبين فى الارض بشر كسائر الناس . فلا تعتبرونا بينكم كالوباء الذي يجتاح مدينتكم العامرة . اننا بشر ولا نختلف فى شيء عن الايطاليين أو سكان منطقة بورجونيا أو سويسرا » .

وهكذا أدركت أن الذين يتظاهرون بأنهم يريدون لنا خيرا . يعتبروننا أحط خلق الله . واليهم أقول : « أنتم ترثون لحالتنا البائسة . ولكن لسنا فى حاجة الى شفقتكم المزيفة لأن شعوركم

تجاهنا ينبعث عن فكرة راسخة تثير الاشمئزاز . بل هي أشد وقعا على النفوس من القمع والارهاب » ..

كان أصحابي من ايغيل نزمان أو من غيرها من القرى يعتزون بي في فرنسا لأنني لا أنافق ولا أستحي من واقع حالي ، غير أننا صرنا نتعاطى جميع الموبقات من افطار في رمضان وشرب للخمر وأكل للحم الخنزير . لقد تحررنا من جميع القيود ما عدا حقد الفرنسيين علينا ، غير أننا لم نكن نكترث لذلك الحقد الا كما يكترث الانسان لقطرات المطر عندما تنزلق فوق معطفه الواقي .

وها أنا ذا قد عدت الى البلاد لأجد فيها قوما لا يرحبون بي . وعلى كل حال ، أستطيع هنا أن آخذ حريتي كما أشاء وما من أحد يتجاسر ليقول لي : « عد الى بلادك يا بيكو » (1) .

انهم لا يرحبون بي لسبب بسيط وهو أنني لا أعبأ بتقاليدهم وعاداتهم وطقوسهم التي يريدون أن أخضع لها . وفي جميع القرى ، سواء هنا في ايغيل نزمان أو في تاجمونت أو في تاووريرت ، في جميع هذه القرى أو في غيرها ، يوجد شبان مثلي لا يقيمون لها حسابا لأنهم ذاقوا الأمرين في فرنسا . وعندما رجعوا منها استفاقوا من غفلتهم وفهموا الأمور على حقيقتها . وليس هذا بالأمر السهل . وكم أتمنى لو أن أحد الفرنسيين من سكان باريس يجيء الى قريتنا ، فلا شك أنه سيدرك الأمور على حقيقتها

1 ــ بيكو : كلمة احتقار بالفرنسية . (المترجم) .

فى الحين لأن هذه الاشياء لا يمكن أن تخفى على أحد وخاصة على من تربى فى أحضان باريس ، ولأنه سيقارن بين حالتين وسينظر اليهما بعيون ليست عليها غشاوة . أما من أمضى شبابه فى هذه البلاد ولم يخرج منها الا بضع سنين فكيف تريد منه أن يفهم الأمور على حقيقتها ؟ وحينما أنظر الى هؤلاء القوم أتساءل : ألست فرنسيا من جهة الأم ؟ وهل يمكن لي بين عشية وضحاها أن أنسى ما تعلمته فى المدرسة مما أنجزته فرنسا من مشاريع فى التربية والقضاء والتقدم العلمي وغير ذلك من المظاهر الحضارية التي جعلتني أعجب بتفوق فرنسا ؟

على أنني عندما سمعت الناس فى فرنسا يقولون لي : « عد الى بلادك يا بيكو » ، عندئذ أدركت أن لي وطنا وأنني سأعتبر دائما أجنبيا فى غيره من الاوطان . وقد غفلت عن هذه الحقيقة الخفية عشرين سنة ، وحينما انتبهت من غفلتي صرت لا أطيق صبرا على بلادي ، وشعرت برغبة جامحة لزيارتها والتمتع بخيراتها والمشي فوق ترابها واستنشاق هوائها الساخن والتعرض لأشعة شمسها المحرقة والسير فى دروبها المغبرة والتهام فواكهها اللذيذة ومغازلة بناتها السمر .

وهكذا أخذت القطار الى مرسيليا ، ومنها ركبت على متن الباخرة الى الجزائر . وكأنني بأهالي مرسيليا يقولون لي فى لهجة ساخرة ماكرة : « رح الى بلادك يا ابن العرب » وتمثلت نفسي أرد عليهم وأنا أصعد فرحا مسرورا الى ظهر الباخرة : « أما كوني ابن عربي فهذا صحيح . ولكن ليست أمي عربية ،

وأنتم أيضا لستم فرنسيين الا من جهـة الأم لأنكم أحفـاد الفوسيين (1) ، ولتعلموا أن مدينة الجزائر أجمل من مرسيليا » .

وضحكت في قرارة نفسي ممن كانوا على ظهر الباخرة من أبناء المعمرين وبناتهم .. انهم يتصورون بعد أن قضوا عطلة الصيف في فرنسا أنهم الآن عائدون الى « بلادهم » . ورأيتهم يتباهون في غرفهم الفاخرة وفي قاعات الاستقبال وفوق السطح المحجوز لركاب الدرجة الاولى ، فسخرت منهم وقلت في نفسي : « أنتم مخطئون يا سادة ، فالبلاد التي تتوجهون اليها ليست بلادكم » . وحينما رأيت قمم جبال جرجرة الشامخة ترتسم في الصباح الباكر على الافق المحفوف بالضباب ، ولاحت مدينة الجزائر البيضاء كأنها جبل من الرخام ، غمرتني فرحة كبرى واقشعر بدني من التأثر وقلت في نفسي : « ماأجمل بلادي » . وتذكرت في تلك اللحظة أنني ، عند مغادرتي البلاد الى فرنسا ، وقبل رسو الباخرة في مرسيليا ، كنت محاذيا لأحد الفرنسيين المستوطنين بالجزائر ، فسمعته يقول لرفيقته وقد ظهرت عليه علامات الغبطة والسرور لمشاهدة فرنسا :

ـــ ها نحن قد وصلنا يا كريستيان ، وعما قليل سنضع أقدامنا فوق تربة فرنسا الطيبة . .

وفكرت في نفسي وأنا أغبطه : « ما أسعدك ! لك الحق أن تقول ان فرنسا هي بلادكم فادخلوها غانمين .. » .

---

1 ـــ الفوسيون : نسبة الى فوسا ، وهي مدينة في آسيا الصغرى ، والفوسيون هم الذين انشاوا مرسيليا . (المترجم) .

وتذكرت هذه الحادثة وأردت أن أنتقم لنفسي فدنوت من أحد الركاب . ولما حاذيته ، همست فى أذنه :

ــ منظر جميل .. أليس كذلك ؟

فرد بلهجة لا تخلو من الاحتقار :

ــ انه بالفعل منظر جميل ، ولكن المؤسف ان العرب فى تلك البلاد كثيرون ...

ولم يخطر بباله أنني أحدهم . وحينئذ أدركت أن مدينة الجزائر ليست لنا نحن العرب بل لهم . ولو خامرني أدنى شك فى هذه الحقيقة المرة لبدده الجمركي الذي لم يفتح أية حقيبة من حقائب الفرنسيين ، بينما فتش حقائب الركاب العرب كلهم . أما حقيبتي فقد سلمت من التفتيش لأن الجمركي حسبني فرنسيا ، ويا ليته لم يفعل فكأنه قد وجه لي بذلك سبة .

وفكرت فى نفسي :

« نحن قوم نعتز بأنفسنا ، وهذا ما جعل أبناء بلادي فى جميع العصور يفرون من السهول ويعتصمون بالجبال المنيعة ويتركون الأراضي الخصبة ويقيمون فى الغابات الكثيفة ذات التربة المليئة بالحصى والأحجار . اننا نعتز بأنفسنا وتتمسك بحريتنا ولا نكترث بالبؤس والشقاء ، ولهذا فانني لا أرضى عن ايغيل نزمان وغيرها من قرى بلادي ، لا أرضى عنها بديلا لأننا هناك نعيش فى جو عائلي ولا يوجد أحد من الفرنسيين ما عدا أمي ومعلم

المدرسة ، وهو حسبما سمعت شاب شيوعي النزعة وصل حديثا من فرنسا . »

ان هذه الخواطر جعلتني أتشوق لقريتنا . ولما وصلت وجدت أن أمورا كثيرة وقعت فيها : فقد مات قائد القبيلة وكان يتحكم في ما لا يقل عن عشرة من القرى ، كما توفي أمين قريتنا . لقد جدت أمور تدعو الى الاعتقاد بأن عهد الظلم قد انتهى ، اذ وقعت انتخابات واختار الناس بكل حرية أعضاء البلديات وشيوخها وتخلصت القرية من العملاء والجواسيس الذين كانوا رهن اشارة الحاكم الفرنسي .

ولكن يا للأسف الشديد ! فان هي الا أيام حتى أدركنا أن الاسماء وحدها تتغير ، وان الذين يتناوبون على الحكم أصبحوا عملاء للاستعمار وجواسيس يتصرف فيهم الحاكم كما يشاء . والغريب في الأمر أن الحاكم شاب لا يكبرني في السن الا قليلا . وقد تسلط على عباد الله وأعمل فيهم يد القمع والارهاب .

وهكذا فما كاد الأسبوع الأول ينقضي حتى مللت من ايغيل نزمان ومن أصدقائي ومن نفسي أيضا ... وكيف لا يمل الانسان من نفسه في هذه القرية التي يعتبر الناس فيها حلق الشوارب عارا ؟ الا أن الشيوخ أصحاب اللحى الطويلة لم يجرؤ أحد منهم عندما قابلتهم في النادي أن يشير الى هذا الأمر ، وتظاهروا بأنهم يرحبون بقدومي ، غير أنني لم أكترث بهم ، فكنت تراني بين المقهى والنادي أغدو وأروح حاسر الرأس أنيقا في بدلتي المثيرة

للاعجاب ، أتطلع الى الفتيات وأتبادل معهن النظرات ... أما أصدقائي فقد ظلوا كلهم أوفياء لعهد الصداقة ما عدا المتزوجين منهم . ولا أدري لماذا أخذ هؤلاء يجتنبون لقائي ، وخاصة أنني اعتزلت السياسة .

وبينما كنت أصادف من الناس هذه المعاملة ، كنت يا أمـاه تصادفين نجاحا كبيرا بين النساء . فقد سمعت أن البعض منهن قدمن اليك عروضا مغرية ، الا انك كنت ترفضين وتختارين فتاة حسناء لابنك العزيز . وعندما أمازحك في الموضوع وأقول لك بأنني لا أريد أن أرتبط في هذه البلاد بمسؤوليات عائلية كنت تنكرين المساعي التي تقومين بها من أجلي وتقولين بأنني على صواب ، الا أن الظروف تحتم علينا أن نؤسس بيتا حتى ننعم بالراحة والهناء . وأنا الغبي : تركت نفسي للظروف تفعل بي ما تشاء .. ولا أدري هل كنت سأتزوج أو أظل أعزب لو لم تصابي بالمرض الذي أودى بحياتك وفرق بيننا الى الأبد ..

***

كم بقي لي من أحباب في هذه الحياة بعد أن فارقتني أمي ؟ لا أحد ... سوى ذهبية بطبيعة الحال . لم يعد هناك مجال للتراجع معها لأنها تعجبني ، ويبدو انها تبادلني الاعجاب . ولقد كانت معي في منتهى اللطف في هذه الأيام الأخيرة ، ولكنني رأيتهـا حزينة في هذا الصباح ، كئيبة بشكل يبعث على القلق . هذه البنت حيرتني ، وزيادة على هذا فهي فتاة معقدة جدا . ومع ذلك فأنا أعرف سبب حزنها : لعلها تقول في نفسها ، بأنني أصبحت مشغول الذهن بمصيبتي ونسيتها تماما ولا أحبها ... والا ، فماذا

يمنعني من أن أبتسم في وجهها وأن أنظر اليها نظـرة العطف والمودة ؟ ولا أظنها تعتقد بأنني هجرتها ولكن الشيء المؤكد هو انها مهمومة ... يا لها من فتاة ساذجة ! لقد تركت على عتبة داري ورقة صغيرة تمثل قلبا اخترقه سهم ، فأين تعلمت الملعونة هذه الأشياء ؟ ووضعت الورقة في جيبي وأحسست بها تبعث شيئا من الدفء في نفسي ، وعزمت أن أداعبها من وجناتها لكي أراها تحمر كالوردة الناعمة .. دعنا الآن من هذه المسائل الصنبيانية .. فأنا في هذا المساء أتمنى أن أسمع صوت أمي وهي تحدثنـي وترشدني وتوجه الي نصائحها الثمينة ، وما أحوجني الى صوتها الحنون في هذه الحالة التي أنا فيها . ولكن ، أنى لها أن تتكلم وقد خرجت من هذه الدنيا الى الأبد !

ان كل ما يصدر عن أبناء البشر من تصرفات ما هي الا أمور صبيانية ، وبالتالي فان العداوة بيني وبين مقران ما هي الا من عبث الصبيان ... لابد من أن أنسى هذا الشخص . وكم سيكون مسرورا لو يعرف أنني أفكر فيه ، وأقيم له وزنا وأنه أصبح يشغل بالي . الا أنه يعرف بأنني أعتبره من أتفه الناس وأقلهم شأنا وهذا ما يعذبه وينغص عليه الحياة ليل نهار .

لقد حطمته باحتقاري له وتجاهلي لما يضمره لي من الحقد الدفين . وأنا من هذه الناحية راض عن نفسي لأنني وقفت معه موقف الرجال . ولاشك أنه يقيم لي ألف حساب ، ولكن ، يجب علي أن أحتاط وألازم جانب الحذر ، وكأني به يستجمع قوته ويكشر عن أنيابه .

وفي الواقع لست منزعجا مما فعله عندما ألقى الأحجار على سقف بيتي وكسر أربعة قراميد . وقد أتيت في هذا الصباح باثنين من أصحابي وصعدنا الى السقف لتصليح العطب فقضينا الوقت في المزاح ، واغتنمت الفرصة فلوحت بيدي بحركة سريعة مختلسة الى ذهبية التي مرت في الطريق وقد حملت على ظهرها الجرة ، ورأيتها تدخل الى الدار وكأنها لم تبصر من الأمر شيئا . أما مقران فأنا متأكد أنه يراقبنا من بعيد ويتأسف على ما بدر منه من حماقـــة .

وأنا أيضا قمت بحماقة ندمت عليها لو ينفع الندم ، وهي أنني البارحة ضربت مقران ... ما كان ينبغي أن أفعل ذلك ، غير أنني لم أتمالك معه . وقد اتفقت كلمة الناس على أنه استحق ذلك التأديب ، وعبر لي الكثير منهم عن تأييدهم لما فعلت ... تصوروا يا ناس أنني ، بعد ما أودعت أمي في التراب ، وبعد ما قضيت ليلة فظيعة في التفكير وتسجيل الخواطر ، وبعد ما عانيت من العذاب ما عانيته ، اذا بي أقع على مقران وهو يتشدق أمام الناس ويعطيهم دروسا في الأخلاق ... وتصوروا يا عباد الله ما هو موضوع حديثه . كان يتكلم عني وعن المرحومة أمي ويقول لهم بأن صلاة الجنازة لا تصح على أمي لأنها رومية ، وأنا أيضـــا رومي ، وان شيوخ المرابطين أخطأوا حينما حضروا في الجنازة ، واستنكر هذه البادرة منهم واعتبرها عارا .

حينما وقفت أمامه اصفر وجهه وأدركت في الحين أنني لن أسيطر على أعصابي ، ولن يكون في مقدور أحد أن يمنعني من

أن أهشم أنفه الأفطس وأن أقطع لسانه الطويل وأن أمسك به من تلابيبه . وبالفعل ارتميت عليه ، ولم يتدخل أحد بيننا ليفرقنا ، ولم أتركه الا بعد أن شفيت منه غليلي . وحينئذ نهض من الارض وأمسك في يده سكينا ، الا أنني لم أعبأ به وبصقت في وجهه ، ثم مضى به بعض الحاضرين الى داره ، ربما ليغسل وجهه ويغير ملابسه . ومضيت أنا الى المقهى غالبا لا مغلوبا اذ لم تصبني منه ولا لكمة واحدة ، بل ولا خدشة صغيرة . لقد أدبته كما ينبغي .

وعلى اثر ذلك قال لي أحد رفاقي :

ــ رأته زوجته واقعا على الأرض ، ولن يغفر لك ذلك أبدا .

فأجبته :

ــ أنا على العكس ، مسرور من كونها رأته على الأرض ، ولكن هذا لا يغير من الأمر شيئا لأنها تعرفه وتعرف انه يساوي الصفر .

هذا ما فعلته وأنا بدوري متأسف على ما بدر مني . ولعله خرج من بيته في حوالي منتصف الليل وجاء بكل أمان ليقذف الأحجار فوق سقف الدار . ان هذا لا يعد عملا بطوليا ، ولكن لابد من أن أحترس بعد اليوم منه ... ورفيقي لم يخطيء حينما حذرني منه ، ونبهني الى أنه لن ينسى أبدا كيف أوقعته على الأرض عندما كانت زوجته مارة بالطريق . وعلى كل حال ليكن ما يكون ، ويكفي أنني برهنت له بأنني فتى أصيل من فتيان ايغيل نزمان ولست كما يدعي ابن حرام ولا دخيلا على البلد ... يا له من حقير !

اليوم الرابع : 23 يناير من لخمسينات

بدأت أفهم نوايا ننه مالحة : انها تريد ، بما تكنه لي من عطف وحنان ، أن تعاملني كأنني أحد أبنائها . وقد أخذ الجيران يفكرون بأنها نصبت لي فخا ، وأنه لابد أن أقع فيه . وأنا أعتقد ، نظرا الى حالتي التعسة ، أنها تنصب الفخ لابنتها ذهبية . ما أغربها من مغامرة ! لم يعد بالامكان أن أتملص منها ، بل أنا موافق بكل فرح وسرور على مشروعها . وقد غمرتني السعادة عندما قمت في هذا الصباح ، فوجدتني قد نسيت كل ما حدث لي ، وصرت لا أفكر في شيء . وما الفائدة من التفكير ، كما كانت أمي تقول ؟ صرت لا أفكر ولا أكترث الا لما وقع لي في هذا اليوم ، ولتطورات هذا الحدث الهام في حياتي ... وما عدا ذلك فلا يهمني في شيء .

وهكذا بادرتني ننه مالحة بقولها :

ــ يا عميروش .. نحن اخوان في الدين والدنيا .. ونحن جيران وأقارب .. أرأيت ماذا سيقول الناس لو أنني أتخلى عنك وأفرط فيك ؟ أنا امرأة وأنت رجل ، وما بيننا الا الخير . أستطيع أن أوقد لك النار وأكنس لك البيت وأهيىء لك الخبز . وهذه

بنت عمك ، وأنا أيضا في امكانك أن تعتبرني كعمتك ، فما رأيك في الموضوع ؟

ـ شكرا جزيلا يا ننه مالحة . ولكن يجب علي أن أدبر أموري وحدي . وأنت تعرفين أنني أكتفي بالقليل وأقنع بما عندي .

ـ أنا عارفة ... ولكن ، ماذا سيقول الناس ؟

ـ تلك هي المشكلة بالضبط : ماذا سيقول الناس عني وعن ابنتك ؟

ـ لن يجدوا في ذلك أي بأس يا عميروش . سيفهمون بأنه من الطبيعي أن نساعدك قليلا .

ـ ولكن ما هو الحل بالنسبة لابنتك يا ننه مالحة ؟

ـ نسد آذاننا ، وأنت أيضا تسد أذنيك .

ـ طيب ، اذن نسد آذاننا .

ليتها تعرف بأنني لا أعبأ بأقاويل الناس . واذا خطر ببال أحدهم أن يتحدث عنا بالسوء فسيرى كيف يكون رد الفعل مني . ولكن المشكلة هي أن الأمور أخذت تتطور بسرعة فائقة نحو النتيجة الحتمية ، لأنني أحب ذهبية ، ما في ذلك شك ، فلا ينبغي اذن أن أكون سببا في شقائها ... ويبدو لي أننا نحن الثلاثة نلعب بالنار ، ولا يعلم الا الله ماذا ستكون النتيجة . وليس معنى هذا أنني أشعر سلفا بتأنيب الضمير ، كلا ! بل سأترك الأمور تسير في مجراها الطبيعي . وقد بدأت المسألة منذ بضعة أشهر ، ولم يعد هناك مجال للأسف والتحسر بعد أن تطورت الامور الى ما هي

عليه . ولم أقدم على هذا العمل فى حالة من الاضطراب . بل بالعكس لأنني أشعر فى قرارة نفسي أنه آن الأوان لتقرير مصيري ، وأتخيل النهاية كما كنت أتمناها ، وستتحقق لا محالة ، وعندئذ سأتغلب على جميع الصعوبات وسأذلل جميع العقبات ... وما كادت هذه الفكرة تشرق فى ذهني حتى استعدت عزيمتي ونسيت مصابي وآلامي وأبعدت عن فكري شبح الموت ولم أعد أقيم أي حساب للمشاكل التي تقلق الناس وتنغص عليهم الحياة وتجعلهم يفكرون فيها ليل نهار لعلهم يهتدون الى حل .

ألا يجدر بي عوضا من أن أعذب نفسي بالتفكير فى هذه المشاكل التي هي فوق طاقتي ، ألا يجدر بي أن أعنى بذهبية ؟ أليس من الأفضل أن أعيش بالقرب منها ، لكي أتبادل معهـ الحديث وأقاسمها الطعام وأدعوها لزيارتي فى الدار ؟

ان هذه الأفكار وغيرها مما يتصل بها قد أصبحت تراودني ليل نهار ، ففكري مشغول وخيالي منطلق وأنا جد مسرور .. واذا شئت الحقيقة ، فأنا لا أحب ذهبية وانما أشعر نحوها برغبة، ولذلك فينبغي أن أحتاط كي لا أتورط معها الى الأبد فى قصة حب ، كما أنني لن أتقيد معها بأي اعتبار من الاعتبارات السخيفة لأنني على كل حال لست مسؤولا عما يمكن أن يحدث ما دامت مالحة هي التي عرضت علي المساعدة . ولعلها حسبت حسابها كما يفعل جميع الناس عندنا . فسيخيب اذن أملها وتغتاظ كما يغتاظ غيرها من الناس حين تخيب آمالهم وتبطل حساباتهم .

أنا مدرك تماما قصدها : فهي تعتقد أن ذهبية ما خلقت الا لي . وأنا ما خلقت الا لها ؛ وأن الأقدار التي قربت بيننا في هذه المحنة ستجمع شملنا ذات يوم . الا أن المشكلة هي الاهتداء الى طريقة تتحقق بها أمنيتها . أما من جهتي فليس لدي مانع ، غير انني سأبحث الموضوع مع ذهبية نفسها ، ولي أمل قوي في أنها ستفهم وسترفض كل ما أرفضه اذ ليس من المعقول أن نقوم نحن أيضا بنفس الغلطة التي يقوم بها الآخرون ... قصدي أن أقول اننا لن نتزوج . ولن ننجب أطفالا لأننا نرفض هذه المعيشة التعسة ولا نرضى بالهوان ولأن المعيشة في ايغيل نزمان هي في حد ذاتها بلية وعقـــاب .

ما أحمق من يقدم على الزواج ! والشبان عندنا يرون انـــه بالفعل عسل في منتهى الحماقة ، ولكنك تجدهم بعد ذلك يفعلون مثلما كان يفعل آباؤهم . ولعلك توافقين يا ذهبية اننا لن نقوم بنفس تلك التجربة . ولهذا فستفشل جميع محاولات أمك ... وعما قريب ستتاح لنا فرص عديدة لتبادل الآراء ، ولذلك أجدني في هذا المساء مسرورا مرتاحا وسعيدا . بل تغلبت على الكآبة التي استولت علي . وتخلصت من الأفكار السوداء التي استبدت بفكري . ولعلك أدركت بانني لا أفتأ أناقض نفسي في كل حين كالمجنون الذي لا يسيطر على عقله ... انني متشبث بفكـــرة واحدة ، هي أنك ستوافقين على الذهاب معي الى أي مكان ؛ وأنك ستفعلين ذلك بدون أي تردد . اننا متعلقون بالحياة . رغم ما فيهـــا من تعـــاسة ، فلابد اذن من أن نتحـــايل عليهـــا للتخفيف من تلك التعاسة . وما لنا من حيلة سوى أن نترك لها

الحبل على الغارب ، وأن نقنع بما قد تجود به من سعادة في هذه القرية البائسة ، وأن لا نقيم لصروف الدهر أي حساب .

عندما وصلت من فرنسا منذ ستة أشهر ، لم أكن أعرف ذهبية . وقد جاءت الى الدار برفقة امها لتحمد لي سلامة الوصول ، فأصبت بدهشة كبرى لدى رؤيتها . وكنت على علم بأن ننه مالحة هي أيضا من بيت آيت العربي . وأنها بالتالي من الأقارب ، وكنت أسمع بها منذ أيام الطفولة : فقد تزوجت في قرية أخرى غير قريتنا ، وكنت يومئذ صغيرا ، ثم مات عنها زوجها ، فعـادت الأرملة الى مسقط رأسها ، وبصحبتها بنت ما كاد الناس يرونها حتى أخذوا يقولون بأنها لا تختلف في شيء عن بنات القرية .

أتذكر أنها قالت لذهبية :

ـــ قبلي رأس ولد عمك يا بنتي ... شاب وسيم كما ترين .. لك أن تفتخري بأولاد عمك يا بنتى ... ألم أكن دائما أقول لك افتخري بهم ؟

لقد صدقت ننه مالحة في قولها : فأنا فعلا وسيم الوجه ، ولكن لا أرى في ذلك ما يدعو الى الافتخار ، بل كثيرا ما سخطت في صغري على نفسي من هذه الوسامة ، لأن أطفال الجيران كانوا يشتمونني ويقولون بأنني أشبه البنات . وبطبيعة الحال ، تطور الأمر لصالحي فيما بعد ، لأنني أحرزت مع البنات كثيرا من النجاح ، ولولا أنني خجول لاستفدت من هذه الوسامة كما لم يستفد منها أحد من قبل .

ذاك باختصار هو عهد الطفولة ، وقد انقضى ولن يعود . ثم رجعت من فرنسا ، واذا بي أصبح أجمل مما كنت ، واذا بالأمهات يتقربن الى أمي بينما كانت الفتيات من ذوات العيون الجريئة يرسلن الي نظرات ولهى كلما قابلتهن فى الطريق ، مما يجعل الشبان يتميزون حسدا وغيظا ... غير أن أمي ليست ممن يتقن أساليب المراوغة والنفاق ، وعوضا من أن تستغل الظروف فقد خيبت آمال جميع الأمهات واحدة بعد الأخرى مؤكدة لهن بأنني لا أريد أن أتزوج ببنت من ايغيل نزمان .

وأعود للحديث عن ذهبية لأقول بأنها أعجبت بي ، كما أنني من جهتي أعجبت بها فى الحين . وأنا الآن أتمثل ذلك المشهد كيف جرى : فقد رأيت فتاة موردة الخدين محتشمة تتقدم الى الأمام وترفع يدها وتضعها على رأسي لكي تسيله قليلا وتقبله .

وارتبكت ذهبية فى أمرها فوضعت شفتيها على جبهتي عند منبت الشعر ، ثم أمسكت بدوري تلك اليد الناعمة حتى أقبلها وأحسست بها قد سرت فيها رجفة ، فانثنت الى الوراء لتختبيء وراء أمها . ورأيت نهديها قد ارتسما تحت عباءتها الصفراء أما أمها التي لم يغب عنها شيء من المشهد ، فقد لمحت فى نظراتها ما يدل على التشجيع كأنها تريد أن تقول لي :

ــ أرأيت أيها الغبي هذه الفتاة الغضة التي أتيت بها اليك هدية ؟ انظر اليها جيدا ، ألا ترى أنها لا تقل عنك جمالا ؟ لماذا تغض بصرك كأنك تستحي منها ؟ وهل يليق هذا بمن عاش فى باريس ؟

ثم خاطبتني بقولها :

ــ آيت واضو طردوني وها أنا قد رجعت ... فهل عرفتني حين رأيتني ، أم نسيت عمتك ننه مالحة ؟

ــ لا والله ،ما عرفتك ، بل نسيتك ..

فقالت أمي :

ــ تركته صغيرا جدا يا مالحة .. كوني عاقلة . فحتى أنا ما عرفتك الا بمشقة لأنك لم تعودي الى القرية ولا مرة بعد زواجك فى آيت واضو .

ــ انه على كل حال شيء مؤسف أن لا يعرفني ولدي عميروش . اسأل أمك كم حملتك على ظهري وأنت طفل صغير . أليس كذلك يا مدام ؟ وأنت الآن لا تتذكر من ذلك شيئا ، مع أنك كنت تحبني كثيرا . وأبوك دادا عامر حين مات لم يبك عليه أحد مثلما بكيت أنا عليه ... الله يرحم يمه كمومة ، الله يرحم تلك المرأة الصالحة . أتذكر أنني كنت أعاكسها دائما وما كانت هي تحبني .. ربما بسبب تصرفاتي معها .. لا تظنوا أن زواجي فى آيت واضو قد أنساني أحدا منكم ، بل كنت دائما أفكر فيكم جميعا : والدليل على ذلك أنني تركت آيت واضو وعدت اليكم . وكذلك الأمر بالنسبة للرجال . مهما طافوا فى الأقطار والبلدان ، فانهم دائما يعودون الى القرية ذات يوم . صدقني يا ولدي عامر ، صدقني اذا قلت لك ان جميع البلدان لا تعدل الوطن ... بلاد

الأجداد ومسرح الطفولة . فاذا وجد الانسان سائر الأبواب مغلقة أمامه فانه يقول فى نفسه :

« ما لي أقيم فى هذه الديار ؟ أليس لي وطن ؟ » ويعود الى بلاده معززا ومكرما فيرحب به الناس . هذه هي الحقيقة وكل ما قيل عني ان هو الا كذب وبهتان ... لقد جئت لأقضي بقية أيامي حيث نشأت وتربيت ، أليس هذا أمرا طبيعيا ؟

وبينما استغرقت ننه مالحة فى حديثها ، أخذت ذهبية تبتسم ابتسامة ناعمة بعد أن زال عنها الاضطراب ، وظهرت لي لطيفة الشكل بضفائر شعرها الطويل الذي خيل الي أنه مصبـــوغ بالصبغة ... لطيفة بعيونها النجلاء التي لم أستطع أن أعرف لونها فى ضياء النهار، بعد ما أخذ يتناقص داخل الغرفة. ولم أرد أن أركز عليها بصري لأن أمها كانت تراقبني كما لو أن قصدها الوحيد من تلك الزيارة هو تقديم بنتها الي حتى أتعرف عليها ، واثارة اعجابي ومعرفة رأيي فيها . وصممت من جهتي أن لا أفـــكر فيها أو على الاقل أن لا أظهر أي نوع من التأثر والاعجاب أمامها . ومن حسن الحظ ان أمي ما لبثت أن خلصتني من حالة الارتباك حينما أنهت زيارتها بطريقة مهذبة . ورأيت ذهبية تخرج وراء أمها ، فتراءت لي فتاة مشوقة القد بضة اللحم مكتنزة كأنهـا امرأة ناضجة مع شيء من علامات المكر ومن ملامح الطفولة فى وجهها . ترى كم عمرها ؟ انها والله جارة وسيمة ، فيا لها من مفاجأة لطيفـة .

وقلت لأمي متسائلا :

ـ من أين وفـدت اليناهاتان المرأتان ؟

ـ سمعت ذلك بنفسك : عادت الى القرية من غير أن تستأذن أحدا . لقد حدث لها ما حدث لمن يضيع فى فرنسا سنوات ، ثم يتذكر ذات يوم بأن له قرية فى البلاد فيزمع على الرحيل . غادرت القرية منذ عشرين سنة . انها امرأة ثرثارة وتتحدث بكل ما يخطر ببالها ، وبنتها أعقل منها . وفى الواقع ما كان ينبغي أن أتكلم عنها بالسوء ، لأنها شقية وهي تبذل ما فى وسعها حتى تخفف عن نفسها البؤس والشقاء ... لم تتغير مالحة منذ أن عرفتها ، فهي كالطائر الصغير اللطيف الذي لا يكترث لمصائب الدهر . ورغم كبر سنها وما ذاقته من المحن ، فهي لم تتغير . واذا صممت على فكرة فمن العبث أن تحاول اقناعها لأنها تظل دائما متمسكة بفكرتها . لقد وصلت الى القرية من سنة مضت فى وقت الصباح حامـــلة كل ما تملك فى هذه الدنيا من متاع على حمار . وما كادت تحط الرحال حتى سمع بقدومها القاصي والداني ... وقد اصطحبت معها بنتها التي ظلت ساكتة لا ترد على سؤال ، ولكنها كانت رائعة الجمال رغم لباسها البسيط . وكان معها أيضا رجل مسن لا نعرفه ، قصير القامة ، نحيل الجسم ، معقود اللسان كتلك البنت الصغيرة. وقد اتجهوا الى بيتنا مباشرة فأفرغ الشيخ حمولة الدابة من غير أن ينبس ببنت شفة ، ثم عاد فى الحين من حيث أتى .

وبعد ما توارى الشيخ عن الأنظار وانعطف به الطريق فى أعلى الزقاق ، نظرت مالحة الي فجأة وقالت لي :

ـ ها نحن الآن فى دارنا ، ولابد يا مدام أن أقبلك مرة ثانية وبعد ذلك سأحدثك بكل شيء مما وقع لي .

وقبلتني ، فحذت حذوها ذهبية فى الحين . أما أخبارها فلم تستعجل فى الكشف عنها ، بل أطلعتني عليها تدريجيا ، مصحوبة بالدموع تارة وبالضحكات تارة أخرى وبالدموع والضحكات معا فى أغلب الاحيان :

ـ لعلك لم تسمع بما حدث لي يا مدام . طبعا ما سمعت بشيء . لقد أصبحت مثلك أرملة ، ولكن حالتي أسوء لأن لك ولدا بينما أنا لي بنت . أين ولدك يا مدام ؟ لعله صار رجلا .

ـ سافر الى فرنسا .

ـ الله يكون فى عونه . وحينما يعود باذن الله سيجدني قد عدت أنا أيضا ... مات والد ذهبية فلم نجد من حل سوى أن نرحل ، لأنه لم يترك لنا شيئا من المال ولم يمد أحد الينا يد المساعدة هناك ، فرفعت رأسي اعتزازا بنفسي وقلت لبنتي : « أنا من بيت آيت العربي من ايغيل نزمان . ألا تعرفين من هم آيت العربي ؟ انهم رجال كالأسود ؛ وايغيل نزمان ألا تعرفينه ؟ انه مسقط رأسي » ولا تظني يا مدام اني تذللت لأحد منهم .. اسألي ذهبية ماذا أسمعتهم من كلام قبل مغادرة قريتهم . هل

تذكرين يا ذهبية كيف كان موقف أعمامك في آيت واضو ؟ كانوا يصرخون في وجهي :

ــ تنازلنا لك عن بنت الحرام هذه ... خذيها معك ... تخلينا لك عنها ...

وبطبيعة الحال أخذتها معي . لقد أرادوا في أول الامر أن أترك لهم بنتي أو (بنت الحرام) ــ على حد تعبيرهم ــ فيا لهم من قوم لا شرف لهم ! لو بقيت ذهبية عندهم لجعلوا منها خادمة . ومن هم أهالي آيت واضو يا ترى ..؟ شرذمة من المرتدين الكفار . كنا نحن أيضا نذهب الى كنيستهم في بعض الأحيان ، ولكن من أجل والد ذهبية .. مالك تنظرين الي كأنني قلت ما لا يجوز أن يقال ؟ أنت يا بنتي لا تعرفين مدام ، انها ممن يؤتمن على السر . وعلى كل حال فلا يزال أمامنا وقت واسع وسأقول لك كل شيء يا مدام وهذا واجبي ...

هكذا نزلت عندنا بدون أن تشعر بأي حرج كما لو أن ضيافتها واجب مفروغ منه . غير أنني لم أنزعج أبدا من وجودها معي في الدار . فقد كانت البنت تخاف مني فلا أسمع لها صوتا طوال النهار ، كما أنها في منتهى اللطف . أما أمها فكنت أتسلى بالاستماع الى حديثها الذي لا ينفد ، وكانت صحبتها تنسيني طول غيابك في فرنسا . وبعد مدة من الزمان اكترى لهما عمك حسين الدار الصغيرة التي هم فيها الآن ، ولعلك تعرف عمك حسين ، فليس ممن يفرط في أقاربه ولا يرضى أن يرى أحدا

منهم بدون مأوى . ومن يدري فلربما كان يظن في قرارة نفسه انها جلبت معها تركة كبيرة من المال ، وانها قد تستشيره في الامر ، وقد تكون في حاجة الى وكيل . وها هي ذي الآن تقيم هنا مع بنتها .. هؤلاء يابني هم جيراننا ، فمن يا ترى يرحب بهما ان لم نكن نحن ؟

بهذه الصورة عرفت قصة لنه مالحة . عرفتها على شكل سلسلة من الفكاهات وعلى هوى المصادفة : مما أسمعه من أمي تارة ، أو منها تارة أخرى أو من أحد أبناء آيت العربي في بعض الاحيان .. عرفت أولا أن زوجها كان مسيحيا مرتدا ، وأنه يوجد في تلك المنطقة من آيت واضو حيث تزوجت ، يوجد هناك ارسالية من الآبـاء البيض والراهبات .وعـدد كبير من العائلات المسيحية المرتدة عن الاسلام . ونحن أبناء آيت العربي نعتبر أن الخروج عن دين الاسلام وصمة عار لحقت بنا ولذلك فلا نريد أن يلمح أحد الى موضوع زواج لنه مالحة ، وان كانت القرية كلها على علم بذلك . ومن المؤكد أن ذهبية مسيحية وأن لها اسما آخر نصرانيا . بل حالتها أدهى وأمر ، لأنها لم تنشأ على دين الاسلام أبدا . ولئن كنت متأسفا بعض الشيء على ذلك فأنا في الواقع أشعر بالسرور من أن يكون لها اسم آخر وسأحاول أن أكتشف هذا الاسم ...

والجدير بالذكر أنه لا يوجد عندنا في الواقع أي مسيحي بأتم معنى الكلمة . فجيراننا ــ وأقصد بهم ذهبيـة وأمهـا بالدرجة الاولى ــ لا يريدون أن يشذوا في شيء عن جماعـة

المسلمين ، فتجدهم يصومون رمضان ويحتفلـون باعيادنـا الدينية .. وأمي هي التي لفتت انتباهي لهذا الأمر وحدثتني عنه بكل بساطة كما لو كان أمرا عاديا . وأنا شخصيا لا أرى فى ذلك ما يدعو الى الاستغراب أو الاستنكار ، الا أن أهالي ايغيل نزمان لا يوافقون على هذا الرأي ، ومن هؤلاء أحد أبناء العم وهو من المتزمتين المتعصبين ، فقد قال لي ذات يوم ان نته مالحة ما جاءت الى هذه الدنيا الا لتكون وصمة عار للعائلة .

ــ هل تتذكر عمنا شعبان الذي مات حينما اجتاح وباء التيفوس البلاد ؟ والدها هو عمنا شعبان .

ــ نعم أتذكره .

ــ ان والد عاشور ــ وربما التقيت بهذا الأخير فى باريس ــ هو والد مالحة . فعاشور ومالحة اذن اخوة من آب واحد وان اختلفت آمهما . هل فهمت ؟

ــ فهمت .

ــ خلاصة القصة اذن هي ان شعبان تزوج بامرآة فولدت له بنتا هي مالحة ، وماتت أم مالحة فتزوج شعبان امرأة ثانيـة وأنجبت له صبيا اسمه عاشور . وكانت أم عاشور قاسية على ربيبتها مالحة .. وبقية القصة معروفة ، ويمكن لك أن تتصورها : زوجة لا تشفق ولا ترحم .. ضرب .. بؤس وشقاء .. بنت مهملة تقضي النهار كله فى الزقاق أو فى الحقول وراء الماعز والأغنام .. بنت تعاشر الصبيان ، متمردة ، وتنمو بسرعة ، وتتخاصم مع

الأولاد وتعمل أظافرها الحادة فى وجوه أترابها من البنات وتشبع الرجال والنساء سبا وشتما ... كانت بلية ومصيبة كبرى على بيت آيت العربي . وذات يوم أدركت الزوجة أن ربيبتها لم تعد عذراء . ولعل الرعاة هم الذين قاموا بذلك العمل الشنيع .. يا لها من مصيبة على العائلة ! الحل الوحيد هو قتلها خفية ، ولكن والدها شعبان لم يعد يستطيع أن يخضعها لارادته . وحينما كانت صبية كان هو وزوجته يشبعانها ضربا وتعذيبا . أما الآن فقد كشرت عن أنيابها وصارت تتحداهما وتهددهما بالفضيحة . ولم يجد أبناء العم مجالا للتدخل لأن والدها لا يزال على قيد الحياة ، غير أننا كنا راغبين فى التخلص منها فى أقرب وقت .

وحينما تقدم أحد أبناء آيت واضو ليخطبها كنا نعرف جميعا من هو ذلك الشخص كما كنا نعرف أنه سيأخذها معه الى مكان بعيد عن ايغيل نزمان . وتنفسنا الصعداء ... فقد وجدنا فرصة للتخلص منها الى الأبد ، ولم يعارض أحد لأننا وجدنا أنفسنا أمام حلين : فاما أن تصبح عاهرة ، أو مسيحية ، فاخترنا الحل الثاني ولم يعد أحد يذكرها منذ أن تزوجت .

ــ نسيتموها ولكنها هي لم تنس أن لها أقارب هنا ...

ــ للأسف الشديد .

يبدو أننا نحن أبناء آيت العربي لا نريد أن نعرف شيئا عن الحياة التي عاشتها فى قرية آيت واضو . وكل واحد منا يستطيع أن يتصور بأنها حياة ليست مشرفة للعائلة وأنه من المستحسن آن

تبقى سرا مجهولا في ايغيل نزمان ... أما أنا شخصيا فانني أحاول دائما أن أتخلص من الافكار المسبقة ؛ ولذلك يهمني أن أعرف المزيد من المعلومات عنها لعلي أجد لننه مالحة عذرا لسلوكها السيء .. ومن يدري فربما سأعثر لها على خصال حميدة .
وأنا لا أشك مطلقا أن مالحة امرأة متمسكة بمبادئها ، وان كانت مبادىء خاصة بها ، ولذلك فأنا أحبها كثيرا . ومن المؤسف أن طريقتها في الكشف عن ماضيها لا تساعد على معرفة أنماط الحياة في آيت واضو معرفة دقيقة . وكلما فتحت لها باب الموضوع فانها تتهرب من الجواب وتقول بأن ذلك الماضي أصبح معروفا لدى الجميع وما من حاجة للكشف عن وقائعه وأحداثه مرة أخرى .. ولشدة غموضها كنت أحيانا لا أفهم قصدها ، فاذا سألتها أراها تتضاحك وتغير الموضوع أو تتظاهر بأنها لم تفهم السؤال فتجيب على أسئلة أخرى لا تهمني .

ومن جملة ما عرفته منها أن ذهبية كانت تلميذة في مدرسة الراهبات . ولكن مالحة أبت أن تطلعني على مزيد من التفاصيل، وسألتها : هل تنصرت ذهبية ؟ وهل سميت باسم مسيحي ؟ فأجابتني :

ــ أنت ، ولا شك ، تعلم بأنها لم تتنصر .

وأدركت أن الالحاح في هذا الموضوع لا يجدي فتيلا . وكل ما أعرفه أن مالحة وذهبية تحافظان على السر وتريدان أن ينسى الناس ذلك الماضي ، ولكن هيهات ؛ لأن الناس في ايغيل نزمان لا ينسون .

يخيل لي أحيانا أن مالحة تعتقد بأنني الضالة المنشودة من أجل اعادة المياه الى مجاريها : فأنا مسلم ، ولكني مع ذلك ابن امرأة أوربية ، وبما أن أمي مسيحية بالولادة ، فليس من المعقول أن نجد مالعا فى مسألة الزواج . هذا هو رأي نته مالحة . أما أمي فما كانت أبدا تلح علي فى موضوع الزواج ، لأن ذلك ليس من طبعها .. على أنني الآن أصبحت وحيدا فى هذه الحياة .. وربما وقع فى روع مالحة أن المسألة صارت هينة وأن مساعيها ستكلل حتما بالنجاح . وبالفعل ، فقد بدأت الأقاويل تنتشر ، وأخذ الناس يترقبون النتيجة . والمسألة واضحة كل الوضوح : ان مالحة الأرملة تستعد لتقوم مقام المرحومة أمي ، وتسعى لكي أتزوج من ذهبيـــة ، وسـكون سعـــداء وسننجب كثيرا من الاطفال ...

أما أنا فلم أجد من سبيل أمام هذه الخطة سوى أن أتظاهر بالغباوة . لو شئت أن أتنكر لأصلي لاستجبت للاغراء .. لا لكي أنشيء أسرة وأنجب أطفالا ، وان كنت فى قرارة نفسي أرغب فى ذلك .. بل لكي أتمتع بالحياة الزوجية وأعيش حياة هانئة مع امرأة هي لي وحدي . وعندما أفكر قليلا أجد أن الزواج ليس شرا . وكثيرا ما غبطت المتزوجين الذين وجدوا السعادة فى زواجهم . وأنا لا أتصور المتزوجين الا سعداء لأن العلاقات اذا ساءت بين الزوج والزوجة فلا يبقى هناك للزواج من معنى . والناس اذ يرون مظاهر السعادة على وجوه المتزوجين يرغبون فى تقليدهم ويبعدون عن أذهانهم جميع المشاكل التي يمكن أن

تنشأ بعد الزواج ، من سوء تفاهم وملل وتضايق من الحالة الزوجية وتحسر على ما فات ، ولا يملك الانسان حينئذ الا أن يقول :

« تزوج فلان ، فلماذا لا أتزوج أنا أيضا ! » وما دام الأمر كذلك ، فاني أتساءل بدوري :

« لماذا لا أتزوج من ذهبية ؟ »

انها فتاة بيضاء ناصعة البياض، زرقاء العينين عميقة النظرة رشيقة القوام فكأنها زهرة غضة نبتت في الظل ولم تمسها أشعة الشمس. انها فتاة لا يريدها أحد لأنها ليست من قريتنا ولأن هذه المسكينة نشأت على دين المسيح . أما الذين يتلهفون عليها بنظراتهم حين تمر أمامهم .. فانهم يريدون أن يبقوها معهم لمدة يوم أو ليلة ، ولكن لا الى الابد . أما ذهبية فهي تريد شخصا يبقيها معه الى الأبد ، ولا يعني هذا أنها ترضى بأول رجل يتقدم ليخطبها ، فهي فتاة عاقلة ، بينما أنا مثال للحماقة والطيش ..

لا أنكر أن المساعي الاولى للتقرب منها كانت من جانبي ، والشيء الذي جذبني اليها عيناها : انهما من العيون التي تسحر الالباب والعقول .. ومنذ بداية التعارف سمعتها تهمس في أذني بنظراتها :

« لعلك تراني بريئة ساذجة ، فلا تنخدع بذلك لأنني لست مغفلة .. أريد أن أحب وخلقت للحب ونفسي متعطشة للحب .. أرجوك يا عميروش أن تفهم حقيقة أمري وأن لا تحرمني من

وجهك الملائكي .. وأنا أتذكر ملاكا يشبهك ورأيته على لوحة فى كنيسة آيت واضو .. وبدلته رمادية وحول رأسه هالة كأنها عمامة . وله أجنحة غريبة ما عرفت لها مثيلا .. رأيته يحلق فوق الرؤوس ، ورفع المؤمنون أبصارهم وأخذوا ينظرون اليه خاشعين ، فأمال رأسه اليهم كأنه أراد أن يتخلص من هالته وأجنحته وأن ينزل من ملكوت السماء ليكون بينهم بشرا سويا .. وارتسم على وجهه الجد والوقار وشيء من الحزن والكآبة ورفت على شفتيه ابتسامة تأنس لها النفس . وحينما رأيتك يا عميروش قلت فى نفسي : ها هو ملاكي ، لقد نزل الى الأرض ولحق بي حيث أقيم فى ايغيل نزمان » .

لابد أن أعترف أنا أيضا أنني غيرت نظرتي الى ذهبية .. فهي لم تعد صبية صغيرة ولم أعد أعتبرها صبية ، وكنا لا نتبادل الكلام الا لماما ، وكنت أحيانا اذا خرجت من البيت أراها على عتبة الدار وأصادفها فى الزقاق فتنظر الي وأنظر اليها وأمضي فى سبيلي ولا يتجاوز الامر هذا الحد أبدا . وكانت فى بعض الاحيان تهمس تحية مختلسة فيتورد وجهها حياء ، وأرد عليها بنفس الطريقة ... وذات مساء اغتاظت مني . فقد تقابلنا فى الزقاق لوحدنا ولربما صدرت مني اشارة غير عادية ، ولكن بدون أي قصد معين ، فقالت لي بصوت أجش وقد تغيرت ملامح وجهها :

ــ ماذا تريد ؟

ــ أنا ؟ .. لا شيء ..

ـ لا تحسب أني كغيري من البنات .. هل سمعت ؟

ـ طيب ... سمعت .

وانهزمت مخذولا . غير انها ظلت لمدة أسبوع تلاحقني . كانت ترقبني حيثما أسير، وتوقفني في الطريق وتقول لي بصوت يتميز غيظا :

ـ ماذا كنت تريد ؟.. يا الله .. قل .

فأنظر اليها متجهما وأنصرف في حال سبيلي بدون أن أجيب ... الا أنها شوشت عقلي الى درجة أنني كنت أترقب بخوف شديد متى أرى أمها قادمة لتشتكي الى أمي . وقلت في نفسي ان علاقتي معها قد انتهت ، غير أنني كنت مخطئا اذ أن أمها لم تسمع من الامر شيئا . ماذا كانت تريد مني اذن ؟ مفاهمة ..؟

وبدأت أفقد السيطرة على أعصابي وقررت أن أغتنم أول فرصة لأتفاهم معها بكل صراحة . وذات ليلة من الليالي المقمرة وجدت نفسي أمامها وجها لوجه أمام باب دارنا ، وكنت عائدا من النادي . وبينما أنا أمد يدي لادفع الباب اذا بي أراها قد خرجت من حيث لا أدري كأنها جنية . وانتابني غيظ شديد فأخذتها بين ذراعي بعنف وضممتها حتى كدت أخنق أنفاسها وحاولت أن ألثم ثغرها ، غير أنها استطاعت أن تفلت من قبضتي . فصفعتني وتوارت عن الانظار .. أهذه هي المفاهمة التي كانت تريدها مني ؟

هذه الحادثة لم تقع الا من مدة قصيرة . وما كادت بضعة أيام تمضي على ذلك حتى مرضت أمي .

أما الآن وقد أودعناها التراب وصار الأسى يملأ جوانحي ، لم يبق لي الا أن أتشبث بذهبية . ان خيالها لا يفتأ يرتسم أمام عيني مبتسما تارة وعابسا تارة أخرى ، ويحاول أن يحجب عني وجه أمي الرزين .. ان طعم شفتيها اللتين لم أستطع أن ألثمهما لايزال يرف على شفتي ، وكلما عادت بي الذكرى الى تلك اللحظة أحس على خدي بالحرارة التي سرت فيه بعدما صفعتني .

أتذكر الآن أنها لم تقل لي أبدا انني أشبه ملاكا ، بل لنه مالخة هي التي قالت لأمي فى الايام الاولى من رجوعي من فرنسا منذ ستة أشهر تقريبا :

ـ ذهبية معها الحق يا مدام ، فبالفعل توجد صورة فى كنيسة آيت واضو وتمثل ملاكا يشبه عميروش . اسألي ذهبية فهي التي لاحظت ذلك ..

وأخذت لنه مالحة تصف اللوحة بكثير من التفاصيل : بينما كانت أمي تبتسم ..

اليوم الخامس : 24 يناير : من الخمسينات

خرجت من دار ننه مالحة منذ لحظات ، ولا أحس الآن بالرغبة فى النوم لأنه لابد أن أسجل كل شيء قبل أن تنطفيء حرارة مشاعري . مسكينة أنت يا ذهبية ... لعلك تعتقدين أنني سأراك الليلة فى أحلامي وسأكون معك فى أحلامك أنت أيضا . أما أنا فلن يكحل النوم أجفاني الا اذا وقعت من التعب والاعياء على الحصيرة أمام صندوقي وأوراقي . ولا يخفى عليك يا عزيزتي أن تلك الاحلام الجميلة ستتحول فى مثل هذه الحالة الى كابوس مخيف .

استقبلتني ننه مالحة وذهبية استقبالا حارا ، ولم أخبيء عنهما سروري بذلك ، أولا على سبيل المجاملة ، وثانيا لأن الترحيب كان بالفعل حارا .. ننه مالحة امرأة طيبة كريمة وان كانت مغرورة بنفسها وحمقاء بعض الشيء ، وهي مستعدة للتضحية بكل شيء حتى تبرهن لضيفها بأنها تحبه ، وتحبه كثيرا ، فلا يسع الضيف أمام تلك العواطف الفياضة الا أن يتأثر . أما ذهبية فقد ادركت أن الشيء الذي يهمها مني ليس هو الكلام ، بل هو الاقبال على الاكل والطعام ، لذلك أكلت كثيرا حتى شبعت .

وقد سرهما ذلك أيما سرور خاصة حينما قلت لهما بأن الطعام أعجبني . وقدم لي الاكل في صحن كبير مزين بأزهار حمراء . وتناولت غرفيتين كبيرتين من الكسكسي الابيض . وكانت ننه مالحة دائبة الحركة في الحجرة الصغيرة ، فهي تارة تخرج الى الباحة لتأتي بالمرق أو الماء أو بأحد مواعين الطبخ أو بقطعة من الخشب ، وتارة أخرى تنشغل من حولنا لكيلا ينقصنا شيء . وجلست ذهبية بالقرب من الكانون ولزمت مكانها ذلك ، وقد أدارت لي ظهرها . وحينما ذهبت أمها الى باحة الدار التفتت الي قليلا وناولتني منشفة كانت قد وضعتها على ركبتها . الا أنني لم أغتنم فرصة انفرادنا فوضعت المنشفة بجنبي وقلت لها شكرا بالفرنسية وتحاشيت العبارة التقليدية المعقدة الطويلة .. وقصدي من ذلك أيضا أن أمازحها وأن أشعرها بأنني أريد أن أسمعها تتحدث بالفرنسية . وانتظرت الى أن رجعت أمها فطلبت منهما أن يأكلا معي من نفس الصحن :

ـ لن أنزعج أبدا اذا أكلتما معي .. بالعكس سأكون مسرورا .

ـ لا يا عميروش ، نحن معنا وقت واسع وسنأكل فيما بعد .

ـ وأنت يا ذهبية ، ألا تريدين ؟ لا تسمعي كلام أمك ، وساكون مسرورا اذا أخذت حريتك معي .

ـ لا تمازحها بهذه الطريقة يا عميروش ، فهي التي أعدت الكسكسي ويكفيها أن تؤكد لها أن الطعام أعجبك ...

وتطلعت ذهبية الي وجها لوجه وهي تبتسم ابتسامة جريئة ، ثم قالت لي بلهجة فرنسية لا أستطيع وصفها :

ـ خذ حذرك يا ابن العم ، فقد وضعت لك السحر في الطعام .

واحمر وجهي من الدهشة وصرت أقول : « غريب.. غريب.. » وأنا أبحث عبثا عن جواب ينم عن روح الفكاهة أو على الاقل عن كلمة مناسبة ، غير أن ذهبية صدت عني بوجهها وأخذت تذكي النار في الموقد ، بينما كانت ننه مالحة تضحك من حيرتي وارتباكي ..

ـ ألا تعرف يا عامر انها تجيد الفرنسية ؟ لا تعاكسها اذن لأنها لا تحب من يعاكسها .

أما أنا فعلى العكس تماما أحب ذلك لأننا عندئذ سنتفاهم بكل صراحة ، وهذا موضوع سنبحث فيه فيما بعد ، ولو تتاح لي الفرصة لحدثت ذهبية بالفرنسية أو بالامازيغية ، وان كنت أفضل الفرنسية .. أريد أن أحدثها طويلا .. ليل نهار ، وأن أشرح لها أفكاري وأن أتبادل معها الرأي . وما من شك أن ذلك في منفعة لنا جميعا ، ولو فعلنا ذلك لما عذبت نفسي بالتفكير في كل هذه الامور التي يفيض بها قلبي ويضج بها رأسي ولا أجد وسيلة للتعبير عنها سوى بالافضاء بما أحس ، وبالاستماع الى كلامها ، ولا شك أننا سنتفاهم في آخر الامر ، لو تتاح لنا الفرصة .

ها أنا ذا قد وضعت أمامي هذه الاوراق ، وأجدني قد نسيت المهم وضيعت كل ما يجول في ذهني من أفكار ، وأصبحت

عاجزا عن تنفيس غضبي ، لأن القلم لا يطاوعني .. يا الهي ، ما أعجزني عن التعبير !

ولو شئت أن أعبر عن اللحظات السعيدة التي قضيتها مع ذهبية وعن الذكريات التي خلفتها في نفسي لما وجدت أية صعوبة ، ولكن هذا ليس هو الموضوع ، لأن تلك اللحظات أصبحت شغلي الشاغل . اننا في هذه الدنيا نعيش كالحيوانات ونموت كما تموت البهائم ... الحياة قاسية ، وليس لنا من سلاح الا البكاء بدموع العاجزين المحقورين .. هذا هو الموضوع الذي ينبغي أن أتحدث عنه ، لا عن تلك القصة الغرامية التافهة التي يقع فيها جميع الناس بصورة محتومة . ويا ليتني أستطيع أن أتحكم في عواطفي وأسيطر عليها حتى أتمكن من التعبير عن أفكاري ! ولكن عقلي لا يتمخض عن شيء ، فما أبلدني وما أبلد ذهبية !

أحس برغبة شديدة لقضاء هذه الليلة معها ... ومن يدري فلعها هي أيضا راغبة في ذلك ؟ ولكن أليس من العيب أن أفكر في هذه الأمور ؟ ألا يجدر بي أن أبحث عن شيء آخر لقضاء الوقت ؟

من جملة ما لاحظته أن الشاي قدم لي في كوب كبير مشقوق ، وليس له يد أمسكه منها ، وأن الملعقة من فضة ، ولكنها عتيقة لأن قفاها قد اصفر تماما .. والصحن كذلك عتيق وسميك جدا ، ومن النوع الذي لم يعد يستعمل . ولعل مالحة عندها ثلاثة أو أربعة منها ، وقد لاحظت في الحين أنها أخرجت أحسن ما لديها من المواعين تكريما لي . غير أنني لم أكترث لذلك ، بل شعرت بحزن

عميق : فلا شيء يبعث فى نفسي الحزن كالانسان الذي يستـــر فقر حاله لا عن حياء ، بل لانه مغرور ولا يريد أن يعرف أحد أنه يعيش فى البؤس والشقاء . وقد تكلفت ننه مالحة أكثر ممـــا تطيق وأرادت أن تدهشني وقدمت لي المنشفة ، الا أنني استغنيت عنها . وقدمت لي أيضا الشوكة .. لألتقط بها قطعة صغيرة جدا من اللحم . أما الفواكه ، فهي عبارة عن برتقالة واحدة ... مسكينة أنت يا ذهبية ... تمنيت لو أنك أعفيت أمك من كـــل هـــذه السخافات ، فما أنا ممن يعبأ بالمظاهر الزائفة . وحينما أتذكر الآن ذلك أشعر بالعطف والشفقة عليهما لأنهما عرفتا أن هناك أمورا كثيرة ناقصة فى الدار فحاولتا تداركها ولكن بدون جدوى . وأنا فى الواقع لا أتأثر بهذه المظاهر بل أراها من الاشياء التي تدعو الى السخرية ، ولعلهما ظنتا أنني أنزعج من الجلوس على الارض لتناول الطعام بسبب السروال الافرنجي ، غير أنني عودت نفسي منذ آن عدت من فرنسا على جلسة ملائمة ، فأمد رجلي علـــى الحصيرة وأقرب الصحن من جنبي الأيمن وآكل بهذه الطريقة فى راحة تامة ، فما كان ينبغي اذن آن يبسطا الزربية العتيقة مطوية على ثمانية لاجلس عليها ، وأن يضعا فوقها وسادة لأستند عليها . وبما أنه لا توجد مائدة،لذلك كان صحن الكسكسي محطوطا فوق القصعة الخشبية الكبرى المقلوبة على الارض ، بحيث أن الصحن وضع بين رجلي المنفرجتين على جانبي القصعة المدورة . وبينما أنا أوطن نفسي على الصبر فى هذه الوضعية غير المريحـــة ، اذا بمالحة تقول :

ـ هل أنت مرتاح هكذا ؟

ـ نعم ... وفي الواقع ان جميع وسائل الراحة عندكم موفرة ، فهذا كرسي ، وتلك مائدة ، الى غير ذلك من الأشياء الأخرى ... فشكرا على ما صنعت يا ننه مالحة . ولكن ينقص النبيذ ...

ـ أي والله...ولكن ما كنت أحسب أنك تشرب الخمر . معك حق على كل حال ، وأنا غير مغتاظة من طلبك هذا . فالنبيذ هو الذي جعل وجوه الفرنسيين حمراء لأنه يقوي الدم .

وبعد تناول الطعام دعتني ننه مالحة لغسل يدي . يا لها من امرأة مدهشة ! انها لم تنس شيئا . وهكذا غسلت يدي من نفس الابريق الذي كنت قد شربت منه . وما كان علي الا أن أغير جلستي لأجد نفسي قريبا من الباب ، وهناك توجد المغسلة ، وهي متصلة بقناة صغيرة تمر تحت العتبة لتصريف مياه الدار . ومددت يدي فألقت فيها مالحة صابونة ثم تركت الماء يسيل من الابريق . وأخذت أحك يدي بقوة بينما هي تصب الماء من الاناء الذي أمسكت به من يده حتى يبقى مائلا . وبما أنه لا يوجد طست فقد استعيض عنه بصحن من الفخار لتجميع الماء المصبن . وأردت أن أزيح الصحن ، غير أن مالحة زعمت أن القناة مسدودة وشعرت بحرج كبير حينما رأيت الماء الذي يسيل من يدي متعكرا جدا ويكاد يكون أسود اللون . ولحسن الحظ كانت ذهبية قد صدت وجهها ، ولكن أعتقد انها لاحظت ذلك فشعرت هي أيضا بالحرج . وأخيرا مسحت يدي بالمنشفة لأنني لم أستعملها وقت

الاكل ، وحينئذ قالت لي ننه مالحة وقد آشرق وجهها : « صحة لك » فأحسست بالرغبة في آن أعبر لها عن شكري على ما كلفتها من آتعاب :

وقبل أن أنصرف ، اقتربت من الحائط وتفحصت صورتين قد بهت لونهما قليلا وكنت قد رآيتهما حينما كنت جالسا ... واندهشت لما رأيته . فالصورة مؤثرة حقا وهي تشل ذهبية . وقد ألصقتها على الجدار بدبوستين صدئتين . وتوجد بجانبها صورة امرأة شابة ولعلها مقصوصة من احدى المجلات المصورة التي حصلت عليها بطريقة ما . وتطلعت اليهما واذا الملامح اللطيفة المرتسمة على الوجهين المصفرين من الدخان اذا بها واحدة . والابتسامة التي ترف على شفتيهما واحدة . والنظرة المندهشة التي تلمع في عيونهما واحدة أيضا . ان الشبه بينهما يلفت الانتباه، فكل منهما لطيفة للغاية . وبينما أنا أتطلع الى الصورتين اذا بذهبية وأمها تقتربان وتقفان من ورائي .

لم آلق عليهما أي سؤال وانما نظرت طويلا الى ذهبية ومططت شفتي كمن يريد أن يصفر من شدة الاعجاب . الا أن الصفير لم يسمع له صوت ، وخيل لي حينذاك آن وجهها احمر من الخجل كما احمر وجهي ، وسمعت ننه مالحة تهمس من خلفي :

ـــ الفرنسية بشعرها المجعد .. كم هي مليحة .

وبدون أن أدري أجبتها :

ـــ ذهبية أيضا مليحة .

ثم انصرفت مضطربا بعض الشيء عارفا أن هذه الكلمـــة ستسرهما لأنهما لم تتوقعا من عميروش الخجول أن تصدر عنه تلك العبارة من الاعجـــاب .

أما الآن فها أنا قد عدت الى أوراقي لأكتب قصة حياتي ، أي أنني سأتحدث عن الماضي بشكل خاص ، ذلك الماضي الذي اشمأزت منه نفسي الى درجة أنني فقدت كل أمل فى المستقبل . وأنا أتساءل أحيانا : هل سأجد السعادة مع ذهبية ؟ وهل أنا قادر على أن أضمن لها السعادة ؟ اني أشك في ذلك ، وكل ما فى الأمر اذن أن نفسي قد ارتاحت لقربها وانشغلت بالتفكير فيها واشتاقت لوصالها . وأنا على يقين بأنها هي أيضا مشتاقة لذلك الوصال .

ولكن الى متى سأتقيد معها بالاعتبارات السخيفة ؟

أخاف ان لم أكف عن السهر المتواصل ، أن أفقد عقلي . ولو كنت أقرأ فى النهار ما أكتبه فى ليالي السهاد لكان من المؤكد أن أصاب بالجنون .

يظن البعض أن عميروش لم يعد يعرف للراحة طعما لأنه غير راض عن نصيبه من هذه الحياة ، فيترفقون به ويرثون لحاله ، خاصة وأن أباه مات عنه قبل أن يعرفه ، وها هي ذي أمه قد توفيت هي الأخرى ... لا يا ناس ، أنتم مخطئون . لست ساخطا على نصيبي من هذه الحياة بل على أصلي لأنه كان من الممكن أن لا أولد فى هذا البلد المغضوب عليه . ولو أنني ولدت فى فرنسا

وقضيت حياتي هناك وعشت كما يعيش أكثر الناس لما أنكرتَ من أمري شيئا حين أبلغ الخامسة والعشرين من العمر . سأكون رجلا فى وسط الملايين من الناس ، وسأعرف السعادة أو الشقاء ، ولكن المهم أنني سأكون انسانا كغيري من البشر . أنا ساخط على أمي التي جعلت مني أحد أفراد هذه القرية حتى صرت متعلقا بهذا الوطن ، بينما كانت تستطيع لو شاءت أن تغادر البلاد وأن تربيني فى فرنسا وأن تسلمني لمركز رعاية الأطفال أو تفعل بي ما يخطر لها بالبال .

مضى شطر كبير من الليل وأنا لا ازال أهذي كالمجنون ومع ذلك فلست أبالغ فى كلامي : لو انني خيرت لما كنت فى هذه الساعة ما أنا عليه . لا أدري لماذا أنا من أبناء القبائل ، ولماذا كتب علينا آن نكون نحن المعذبين فى الارض لا غيرنا من الناس .. لعل أجدادنا هم الذين أرادوا لنا الشقاء . ولئن كانوا أشقياء فذلك أمر طبيعي فى زمانهم . أما اليوم فلا أجد لذلك مبررا . ولا يسعنا الا أن ندعو لهم بالويل والثبور على ما خلفوه لنا من تعاسة . ولا شك أنهم يستهزئون منا عندما يشاهدون ما نحن عليه من محنة وشقاء .

أنا ساخط على نفسي ، لأنه كان فيه مجال للاختيار بالنسبة لقضيتي . كان هناك انسان يستطيع أن يختار نيابة عني . ولكنه لم يفعل . ولكن ما فات مات ، ولم أعد أستطيع أن أتنكر لأصلي ، بل أنا لا أرضى عنه بديلا مهما كلف الأمر . وعندما

أفكر في الموضوع أريد أن أقف أمام الناس وأن أقول لهم : « لست أقل منكم قدرا ولا أدنى منكم منزلة يا ناس ، ولعلكم لا تقرون بذلك ، ولكن سيأتي يوم تعرفون فيه من أنا » .

هذا الكلام بطبيعة الحال لا يغني من الأمر شيئا ، لأنني سأظل كما كنت : بائسا شقيا . وقد كنت في وقت من الأوقات أؤمن بأفكار جعلتني صاحب عزيمة قوية ودفعتني الى الطموح حتى صرت أؤمل أن أحقق لنفسي السعادة . ومن يدري ، فلعلي كنت سأحقق تلك الامنية الغالية لو تربيت في مكان آخر ، ولم تكن أمي فرنسية، ولم تكن جدتي هي كمومة.. أما الآن، فكلما عدت الى الماضي أشعر بالأسف والحسرة ويبدو لي المستقبل أكثر سوادا من ظلمات الليل وأراه مغطى بستار غليظ وبألوف من السجوف السميكة التي ليس من ورائها سوى السراب .

أصارحك يا أماه بأنني كنت محروما .. محروما من كل ما لذ وطاب ، من الثياب الجميلة ، ومن حنان الأبوة . وقد بقي لي من ذلك في نفسي فراغ هائل لا أستطيع أن أملاه . ومن سيعوض لي الآمال التي لم تتحقق والمطامح الصغيرة التي لم أبح بها لأحد والاحلام الساذجة التي كنت أخبئها في قلبي ؟

هذه الأمور لم تكن تخفى على أمي . الا أنها لم تعرها أي اهتمام ولم تفعل شيئا لمساعدتي . انها لم توفر لي من نعيم الحياة سوى تلك المعيشة الصعبة التي يعيشها الأطفال عندنا . أما الطعام فهو الكسكسي والخبز ، وأما الأيام فنقضيها في النادي

والمدرسة ، في المخاصمة والسب وجمع أعقاب السجاير والتسكع في الحقول مع الصبيان ، وليس لنا من رقيب على ما نفعل . فاذا أخطأ أحدنا ترى الكبار حينئذ يشبعونه ضربا . لقد اضطررت منذ الصبا أن أدبر شؤوني لوحدي ، فاذا أصبت بمرض فليس لي من حيلة سوى أن أنتظر الشفاء بدون أية معالجة ، وأن أتحمل الداء كأنه عيب من العيوب البدنية . وأخذت أنتظر بكل ما أوتيت من صبر متى أصبح قويا .

حينما كنت صبيا تنكرت لتقاليدنا وتمردت على أهالينا وقيمنا الاخلاقية ، الى أن كبرت فصرت أقدر هذه الامور حق قدرها . وأخيرا وجدت نفسي مضطرا لأن أتعلق بهذه القطعة الصغيرة المنسية من الارض ، الى أن أدركت ذات يوم أنها لا تستحق أن يتعلق بها الانسان .

أليس من المعجزة اذن أن أرضى بالمعيشة التي عاشها آبائي في ايغيل نزمان وأن أنشأ كما ينشأ أبناء تلك القرية ؟

انه شيء سخيف حقا أن يمضي الانسان زهرة أيامه هنا . وها أنا الآن أحس برأسي ثقيلا من النعاس حتى صرت أهذي كالمجنون .



اليوم السادس : 25 يناير من الخمسينات

حينما فتحت الباب في هذا الصباح وجدت الأرض مغطاة بالثلج ، وأدركت أنه ظل يتساقط شطرا كبيرا من الليل لأن الطبقة التي تراكمت سميكة . ولم أفطن له عندما أخذ يتساقط في الليل، الا أن البرد أيقظني من النوم .. أحس بوجع شديد في ظهري ، ولا بد لي من الاعتراف بواقع حالي ذات يوم : فقد تملكتني نوبة من السعال لمدة ربع ساعة بعدما دخنت أول سيجارة ، وما من شك اذن أن صدري مريض ، فأنا أحس به قد تمزق ... وعندما سمعتني نته مالحة أسعل هرعت الى دارنا لتشعل الكانون وقالت لـي :

ــ ابق في فراشك يا ولدي وخذ حريتك معنا . وقد جئت لتدفئة الدار . أما القهوة فسأحضرها لك عما قليل . وعندما آتيت كانت ذهبية تعدها .

من جملة الأمور التي اتفقت عليها مع مالحة هي ايقاد النار واعداد القهوة والقيام بشؤون المنزل ، وكأني بها تريد أن تحيطني برعايتها . وهذا موقف لا أحبه لأنني لست ــ خلافا لما تتوهم ــ

« ولدها الصغير » بل أنا الكبير وأنت الصغيرة يا مالحة ، ولكنني للأسف محتاج لمثل هذه الرعاية لكي أجد من يحميني من الثلج والبرد والافكار السوداء .

خرجت لأتفرج على الأرض المكسوة بالثلج .. سأمتع نفسي بمنظرها طوال النهار .. الدار حزينة وكأنها ملفوفة في أكفان بيضاء .. ويخيم عليها جو من الوحشة والكآبة . وأغلقت الباب ومررت في طريقي على ذهبية فسلمت عليها وتركت عندها المفتاح، الا أنني لم أستطع ان أراها لأن الدار مظلمة ولأن الدخان أعمى بصري .

الناس عندنا يكرهون الثلج . وهذا ما جعلني احبه لأنني أعترف له بفضل كبير ، وهو أنه يخبيء مرة في السنة بشاعة ايغيل نزمان ويسترها عن أعين الناظرين لمدة أيام . فالحفر والأحجار الناتئة تختفي في الازقة ، وسقوف المنازل تلبس حلة بهية وتتخذ أشكالا هندسية منتظمة وتكتسي لونـا أبيض ناصع البياض وصفاء لا تكدره يد انسان .

أحب الثلج الذي لم تطأه الأقدام ... وهذا ما دعاني للخروج في هذا الصباح . وصادفت في طريقي الى المقهى بعض الصحاب فاستقبلوني بوجوه عابسة بينما كنت اهم أن أمازحهم ، فقال لي أحدهم :

ــ لعلك في الطريق الى المقبرة . نحن نرافقك ..

ـ ولم الذهاب الى المقبرة ؟

ـ أنسيت أمك ؟ ..

أي والله ... بالفعل نسيت ، فما قمت الى حد الآن ببناء قبرها ، ومن الضروري أن نعجل فى ازاحة الثلج المتراكم فوق القبر حتى لا تتسرب المياه الى الداخل . وبدت علي علامات الارتباك ، ولكن أصحابي ظنوا أنني فى حيرة من أمري اذ لا أملك لوازم البناء : لا صفيحة من القصدير ولا قطعة من الفلين ولا بعض القصب لكي يوضع فوقها الطوب . فقالوا بصوت واحد :

ـ كن مرتاح البال ..

وهكذا عرض علي كل واحد منهم ما لديه من اللوازم ، وأخيرا اتفقنا على القصدير. ولزلنا الى تازروت لتنحية الثلج عن قبر أمي . لم يكن الثلج صلبا فأزحناه بأيدينا من غير أن تتبلل ، ولم تتسرب المياه الى الداخل .

ثم أشرقت أشعة شاحبة على المقبرة فأشاعت فيها جوا من البهجة ، ولمعت القبور كأنها المرايا الجديدة وتلألأ الضياء فوق جبال جرجرة الشامخة ، الا أن الثلج لم يسقط فى الأراضي المنخفضة فظهر نهر السباعو كانه محمر الجوانب ومتعكر اللون ، ورأينا السهول حزينة بعد أن مرت عليها ليلة من لبرد وخيم عليها جو من الكآبة. وسمعنا الأطفال، ونحن فى المقبرة،

يتصايحون من السرور ويتراشقون فى الطريق عند مدخل القرية بكرات من الثلج ؛ ووصلتنا أصوات النساء وقد هبطن مواكب الى العين وهن يحذرن الاطفال فى شيء من الجد والهزل معا حتى لا يكسروا جرارهن . وأخذ أصحابي يترامون بالثلج ولكن سرعان ما كفوا عن ذلك ؛ ثم حثثنا الخطى للرجوع الى الطريق على أمل أن نصادف سرب الفتيات من حينا ؛ وقد لبست كل واحدة منهن تريكو وجوارب من الصوف وأحذية ؛ ورأينا وجوها وسيمة وخدودا موردة من شدة البرد . وتقابلنا فى الطريق فتبادلنا الابتسامات ووقعت عيناي على عيني ذهبية من النظرة الاولى ، وهذا ما كنت اريده ؛ فاحمر وجهي ووجهها معا لأن البرد قارس ولاننا مسروران من ان نلتقي خارج الدار فى هذا المكان المغطى بالثلج الناصع البياض . ولم يفطن أصحابي لما جرى بيننا لأن النظرة كانت خاطفة ولأن الابتسامة التي تبادلناها لم تدم الا لحظة وجيزة . ولما مرت الفتيات التفتن الينا وقلن لنا من بعيد :

— امنعوا الاطفال من رمينا بالثلج .

ولم يوجهن الينا الكلام الا على سبيل المودة لأن الأطفال كانوا حينذاك قد ابتعدوا عنهن . وتكلمن بصوت واحد . غير أنني استطعت أن أميز صوت ذهبية ؛ وتلك طريقة لطيفة لتوجيه التحية لي . وما كدنا نسمع كلام الفتيات حتى هجمنا على عصابة الاطفال فاستقبلونا بوابل من كرات الثلج ورددنا عليهم بالمثل .

وحينما اتجهنا الى المقهى فكرت في نفسي بأنني سأتناول طعام الغداء على الساعة الثانية عشرة في دارها وسيكون لي مطلق الحرية في النظر الى وجهها الوسيم والتحدث معها حول مختلف الشؤون بمحضر أمها . وملأتني هذه الفكرة بالفرح والسرور ، وأنا قانع بهذا ولا أطمع لأن أختلي بها وجها لوجه ، ويكفيني منها إنها تكن لي الحب ، غير انني لا حظت بأنها هي أيضا تخشى من عواقب تلك الخلوة التي تتسناها معا لأنها قد تفسد حبنا وربما تجعله يتطور الى مالا تحمد عقباه ...

وفجأة ساءت الأحوال الجوية في حوالي منتصف النهار وأظلمت قاعة المقهى حتى اننا توقفنا عن اللعب بالورق ، وأوقد القهواجي مصباح البترول أمام المجمر وطلبنا من الناس الواقفين أمام باب المقهى أن يدخلوا ويجلسوا حتى يفسحوا لنا المجال للتفرج . وكما أن الطقس تغير فكذلك تغير الجو داخل المقهى : فالذين كانوا يتكلمون جهرا خفضوا أصواتهم ، والذين دخلوا أخذوا يلقون تحياتهم في همهمة لا تبين ، وينفضون برانيسهم قبل الجلوس في حركة عصبية سريعة . وخيل للحاضرين ان الكآبة قد خيمت على المقهى ، الا أن أمزجتهم هي التي تكدرت نتيجة لعصف الرياح . لقد سيطر على النفوس غيظ لا يعرفون له سببا وأخذ يتسرب اليهم كلما أحسوا بالبرد ينفذ اليهم رغم ما لبسوه من ثياب . ورأينا الثلج يتساقط حبيبات متراصة أمام العتبة فيتراكم على الأرض ، الا أن تلك الحبيبات لا ترى بالعين لأنها مستورة بالضباب الذي هبط من السماء . وسمعني الشيخ

العجوز بشير أتكلم . فشق طريقه الي فى وسط الناس وقال لي وقد وقف من ورائي :

ــ يا ابن عامر ، هل فكرت فى تغطية القبر ؟

وانشغلت عنه فقلت :

ــ نعم ، نعم ... أنا أوزع عليكم الورق .

ــ يا ابن عامر ، الله يرحم أمك .. أراك تلعب الورق .

ــ واحد ، اثنان ، ثلاثة ... سجل لي علامة يا صاحبي .

ــ اسمع لي يا عميروش ، انظر الى حالتي .. حالتي حالة الفأر .

ــ الفأر ؟ وما باله ؟

ــ يشكو من الجوع والبرد .

ــ يا قهواجي . هات قهوة ساخنة للشيخ بشير .

ــ الله يحفظك ويرعاك ... هل تعيرني سمعك ؟

وانشغلت عنه مرة أخرى ...

ــ اقطع وأعطني الورق .

ــ بارك الله فيك على القهوة ، وهل لديك برنوس قديم ؟ .. سيشفع لك فى الآخرة .

ـ يا مغفل ... أنسيت أن أمي هي التي ماتت لا أبي ؟..
كيف تطلب مني برنوسا ؟ هل تريد فستانا عتيقا ؟

ـ بارك الله فيك .. سأعطيه لبنتي . لقد عادت من الجزائر .

فقلت له بخشونـــة :

ـ وأنت بدورك لماذا لا تعطيني بنتك ؟

وقهقه رفاقي ضاحكين لهذه النكتة وطلبوا قهوة ثانية للشيخ بشير . وفى تلك اللحظة بالضبط أحسست بأعصابي تتوتـــر وأخذت أتململ فى مكاني من الغيظ وشعرت بالرغبة فى العض والضرب والصراخ كالمجنون ... ومن حسن الحظ أن مقران لم يكن موجودا فى المقهى والا لأمسكت بتلابيبه . غير أنني م لبثت أن تمالكت نفسي فرميت الورق وقمت للانصراف بينم كان رفاقي ينظرون الي فى دهشة واستغراب ... وسخطت على تقلبات الطقس وأسرعت الخطى فى الثلج وأنا أسمع ريح الشمال تئن فى أذني .. وميزت فى أنينها صوت الشيخ بشير كأنه نعاق الغراب ... وأدركت أن أملي فى قضاء يوم ممتع قد خاب وأنني أفسدت على نفسي مشاريع النهار وسأقضي الليل ساهرا لأسجل بعض الانطباعات السخيفة .

وذهبت الى منزل ننه مالحة مباشرة ، ولكن لم أجدها فى الدار وعرفت حينئذ أنني وقعت فى ورطة لأنني سأجد ذهبية لوحدها تترقب مجيئي بالقرب من الموقد . وكانت الريح لا تزال تعصف

والثلج لا يزال يتساقط والمنازل المجاورة قد خيم عليها صمت كئيب كما لو نزلت بها كارثة من كوارث الدهر فأهلكت ما فيها ومن فيها ... وبدون أن أدري خيل الي أنني دخلت فى مغارة تتلاطم فيها الأمواج وتعصف فيها الرياح ، ولعل السبب فى هذه التخيلات يعود الى ما نالني من التعب فى السهر او الى الحالة النفسية التي استولت علي بعد زيارتي للمقبرة ، أو الى ما شعرت به من الغضب الممزوج بشيء من القلق بعد ما تبدل الطقس ... أو الى هذه الأسباب جميعا . واحترت فى أمري فما كان مني الا أن أخذت أبكي قبل أن أتأكد هل ذهبية وحدها فى الدار أم هي مع أمها ؟.. ورأيت من خلال الدموع ، الدهشة التي ارتسمت على وجهها ، ولعلها دهشة ممزوجة بخيبة الأمل ، وشعرت فى الحين بالخزي ، وأدركت أنها لن تنظر الي بعد اليوم بعين التقدير لأنها لاشك فكرت فى نفسها :

ــ يا له من غبي ؛ أهكذا يترك مثل هذه الفرصة تفوته ؟

غير أني لم أكف عن البكاء .. انها الدموع الأولى التي ذرفتها عيناي منذ أربعة أيام ، وقد بقيت تلك الدموع حبيسة أمام أمي المحتضرة وأمام جثمانها البارد ، الى أن انهمرت من عيني بدون سبب معقول ، ولعلها وجدت منفذا فأخذت تنهمر بغزارة كما لو أن القطرة الأولى مربوطة بسائر القطرات الأخرى بخيط خفي لا يرى ، وأنه لابد لهذا الخيط من أن ينفلت كله حاملا معه كل ما احتبس من الدموع . وبكيت حتى ارتويت واذا بالغيظ يخف عني وبالكآبة تزول .

حينما دخلت وجدت ذهبية جالسة ، فاستدارت نحوي وأخذت تنظر الي وتذكي النار وذهنها مشغول . رأيتها في مكانها هناك وقد زمت شفتيها فبدا ثغرها صغيرا . أما أنا فوقفت خلف أحد مصراعي الباب بالقرب من الصور المصغرة ، وكان المصراع الثاني من الباب مغلقا بسبب عصف الرياح ، ولزمت الصمت ثم قالت لي :

ـ ستخفف الدموع من كربك .. ما كان ينبغي أن تذهب اليوم الى المقبرة .

فأجبتها بعد أن مسحت عيني :

ـ أين أمك ؟

ـ ذهبت الى العين . ستجد صعوبة في الرجوع بسبب الثلج . ولكن ، لا عليك ، فسأسرع للقائها .. يجب عليك الآن أن تتناول شيئا من الطعام . أما نحن فقد أكلنا . ظنت أمي أنها ستعود من العين بسرعة لكي تقدم لك الطعام بنفسها . ولعلها لا زالت تنتظر هناك الى أن ينقطع الثلج ..

ـ انتظري اذن الى أن تصل أمك .

ووضعت الطنجرة على النار في صمت وأشارت لي أن أتقدم للجلوس بالقرب من الكانون فقلت لها :

ـ تلك الصورة .. أريدها منك .

ـ نعم سأعطيها لك .. ولكن عندما تذهب الى فرنسا .

ـ لن أذهب الى فرنسا .

ــ بلى ، ستذهب الى باريس بعد الشتاء ولا ينبغي أن تبقى هنــا .

ــ وفى هذه الحالة سنذهب معا .

ــ اذا شئت سأرافقك .

ــ أنت متأكدة من كلامك ؟..

لا أدري كيف خطر ببالي أن اعرض عليها هذا الأمر ، ولم أكن فى الواقع أنوي سوى أن أمزح معهــا وأن أطلب منهــا المستحيل حتى تقابلني هي بالرفض فأغتنم فرصة ذلك الرفض لكي أستفزها . وتصرفت معها كأنني طفل صغير يتماثل للشفاء من مرض خطير ويريد أن يستغل مرضه ليطلب من والديــه المستحيل ، وأردت أنا أيضا أن أستفيد من حــالتي فمثلت أمامها ذلك الدور ... الا أنني وجدتها مستعدة لكــل شيء ، وعرفت منذ اللحظة الأولى أنني سأقترب منها لأمسكهــا بين ذراعي ولأضمها الى صدري بكل قواي وسأتوصل لا محالة الى لثم ثغرها ، غير أنني اردت أن أطيل مدة الانتظار وأن لا أصل الى مبتغاي الا بعد وقت طويل .

وأحسست برجلي مثلجتين من البرد فانحنيت لأفك سيور حذائي حتى أدنو من النار واجلس متكئا على المخدة بالقرب من الكانون ونويت أن أمسكها بين ذراعي فى تلك اللحظة ، ولا أظنها ستمانع .

وفى تلك اللحظة تماما دفعت نه مالحة الباب ودخلت وهي تلهث فكادت توقعني على الأرض . ونظرت اليها فاذا بها قد

حملت جرتها المغطاة بالثلج على ظهرها ووضعت على رأسها قلنسوة منزوعة من معطف عتيق . وكانت مبلولة بالماء تماما . وأسرعت ذهبية لتحمل عنها الجرة . وانقطعت أنا عن فك سيور حذائي ، بعدما عزمت أن أنصرف في الحين وأن أعود الى داري لأذكي النار كيلا تنطفيء ، وأحسست برغبة شديدة في أن أتدفأ لأنني شعرت بغصة في حلقي تكاد تخنق أنفاسي . وأدركت ننه مالحة قصدي فقالت لي :

ــ ماذا أراك تفعل ؟ لماذا تنصرف الآن ؟ ابق معنـــا واخلع عنك الحذاء ... هل تناول الطعام يابنتي ؟

ــ لا ... وكنا نزين فقد وصل من لحظة وجيزة والطنجرة على كل حال مخطوطة فوق النار .

ــ لا لزوم لتسخين الطعام .. أنا رائح دفئي نفسك يا ننه مالحة ونادنيي بعد حين . سأكون في داري عما قليل .

والآن بعد ما ذكرت أحداث هذه الصبيحة بجميع تفاصيلها آن الأوان لأستأنف قصتي من النقطة التي وقفت عندها البارحة . وفي الحقيقة ما كان ينبغي أن أطيل الحديث عن الحاضر لأنني لا أهتم الا بتسجيل أحداث الماضي . وعذري في ذلك أنني ربما كنت متمسكا بننه مالحة وحريصا على صداقة أصحابي ، مما سيجعلني في آخر الأمر أرضخ للواقع وأعيش الحياة التي قدرت لي في ايغيل نزمان . لقد تحتم علي أن أعيش هذه الحياة الشبيهة بالنبتة المريضة العميقة الجذور ، وأن لا أستبدل بها غيرهـا ،

ومع ذلك فمهما يقع من أمر لا بد لي من أن أصرح بكل شيء ، وليحدث بعد ذلك ما يحدث .

ثم ان هذه الفكرة أصبحت شغلي الشاغل منذ زمن بعيد . وأنا أتذكر تماما اليوم الذي شعرت فيه لأول مرة بأنني أملك زمام أمري ، أي أنني صرت أتحكم كما أشاء في نفسي وفي حياتي . أتذكر كيف كنا حينذاك أطفالا صغارا نتسلق الأشجار ، ونصعد الى قممها لنأخذ منها أعشاش الطيور ، وكنت أشطر من القرد في تسلق الأشجار . وفجأة خطرت ببالي هذه الفكرة ، خطرت ببالي وأنا واقف فوق أعلى شجرة الدردار على غصن من أغصانها مشرفا على الوادي ، بينما أخذت ثلاثة طيور بيضاء من الطيور الجارحة تحلق فوق رأسي بحثا عن فريسة . واعترتني نشوة من الحماس فصحت بأعلى صوتي :

ـ انظر الي يامقران ، انني سأقفز من هذا المكان ، نعم سأقفز .

ورفعت يدي عدة مرات واستنشقت الهواء بعمق كمن يريد بالفعل أن يقفز غير مكترث بما عسى أن يحدث بعد ذلك ، وشعرت بنفسي خفيفا سعيدا ومستعدا للذهاب الى بلد ساحر اكتشفته فجأة فأخذ يجذبني اليه بقوة لا تقهر . ولكم كان الأمر سهلا يومئذ لو أنني ألقيت بنفسي من أعلى الشجرة ... أما الآن ...

أما الآن فأنا أعرف أن الأفراح ، وجنة النعيم ، والسعادة موجودة في هذه الدنيا ، وأن الأتراح ، وجحيم البؤس والشقاء

موجودة هي كذلك في هذه الدنيا ، وأن المسألة بالنسبة لكل انسان مسألة نصيب ، فاما النعيم أو الجحيم ...

لن أنسى أبدا يوم فتحنا قبر جدي قاسي لنضع فيه جثمان أمي ، وكنت أنا المشرف على هذه العملية ، فأزحنا أولا الأحجار الفوقانية ثم أخذنا نحفر الى أن كشفنا عن الأحجار السفلى تحت متر مكعب على الأقل من التراب . وعندما رفعنا الأحجار التي تغطي الجدث أحسست بقلبي يخفق من التأثر ولكن لم أشعر بالخوف ، وقلت في نفسي :

ــ ها هو جدي نائم في رمسه مستريح البال كأنه دودة القز في عشها . وقد أودع في هذا المكان منذ أربعين سنة . أتراه يبعث حيا ليفلت من قبره ويطير كالفراشة ؟

كشفنا عن تلك الأحجار فخرج رفاقي من الحفرة ووقفوا بجنبي على حافتها وراح أحد الشيوخ من أبناء العم يرفع الحجارة الأولى وانطلق لسانه بالدعاء : « بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله » ونحن ننظر في قلق ما عسى أن يحدث وتتبع كل حركة من حركاته لكي نرى ما ينطوي عليه جوف القبر .

وأظن أن حالتنا النفسية كانت متشابهة وأننا تأثرنا للمنظر تأثرا كبيرا ... وأزاح الأحجار واحدة بعد الأخرى ، وعددها أربعة ، وأخذ يناولنا كل واحدة منها على حدة فنمسك بها باليدين معا ونضعها فوق الركام من التراب . وكلما فعلنا ذلك نلقي نظرة الى الداخل ، غير أننا لم نندهش لما رأيناه .

رأينا الهيكل العظمي كأنه لعبة من اللعب العتيقة المفككة الأوصال أو كأنه فريسة من الفرائس التي تتركها الذئاب فى الخلاء ... الجمجمة مستندة على القفا ، ومحاجر العيون فاغرة ، والفك الأسفل قد انفصل عن الجمجمة وانطبق على العنق ، والقفص الصدري انهارت قوائمه ؛ وما تبقى من الأضلاع انهار على جانبي العمود الفقري . أما الحوض وعظم الفخذ والساق فقد سلمت من البلى . والتقطنا العظام بمنتهى العناية حتى نفرغ الحفرة تماما ونفسح المكان لجثمان أمي . وتناولت بين يدي جمجمة جدي فظهرت لي كبيرة الحجم قاسية صلبة ، ولم أتجاسر أمام الناس أن أضع عليها شفتي ، غير أنني تأثرت جدا فلامستها برفق وحنان وتمنيت لو أنني أستطيع أن آخذها معي وأن أحتفظ بها عندي فى الدار لتكون دائما ماثلة أمام عيني كتماثيل الجدود وعظماء التاريخ ... ولكن هذا لا يجوز ومصيرها أن تعود ثانية الى القبر . وقد وضعناها فى كيس من نفس قماش الأكفان لأن العادة تقضي عندنا أن نضع فى كيس كل عظام الميت الأول ثم نعيدها الى القبر بالقرب من رأس الميت الجديد . وأخذت أفكر فى نفسي وأنا أمسك بين يدي تلك الجمجمة :

ـ سيأتي دوري ذات يوم وسأنتهي الى نفس المصير ، وعند ذاك أستريح . ولكن قبل أن يحين ذلك الوقت كم من آلام سأذوقها وكم من دموع ستذرفها عيناي ؟ ولمن أتألم ولمن أبكي كالجبان ؟ .. آه .. ليتني صرت كهذه الجمجمة لأنها حرة طليقة ولا تحفل بالدنيا وما فيها ومن فيها ولا تحس بشيء ولا تكترث لشي أبدا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اليوم السابع : 26 يناير من الخمسينات

فى هذه الليلة سأطفيء المصباح مبكرا ، وسأظل ساهرا وحدي فى الظلام بالقرب من المدفأة التي يتوقد فيها الجمر ، لأن الطقس بارد . لقد تراكم الثلج الذي لم ينقطع طيلة الليلة ، وحينما فتحت الباب فى الصباح رأيت كل شيء من حولي قد اكتسى حلة بيضاء كما لو أن قريتنا ملفوفة فى القطن . وظل الثلج يتساقط ، الا انه تناقص فى الشدة فلا تكاد تراه العين فى الضباب ، بل لا يكاد يميز الانسان على بعد خطوات منه معالم الاشياء وأطياف الكائنات . واعتراني حزن لا أعرف له كنها وشعرت به ينفذ الى أعماق نفسي مع زمهرير البرد الشديد ، وأحسست بجسمي ضعيفا خائر القوى ، عاجزا عن مقاومة ذلك الجو المكفهر الذي استقبلني بمجرد أن فتحت عيني ، وكأنه ينبعث من أشياء لا أستطيع ادراكها ، أو من مخلوقات تريد بي شرا ، أو من قوم يضمرون لي الحقد ... وأول ما لاحظته أن الباب الخارجي مفتوح ، وكنت قد أغلقته بنفسي عشية البارحة . وقد تراكم الثلج بين مصراعي الباب حتى نصف ارتفاعه ، وتطلعت الى ما بين الباب الخارجي والدار ، فلم أجد أي أثر ولم أر

سوى الثلج ، وقد انبسط كأنه فراش وثير . لم أجد أي أثر لوقع أقدام . ولا شك أن الباب قد فتح ليلا ، ولعل الشخص الذي فتحه دخل الى باحة الدار ودنا من قفل الباب وألقى من ثقبه نظرة الى الداخل . ومن يدري فلربما كنت حينذاك جالسا أمام صندوقي لأسجل هذه اليوميات السخيفة ..

أنا لا أنوي بأحد شرا ولذلك أنا متأكد أنه هو ، ولو كانت أمي لا تزال على قيد الحياة لقالت :

« ومن عساه يكون ؟ انه بالطبع مقران .. » .

لقد رأيت بعيني آثار نعاله المصنوعة من المطاط ، رأيتها مرتسمة فوق التربة المبلولة أمام سقيفة الدار . أي والله .. لقد اجترأ هذا الشخص علي ولابد من أن آخذ حذري . وصادفته في المقهى منذ حين واقفا بالقرب من المنضدة ، فركزت بصري على أحذيته العتيقة وعلمت من أصحابي أنه كان يسترق النظر الي كالجبان . وسرعان ما شرب كأس الشاي وخرج من المقهى على عجل . واقترب مني الصانع وربت على كتفي قائلا :

ـ أراك تخوف الزبائن يا بطل .

وتضاحك الحاضرون لهذه الكلمة . أما أنا فلا أخفي أنني وقعت في ارتباك ، لأن هذه الكلمة ستنتقل اليه في الحين ، وأكره شيء لدي أن ينشغل الناس بنا ... صحيح أنني أحتقره وأنه يضمر لي الحقد الدفين ؛ ولكن هذا الأمر بيني وبينه ، فما بالهم

يتدخلون فيما لا يعنيهم ؟ وأنا بودي أن لا أنشغل به لأنه يساوي الصفر عندي. ولم أقم له أبدا أي وزن . وبما أنه يعرف أنني أقوى منه ، فقد سولت له نفسه أن يستعمل هــذه الطريقــة الخسيسة وأن يخلف من ورائه آثارا تدل على مروره ليلا بالدار حتى يرهبني ويجعلني أعتقد بأنه شخص خطير . وهذه عادة قديمة درج عليها كل من ينتمي الى بيت آيت سليمان . فهم جبناء ، ونحن نعرفهم من عهد بعيد ، ومنهم من يتعاطى السرقة ليلا ومنهم شهود الزور ومنهم الجواسيس ... وما من أحد منهم الا وتجده متصفا باحدى هذه الصفات الذميمة ، وليس مقران ســوى أحدهــم .

عندما كنا صغارا ظل هذا الشخص الحقير مدة طويلة يبعث فى نفسي الرعب ، الى أن استطعت ذات يوم أن أتغلب عليه كما تغلبت على غيره من الأطفال ... ولكن كنت أهينه فيما بعد ، ومنذ أن دخلنا المدرسة الابتدائية أخذ يكرهني ، وأصر على كراهيته تلك الى حد اليوم وامتلأ قلبه بالحقد ، حقد العاجزين .. وليس فى ذلك ما يدعو الى الدهشة لأنني وسيم الوجه بينما هو قصير القامة ونحيل ؛ وأنا متفتح مــع الناس بينما هو خبيث السريرة ومنطو على نفسه ، وأنا دائما أعد بين الأوائل فى حين أنه بليد ومتخلف فى دراسته ؛ وأنا متمرد على التقاليد أما هو فما عرفته الا متعصبا يتقيد بالطقوس الدينية ويزور أضرحة الأولياء ويحترم شيوخ المرابطين على غرار ما يفعل جميع أقاربه . وأنــا

على يقين أنه في قرارة نفسه لا يعتبرني مسلما وانه شطب اسمي من قائمة المؤمنين بالله ، ولولا تعصبه لعرف ان وطننا واحد وأن إلهنا واحد ، ولكن لما رأيت الأمر كذلك تنازلت له عن حقي ، فليهنأ وحده بالدين والدنيا . وعندما ألفنا الخلية الشيوعية رفض أن ينضم الينا لأن الشيوعيين في نظره مسيحيون . وأخوه هو الذي وشى بنا الى القائد مما جعل السلطات تكافئه على وشاياته بتعيينه ناطورا وكاتبا للمركز البلدي في ايغيل نزمان . انهم قوم من أسفل عباد الله ؛ فكيف أخاف من أمثال هؤلاء الناس أو من مقران بالذات ؟ بل أنا في بعض الأحيان أشعر بالشفقة عليه ، ولكن ما العمل معه اذا كان قلبه يتقطر بالبغضاء ؟ وعلى سبيل المثال ، لما عدت من فرنسا منذ ستة أشهر ، ورجعت منها جديدا اذا صح التعبير ، أنيق الملبس ، مشرق الوجه ، كاد هذا الشخص أن يموت من الحسد . والدافع له الى هذا السلوك هو أن هذا الحيوان تزوج ... تزوج بفتاة هي من أجمل البنات في القرية ، وهذه الفتاة أتيح لي عدة مرات أن أراها وأن أتعرض لها في الطريق فأعجبت بها حتى انها أصبحت تبادلني الاعجاب . وأنا لا أستطيع أن أصف النظرة الشزراء المحملة بالغضب والبغضاء والحقد التي رماني بها عندما صادفته لأول مرة في الطريق برفقة زوجته ، وقلت في نفسي :

ـ لقد وجدت اليك منفذا يا هذا ، وسأجنن عقلك .

من الناس من يقول بأنني لا أقيم أي اعتبار للقيم والمبادىء ... ولكن ما هو ذنبي ؟ وهل هناك عيب اذا استطعت أن ألفت

نظر هذه الفتاة الجميلة ؟ وهل أنا مسؤول اذا أحس هو بطعنة في قلبه عندما لاحظ ذلك ؟ انه لا يفتأ يراقبها كالكلب المسعور منذ أن وصلت الى القرية . وذات يوم ثارت ثائرته . وقصتي معه معروفة : فقد تناقلها الشبان وانحازت الى جانبي البنات وأخذ الناس ينظرون الي كأحد أبطال القصص الغرامية .

كانت ذات يوم ماشية في طريقها الى الحقل لوحدها تماما ، فسرت وراءها بعض الوقت لا عن سوء نية ، وكل ما في الأمر أنني أردت أن أغازلها بدون احراج لها . وبعد قليل لاحظت أنها تباطأت في مشيتها ، وعند ذاك أردت أن ألحق بها . وفجأة رأيت مقران واقفا بيني وبينها كأنه خرج من جوف الأرض . وبقينا لحظة واقفين وكل واحد على بعد خطوات من الآخر ، الا أننا لم نتبادل أية كلمة .

وتركتهما ينصرفان ثم واصلت بدوري طريقي الى مقبرة تازروت ، غير أن الأمور لم تقف عند هذا الحد بالنسبة لزوجته ، فبعد عودته الى الدار أشبعها في الليل ضربا وتعنيفا حتى أفسد وجهها ، وعندما لاح الفجر فرت المسكينة الى دار أهلها .

مما لاشك فيه أن مقران لم يكشف أبدا لأي انسان عن السبب الذي دعاه لمعاملة زوجته بتلك القسوة ولماذا طردها من الدار . واذا كانت القصة قد وصلت الى مسامع الناس في الحين فذلك لأن هذه الفتاة لم تخبيء شيئا من القضية . وكذلك فعل أهلها ولعلهم أرادوا بذلك أن ينتقموا منه .

لست حريصا على أن أحظى بهذه الفتاة خاصة أنه لن يطلق سراحها أبدا لأن التقاليد تعطي له الحق في ابقائها معلقة في ذمته . واذا قدر لهما أن يعيشا بقية العمر في تعاسة فأنا لست مسؤولا عن ذلك . وعلى كل حال فليطمئن بأنني لن اخطفها منه أبدا ، خاصة في الوقت الراهن .

أظنه مغرما بها .. لذلك فكثيرا ما سخرنا منه بعبارات فيها تورية وتلميح . فيتظاهر بأنه لم يفهمها . ولعله يقول في نفسه بأنها تحاول أن تخونه بل ربما خانته بالفعل ، ولكن ، من الواضح أنه يعتبرني أنا « عبيروش » بين الشبان المنافسين أخطرهم . وأنا على يقين ان ذكر اسمي في داره ممنوع منعا باتا . ولقد حاولت مرارا من جهتي أن أخفف من شدة العداوة بيني وبينه حتى أبعث فيه الثقة ، وأدخل في نفسه الاطمئنان . غير أنه قابلني في كل مرة بالصدود . ليذهب الى الجحيم اذن . وليظن بي ما يشاء من الظنون ، فلن أنزعج بالمرة . ولابد أن أستريح من شره نهائيا ؛ وغدا سأصفي معه الحساب .

ولكن ما الفائدة من اهانته مرة أخرى ؟ لن أفعل ذلك ، بل سأكتفي اذا قابلته أن أقول له بأنني لا أخاف منه . ولكي أبرهن له أنني لا أخشاه ، فلن أغلق الباب بعد اليوم . خلاص .. لن أغلقه . وأنا متأكد أنه عندما يلاحظ ذلك سيغير رأيه في الموضوع . وسيعود الى رشده . وأما أنا فسأنام مرتاح البال .

اليوم الثامن : 27 يناير من الخمسينات

رقدت البارحة فى حوالي منتصف الليل . انتظرت مقران ، الا أنه لم يأت ... أعتقد أنه لن يكلف نفسه مشقة المجيء ، واذا كانت نيته هي أن يقتلني فسيفعل ذلك فى أي مكان آخر وفى أي وقت من الاوقات . وفى هذا الصباح قلت لرفاقي ــ وهو حاضر معنا ــ انني لن أغلق بعد اليوم الباب لأن هذا الباب اللعين أخذ فى المدة الاخيرة ينفتح لوحده . وسمعني مقران فلم يعلق على كلامي بشيء .

هذا يوم كئيب كسائر الأيام الأخرى .. لم يسقط الثلج فى الليلة الماضية ، غير أن المطر بدأ ينهمر فى الصباح الباكر . وقد استيقظت فى حوالي السابعة وأشعلت الكانون وأعددت القهوة ثم خرجت على عجل تاركا الباب مفتوحا حتى تتمكن ننه مالحة وذهبية من الدخول . وأمضيت النهار كله خارج الدار ، وحينما عدت أحضرت لي ذهبية طعام الكسكسي ، وكانت قد رأتني هي وأمها وأنا أدخل الى الدار ، أو بالأحرى سمعتا وقع خطواتي ، لأن الجو كان مظلما . وها هي ذي تبعث لي ابنتها بعد أن قضيت النهار كله خارج الدار :

ـ مساء الخير يا دادا (1) عامر ... أحضرت لك طعام العشاء . كنت في بيت سعدي فيما أظن .. انه لشيء مؤسف ما حدث لهؤلاء الاخوات .

ـ نعم ، كنت في منزلهن وأظن أنني سأعود لحضور المأتم كبقية رفاقي ...

ـ وأنا أيضا لم آكل شيئا ، لأنني أحس بمغص في معدتي . أما أنت فينبغي أن تأكل ، وخاصة أنك لم تتناول شيئا ما عدا قهوة الصباح . أنا متيقنة أنك لم تأكل شيئا طول النهار ، وأتيت الآن لأرتب لك البيت .

ـ صحيح ما تقولين ولكن أكلت خارج الدار مع أصحابي ، أكلنا سمكا وخبزا ...

ـ وشربتم خمرا .

ـ وكيف عرفت ذلك ؟ أتريدين أن تتأكدي ؟ اقتربي مني ..

ـ رفعت غطاء صندوقك هذا فوجدته مليئا بالأوراق .. أتراك تكتب يومياتك ليلا ؟

ـ يا لك من متطفلة ... وهل قرأت شيئا منها ؟ طيب ، لن أنسى بعد اليوم أن أغلق الصندوق .

ـ لا ... ما قرأت شيئا لأنني لا أجيد القراءة . وأنا أيضا لن أنام هذه الليلة ، وعندما تعود من المأتم وقت الفجر سأسمع خطواتك ... لا أعرف كيف أقضي الوقت يا دادا عامر .

---

1 ـ دادا : كلمة يخاطب بها الصغار الكبار من الرجال ، احتراما لهم ، (انظر كذلك الحاشية في ص 9). (المترجم) .

قالت ذلك ثم انسلت من الدار . ولما ناولتني صحن الطعام تلامست أصابعنا ، وأظن المسألة مقصودة من طرفها ، ولكن لم يتعد الأمر هذا الحد .. انه شيء مؤسف بطبيعة الحال .. مؤسف أن تضيع الفرصة مرة أخرى . أظنها حمقاء ... لو كنت محلها .. فيا ليتها اقتربت مني لكي تسند رأسها على صدري ،ولعلنا بذلك ننسى الهموم والأحزان .. اذن لضممتها بين ذراعي في صمت ، دامع العينين ، متهيج النفس بالرغبة والتأثر ، واذن لبكينا معا ... ولكنها لا تعرف ، لأنها حمقاء .

لماذا هذا الحزن كله ؟ وهل الذنب ذنبنا اذا كانت رحمة قد انتحرت ؟ ماتت وانتهى الأمر .. سنسهر عليها الليلة ، وغدا ندفنها كما دفنا أمي في مقبرة تازروت منذ ثمانية أيام خلت .أما الدافع لها على الانتحارفهو أمر لا يقره ذوو العقول النيرة ، وأنا على كل حال لست منهم ... الله يرحمها ! . ما كان ينبغي على ذهبية أن تهرب مني . وما شأننا نحن في انتحار تلك المرأة ؟ وهي لم تصل الى مرغوبها الا بعد مشقة لأنها ما فتئت منذ سنتين تحاول أن تضع حدا لحياتها التعسة . ولكن بدون جدوى . وهذا ان دل على شيء فانما يدل على أن الموت لا ينقاد لمشيئة الانسان . أما في هذه المرة فقد نجحت محاولتها ، فهنيئا لك على ما فعلت يا رحمة ولتنعمي بالراحة الأبدية ، فقد دفعت ثمنها غاليا .

لم أعر هذه المرأة أي اهتمام في السابق . ولا أعرف عنها الا القليل . انها امرأة عانس مؤمنة ، ساذجة العقل ، وأغلب

الظن أنها لم تعرف الحب طول حياتها ، وعاشت فى ايغيل نزمان تحت سمائه الزرقاء فى ذلك الأفق الضيق المحدود من جميع الجهات بالجبال الشاهقة المكسوة بأشجار الزيتون .. عاشت فى تلك البقعة المحدودة الرقعة الشبيهة بالوعاء المتسع فى أعلاه المتضيق فى أسفله ، فى أعماق الوادي ، حيث ينساب الجدول الوحيد الذي تعرفه بالاسم فقط ، لأنها لم تعبره أبدا لكي ترى ما يجري على الربوة المواجهة للقرية . تلك هي رحمة : امرأة كغيرها من نساء بلادي لا أكثر ولا أقل .

ورد فى القرآن الكريم انه : « من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا » . على أن رحمة حينما انتحرت لا أحسبها قتلت نساء ايغيل نزمان جميعا . وقد جعلني صنيعها أنظر اليهن نظرة جديدة لا تخلو من شيء من الاحترام . صرت أقول فى نفسي كلما صادفت احداهن فى الطريق : هذه امرأة أخرى يمكن أن تصنع ما صنعت رحمة ...

ولقد تحسبها غبية أو متعنتة أو ميالة للجد أو الهزل ، ولكن لا يعلم الا الله ما تخفي وراء تلك المظاهر . ألم تكن رحمة بالأمس القريب امرأة كغيرها من النساء ؟ لقد عاشت كما تعيش هذه المرأة ، وكانت أحسن من تلك ، وأسعد من البعض الآخر منهن ، وما ماتت نساء ايغيل نزمان بموتها . غير أن كل واحدة منهن تستطيع اذا شاءت أن تستريح من أتعاب هذه الحياة ، ورحمة هي التي فتحت لهن الطريق .

كان من الممكن أن تعيش عشر سنين أو عشرين سنة ، غير أنها رفضت ذلك وقالت لي أختها بأنها كانت تستعد لهذا الأمر منذ سنتين ، وأنها لم تستطع أن تمنعها من تنفيذ فكرتها ، وأن تظل باستمرار متيقظة ومتنبهة لحركاتها وسكناتها طيلة أيام وشهور .

من الصعب أن يعرف الانسان كم تبلغ أخت رحمة من العمر وأظن أنها أصغر من المرحومة .. وكيف يعرف الانسان عمرها ووجهها التعس شاحب كأنه ورقة من الأوراق الذابلة ؟ كل ما فيها عتيق وأصبح رثا باليا لا من حيث اللباس فحسب ، بل من حيث البدن أيضا . ولا يمكن لك أن تعرف ما اذا كانت نظيفة أو وسخة ، فهي كالمعدن الذي علاه الصدأ ، فلا يغير من حالته الصابون ولا الوسخ المتراكم عليه .

عندما أخذت تحدثني ، شعرت بالألم والحزن ، وخطرت ببالي أمور كثيرة نسيت أكثرها فيما بعد ، ومن جملتها أن حياتنا البائسة الشقية تتجسم في هذه المرأة . فقد كان من الممكن لولا ظروف حياتنا أن تكون جميلة ، شابة ميالة للبهجة والسرور ، مثيرة للاعجاب ، وكان من الممكن أيضا أن يحبها انسان وأن تعيش معه سعيدة . وعوضا عن كل هذه الصفات فهي خالية من كل ما يستهوي النظر ويرغب الناس فيها ، وكأني بها تقول لمن ينظر اليها :

ـ عما تبحث ؟ عن معنى الحياة وسرها ؟ من العبث اذن أن تطيل البحث فما عليك الا أن تنظر الي .. فلن أخبيء عنك شيئا . ولكن لا تنخدع بغيري .. فمن أراد أن يعيش فى هذه الحياة عليه أن يدخل معركة الصراع من أجل البقاء حتى تصبح يداه خشنتين . وعليه أن يمشي حافي القدمين الى أن تصير أقدامه قاسية كالجلد السميك . وأن يصبر على الجوع الى أن تتوتر قسمات وجهه وتبرز عروقه ويصبح منظره مخيفا .. وليكدح من أجل لقمة العيش الى أن تحين ساعته الأخيرة ، ولكن لا ينبغي أن يتعجل تلك الساعة وليتركها تحين من تلقاء نفسها ، لأن الحياة تستحق أن يعيشها الانسان مهما كانت قاسية .

هذه فيما أعتقد هي الافكار التي تدور فى خلد هذه المرأة ، وكلما استمعت اليها تتكلم أشعر أنها تلتهمني بفمها الشره ، وتزدردني بدون شفقة وتمص دمائي كأنها أخطبوط ، فأصبح عصارة تمتزج بافرازاتها وأذوب فيها فأعيد الى وجهها الشاحب تورده وأبعث فى عينيها الكبيرتين الجامدتين بريق الأمل .

تملكني هذا الشعور الغريب فلم أتخلص منه الا بعد أن أغمضت عيني وفركتهما بيدي فرأيت أمامي تلك المرأة البائسة المتواضعة المستسلمة لمشيئة القدر ... ويبدو لي أنها مستسلمة اليه عن وعي وفى شيء من الأنفة والاعتزاز بالنفس ، وأظنها تستحق التقدير والاعجاب لأنها أدت واجبا كبيرا لا يخلو من

السمو والنبل ، وهو أنها جابهت المـوت وقاومتـه وتمسكت بالحياة كأشد ما يكون التمسك .

وبهذا الأعتبار فان أختها رحمة هي التي أخطأت لأنها لم تقم بواجبها ، وعذرها الوحيد هو أنها مجنونة . وأنا على يقين أن الانسان لا ينتحر الا اذا كان مجنونا .. ومـا أنـا بمجنون ولله الحمد .

ذهبية معها حق : الأحسن أن أغادر هذا البلد اللعـين ... لم يعد يهمني أن يتشفى أولاد آيت العربي ومقران وأمثاله حينما يتخلصون مني . سأبيع الدار والحقل وسأرحل عن هذا المكان ، ولابد لي أيضا من أن أنسى ذهبية وأمها الحمقاء ، ولن أجد في ذلك أية مشقة . سأتحرر من كل قيد لأنـني على كل حـال لا أرضى بالقيود ولا يجدر بي أن أتكل في شؤوني على هؤلاء الناس . واذا سألني شخص من أنت ؟ فسأجيبه : أنا انسـان . أو قال لي : من أين أتيت ؟ فسأرد غليه : وفيم يهمك أن تعرف ذلك ؟ أما أبناء البلاد فسأتهرب منهم وأتجنب لقاءهـم لأنهـم تافهون آينما كانوا .

ها هي ذي قد مرت ستة أشهر على وصولي ، والربيع أصبح على الأبواب .. فمن الطبيعي اذن أن تهتز في نفسي الأوتـار الخفية التي تدعونا للرحيل . ومهما تظاهرت بالصبر فانني في الواقع أفكر في الرحيل كما يفكر فيه جميع الشبـان . ومـن العبث أن أماطل ، بل يجدر بي أن أقطع البحر في الحين مـن

غير أن أنتظر أحدا ، وإلا فانني لن أفلت من ايغيل نزمان ... واذا حدث ذلك فسلام على المشاريع ، لأنها ستتبخر هباء كما تبخرت من قبل .

ليس لي من الصبر ما يساعدني على التعبير بطريقة مرتبة عن كل ما يجيش في نفسي من الخواطر .. مسكينة أنت يا أمي ، فقد جعلت مني رجلا فاشلا .. أنا ساخط على ذلك المعلم الذي أدخل في نفسك الوهم وجعلك تعتقدين بأنني ذكي ، وأستطيع أن أواصل دراستي . والا فما علاقتي أنا بالمدرسة الثانوية ؟ لقد طردت منها بسبب سوء السلوك والعصيان ومطالعة الجرائد المحظورة وغير ذلك من الأسباب . ثم صرت على رأس خلية شيوعية في ايغيل نزمان . ودام الأمر عدة سنوات . هل تتذكرين ؟ عدة سنوات كنت خلالها أعيش على حساب الغير وأشرح للناس أفكاري عن الانسانية المعذبة .. جميع الشبان ملتفون حولي . لكم كان ذلك العهد جميلا : نقضي الوقت في مطالعة الجرائد والمنشورات ، والسهر في الحقول ، والمجادلة ، وشرح المبادىء ، ووضع الخطط .. ونمني المنخرطين الأماني العذاب ، وننتقل بهم الى عالم أفضل حيث يصبحون رجالا بأتم معنى الكلمة ، وتجد مواهبهم الكامنة مجالا للتفتح . ولكن واحسرتاه على ذلك الزمان الذي انقضى ولن يعود ، لأن الجاسوس العميل وشى بنا للسلطات بسبب الشغب الذي نقوم به واضطراب الحالة ، وعلى اثر تلك الوشاية نفت السلطات اثنين منا الى الصحراء ، وتفرق شملنا كسرب من العصافير . أما أنا فقد غضب

علي الحاكم الفرنسي غضبا شديدا ، ولكن شفع لي عنده أن أمي فرنسية فنجوت من النفي الى مدينة بشار رغم سوابقي فى المدرسة الثانوية . وارتاعت أمي لهذا الأمر فلم تر بدا من أن تبعث بي الى فرنسا ، وبذلك انهارت أحلامها نهائيا . كان همها الوحيد منذ أن كنت صغيرا هو أن أحصل على وظيفة أو حرفة من الحرف أمارسها هنا حتى لا أضطر كغيري من أبناء قومي للتغرب الى فرنسا ، ولطالما سمعتها تقول بأن واجب الآباء هو تهيئة المستقبل لأبنائهم ، فاذا عرفوا الطريقة المثلى فان أملهم يتحقق . وتضيف بأن الآباء يقومون بالتضحيات فى سبيل أبنائهم ويرشدونهم للخير والصلاح . ثم تختم كلامها قائلة بأن الآباء لا تنجح مساعيهم الا اذا كان الأولاد أنفسهم صالحين ، وبئس مصير الفاسدين منهم ، الذين لا يريدون أن يشمروا عن ساعد الجد ، فأولئك لابد من أن يرحلوا الى فرنسا ويتغربوا فيها ، وهناك ستواجههم الحقائق المرة .

وبما أنني كنت مطاردا من طرف السلطات فان الرحيل الى فرنسا هو أحسن الحلول .. أضف الى هذا أن الجرائد التي كنت أقرأها تشيد دائما بصداقة الشعب الفرنسي الذى يمد يدالإخاء والصداقة الى الشعب الجزائري « الكادح » حسب تعبيرها . ان الناس فى القرية يتحدثون عن فلان أو فلان ممن ذهب الى فرنسا فأثرى فيها ثراء كبيرا وأصبح يتعامل بالملايين ويملك فى باريس أو مدينة ليل البنايات والمقاهي والمطاعم والمحلات التجارية . وفى مثل هذه الحالة كيف لا نرحل أفواجا

نحو الترف والهناء ؟ وكيف لا تترك المجال مفتوحا للعملاء لكي يعيثوا فى الأرض فسادا ويدلوا بأصواتهم فى الانتخابات لصالح الحكومة ..؟

وأين أنت الآن يا سعيد ؟ مضى شطر كبير من الليل يا صديقي وأنا الآن قابع وحدي أمام صندوقي ، فهلا تطلعت من ورائي لكي تقرأ هذه الأسطر ؟ كن مؤنسي فى هذه الليلة كما استأنست بطيف أمي لأنني لا أخاف من الأموات ... سأتحدث عنك يا صديقي ، عنك وعني :

سامحني يا سعيد ان أنا فرطت فيك ، فلم تبرح خيالي أبدا ، وقد فكرت فيك عندما كنت منذ حين أستمع لحديث البنت سعدي ، وقررت أن أكتب قصتك فى هذه الليلة وأن أتحدث عن سفرتنا التى كانت بالنسبة اليك هي السفرة الاولى والأخيرة .. ولكني الآن محطم ولا أقوى على الكتابة ، فالى الغد اذن لأنني أريد أن أكون مرتاح الذهن حين أتحدث عنك ، ومن الأفضل أن أنتظر .

ترى كم الساعة الآن ؟ لا يهم .. سأقضي بقية الليل هناك مع الاخوان الساهرين فى دار المرحومة ، وقد وعدت ذهبية أن أشعرها بحمحمة خفيفة حينما أمر على بيتها لتعرف بأنني عدت من المآتم .

الى الغد اذن يا سعيد ..

اليوم التاسع : 28 يناير من الخمسينات

غادرنا ايغيل نزمان على الساعة الخامسة صباحا ، في يوم من أيام شهر أبريل بطبيعة الحال .. القرية لا تزال نائمة والنـــادي يسود فيه الصمت العميق .. ومررنا على النادي بخطوات ثابتة هي خطوات الرجل المبكر الذي يذهب ليكسب قوت يومه .. سيارة النقل في الانتظار على بعد كيلو متر من الدار ، في القرية المجاورة . وستقلع على الساعة الخامسة والنصف . وشعرت بلوعة الفراق وشدة الحزن ، وأحسست على خدي قريبا م الأذن بمنطقة لا تزال مبللة ولعل دموع أمي هي التي بللتها .

ومسحتها بيدي بحركة سريعة ؛ ولكن ربما كنت متوهما ، لأن الدموع سرعان ماتجف .. وطلبت من أميّ بالحاح أن لاتخرج من الدار ، وقلت لها بأنني رجل وأنه لا يجدر بها أن تكون كغيرها من النساء الحمق ..

ـ أعاهدك يا أمي أن أكون رجلا بأتم معنى الكلمة ؛ وأنت أيضا ستبرهنين أنك أفضل منهن جميعا . وأطلب منك أن تعلمي والدة سعيد الصبر ، فهي لا تكاد تسلو على فراق ابنها .

وبعد أن تجاوزنا النادي أوقفني سعيد قائلا :

ـ يا صاحبي ، زوجتي لم تقبلني عند الوداع . هل هذا أمر طبيعي ؟.. رأيتها تدخل الى غرفتها رائعة ، ناعمة ، كأنها صورة مريم العذراء ، لكي تذرف دموعها وتبكي وحدها . انها لم ترد أن تشارك أمي وأخواتي في النحيب : ليتها تعرف كم يعز علي فراقها .. ولا يخفى عليها أن كل من يذهب الى فرنسا لابد من أن يعاشر النساء .. وأما من ناحيتها فأنا مرتاح البال : ستكون عليها حراسة شديدة .

فقلت له :

ـ كأني بهذه الصبية الحمقاء قد سحرت عقلك .. ألا يجدر بك أن تفكر في أمك المسكينة ؟

ـ وأنت يا ولد الرومية ، ألم يكن يجدر بك أن تبكي على أمك التي تركتها وحدها ؟ أما بالنسبة لتلك الصبية الحمقاء ، فأنا أراهنك أن لها من المخ أكثر مما تتصور . هل تدري بأنها أعطتني ألفي فرنك ؟ انه مبلغ لا يستهان به كمصروف للجيب . وقالت لي بأن أمها هي التي أعطته اياها . على كل فأنا لم أقبل هذا المبلغ في الحين ، وكان بامكانها أن تحتفظ به وأن تستعمله كمصروف في فترة غيابي . وحينما مدت الي الدراهم شعرت أنه لا يجدر بي أن أرفض ، وعلمت أنها قررت ذلك من أيام عديدة . وقضينا ليلة سعيدة ولم يتطرق أحد منا ولو عن طريق التلميح لما كان يشغل بالها . على أنها كانت تسأل بين الحين والآخر :

ـــ ترى هل سوف تنساني .. ؟

ـــ ما بالك تقولين هذا الكلام ؟

ـــ دعنا من هذا . ولكن أحب أن تعرف منذ الآن بأنه اذا أقلقتني أخواتك فسأترك الدار وستجدني لدى عودتك في بيت أمي .

ـــ كل شيء الا هذا ، هل سمعت ؟ ابعثي لي رسالة وأخبريني عن كل ما يقلقك .. أخوك الصغير يحسن الكتابة ، أليس كذلك ؟

وتركنا كثيرا من المسائل معلقة وامتنعت عن توصيتها بأي شيء على وجه الخصوص ، ولم أعط لها أوامر معينة وانما اكتفيت في تلك اللحظات الأخيرة بابداء بعض الآراء والنصائح لها . والله يعلم ماذا سيكون مصيرها من بعدي . ولكن هذا أمر لا بد منه .

ـــ طيب ، طيب .. ولكن ماذا يفيد الحزن والأسى ؟ عجل يا أخي سعيد .. سيكون الزحام شديدا على السيارة ، لأن كثيرا من الناس مسافرون اليوم .

ورأينا الشيخ دحمان قد أقبل من خلفنا ، فبدا لنا طيفه كتلة ضخمة ثقيلة ، وكان يسحب ولده الصغير الذى أخذ يبكي ، وهذا الولد هو أصغر أبنائه . ورأينا أيضا العم محمدا الذى كانت عيناه الكرويتان كعيني الكبش الوديع ، يشع منهما بريق

عجيب ، كأنهما ترفضان هذا الفراق ؛ وكأنهما تريدان الهروب من وجهه الكئيب ، للبقاء فى الدار ، برفقة زوجته وابنه الوحيد الذى رزق به بعد سنين من اليأس .

كنا اذن خمسة من أهالي ايغيل نزمان نحث الخطى فى العتمات الخفيفة من الفجر ، بعدما اختفى القمر ، وجدنا الحافلة فى الانتظار ، فارغة من الركاب ، الا أننا نعرف أنها ستمتلىء بعد قليل وسيتكدس فيها المسافرون على طول المسير الى المدينة ، وستتوقف فى أسفل قرية آقني ثم تاوريرت ثم تاقسونت ثم ايغزر ، وأخيرا تيزي . ستهبط من جميع القرى نفس النماذج البشرية من المغتربين ونفس الاشباح التى تبدو فى الصباح الكئيب سوداء غير واضحة الملامح .. ستهبط منها نفس الوجوه النحيلة ذات الشفاه المتدلية والعيون المحرومة من النوم ، وسيتأبط كل واحد بنفس الحقيبة التي سودها الدخان ، ونفس الرزمة من القماش الغليظ المحزومة بالخيط . وما لبثنا أن تكدسنا فى السيارة. واختلطت أنفاسنا وامتزجت أحلامنا وراح كل واحد منا يفكر فى صمت . وهكذا هبط الموكب الحزين .. لا أتذكر بالضبط اسم القرية التي توقفت الحافلة فجأة فيها ليركب عدد من الرجال ، وقد رافقهم كثير من النساء الباكيات . ولا يزال ذلك المشهد مرتسما فى ذهني الى الآن .. أحدث وصول الحافلة فيهم نوعا من الدهشة والحيرة فلم يتحرك أحد من مكانه ؛ وبينما هم على تلك الحالة من الوجوم ، اذا بعجوز ذات ملامح تنم عن الشدة ، ووجه شاحب كأنه الرخام الاصفر ، اذا

بها تدنو من الحافلة وقد أمسكت صبيا صغيرا من كتفه ودفعته الى الباب وهي ترمينا بنظرة مليئة بالحقد ، ثم صرخت في وجهه :

ـ هيا .. اركب ، عجل أنت واركب . أما رأيت أن الحافلة مكدسة بالركاب ؟

وما كاد الناس يسمعون قولها حتى اقتحموا الحافلة وازدحموا على بابها للدخول ، ولم يبق سوى النساء والصبيان والشيوخ الذين آخذوا ينظرون الينا مودعين حينما أقلعت الحافلة . ان المشهد كئيب ، وثياب النساء كامدة الألوان ، والوجوه نعسانة مكدودة : ولا أثر للابتسام عليها . تصوروا لوحة تمثل الشيخوخة والتعب والاستسلام والشقاء .. تصوروا جنبا الى جنب عيونا انطفأ بريقها وأخرى تنهمر منها الدموع وأخرى يتطاير منها الشرر ويلمع فيها الأمل أو الغضب . تصوروا رأس العجوز المرعب ، تلك العجوز التي ما جاءت الا لتدعو للجميع بالشر كأنها غراب منحوس . ذلك هو المنظر الذي لن أنساه أبدا .. وقال لي سعيد :

ـ أرأيتها ؟ ستكون منحوسة علينا . الله يلطف بنا .

فأجبته :

ـ هذا الصبي ولدها فلا مجال للخوف اذن .

ـ صحيح والله ، ولكن يا ليتها بقيت فى الدار ! فيا لحماقة هؤلاء النساء ! ما الفائدة من مرافقة الرجال الى الحافلة ؟ نساء ايغيل نزمان أعقل منهن .

ـ طيب . ولكن لا تنس أننا أقلعنا وقت الفجر . أما الآن فقد طلع النهار . ومن الطبيعي أن تخرج النساء معهم لوداعهم .

لا أدري لماذا يخطر دائما ببالي هذا المشهد كلما أردت أن أتأسف على أبناء بلادنا أو أترحم عليهم . فهناك فى البعيد ، أتمثل جبال جرجرة كتلة متراصة ثابتة الأركان .. قممها المكسوة بالثلوج . المحفوفة بالضباب . تختفي هناك فى عنان السماء . انها أسوار منيعة تفصلنا عن الدنيا وما فيها .. وحول تلك القمم ترتفع الهضاب المغطاة بالأشجار القصيرة الدكناء . وأحول بصري فأرى من تحت الأعشاب القليلة تربة قاحلة وأرضا شاحبة بيضاء أو صفراء حسب تركيبها : من الرمل أو الشيست .. أرضا يعيش فيها رجال نحيفو الأبدان وتكثر فيها الذئاب والعنزات العجفاء . وعندما أرى النساء والفتيات والصبيان والشيوخ والعجائز قد وقفوا بجانب الطريق لتوديع المسافرين يخيل لي أنهم يقولون لنا :

« لا تظنوا أننا أغبياء . بل نحن عارفون .. نحن نعرف أنكم تغادرون بلاد الجوع وتذهبون الى جنة الدنيا . ولكنكم ستظلون فى تلك الجنة غرباء وستضطرون للعودة الى جحيم بلادكم . وحينما تحطون الرحال هناك ستفكرون فينا فى بداية الأمر ،

ولكن اذا قدر لكم أن تكونوا سعداء فسوف تنسوننا بكل تأكيد .

ارحلوا عن هذه البلاد اذا شئتم فنحن نغبطكم على ماتفعلون. ولكن لن يكون مصيركم هناك سوى الكفاح المرير ومعيشة الضنك والتعاسة .. كونوا على يقين أننا نحن ـ المعذبون فى الارض ـ نحتقركم لأنكم أنتم أيضا ستكونون فى تلك الارض معذبين ، وان كنتم تحاولون عبثا أن تتهربوا من مصيركم المحتوم » .

وما لبثنا أن سمعنا العجوز تصرخ فى وجه ذلك الطفل الصغير، مكشرة عن أنيابها :

ـ هيا ، اركب وخذ مكانك فى الحافلة وارحل عنا ، ولتحمل معك حقدي كله لأولئك القوم السعداء الذين سيعتبرونك أنت ـ ولدي الوحيد ـ كالكلب بينهم ... ولتعرف أنني سأضمر لك الحقد الدفين اذا فكرت ذات يوم فى التخلي عني . لا تغتر بالسعادة اذا قدر لك أن تكون سعيدا هناك ، لأن سعادتك لا توجد الا فى هذه البلاد وفى كوخك الحقير بالقرب من أمك التي ليس لها أحد سواك ولا تعبأ بأحد فى هذه الدنيا . اذهب أنت ومن معك . ارحلوا عنا كلكم أيها الجبناء ولتصحبكم لعنتي .

وقررت أنا وسعيد أن لا نختلط بغيرنا من المسافرين، وليس فى ذلك من عيب، فنحن على كل حال أحرار فى أن نفعل ما نشاء لأننا

لا نريد أن نكون من ضحايا التمييز العنصري ، فلسنا ممن يتحمل الجو السائد فى الدرجة الرابعة ، ولسنا ممن يصبر على الاحتقار والزحام والاهانة ، وهو أقل ما يمكن أن ينالنا من ضرر هناك .. أردنا أن تصان كرامتنا مثلما تصان أمتعتنا وأن نرتب أمورنا حتى نصل الى مرسيليا سالمين من كل ايذاء . واذا كان دحمان وابنه يرضيان بالمذلة ، واذا كان محمد لا يستفزه الاحتقار ، فتلك عادتهم ولا يرون فيها من بأس . وهكذا افترقنا عنهم فى مدينة الجزائر ، فأخذنا التذاكر فى سفينة صغيرة تابعة لشركة غير مشهورة وأبحرنا عند الساعة السادسة مساء ، وكان ذلك من خمس سنوات خلت تقريبا . وما كدنا نصل حتى بعثنا الى الأهل والأصدقاء بطاقات بريدية ووصفنا فيها السفرة بأنها رائعة .

ظهرت الجزائر من على متن السفينة محفوفة بالضباب .. البحر أزرق داكن ، وفوق تلك الزرقة الدكناء رأينا فى الأفق البعيد لونا فاتحا يكاد يكون مخضرا ، وفوقها أيضا أبصرنا رقعة يتناقص لونها الوردي تدريجيا الى أن يختلط بزرقة السماء الفاتحة .. ضياء النهار لا يزال مشرقا من جهة البحر بينما أخذت الشواطىء الجزائرية تختفي شيئا فشيئا فى الظلام .. البحر هادىء ولا يكاد يحس له الركاب سوى بهزة خفيفة تنبعث من أمواج البحر الأزرق الداكن ، كأنهم على زربية واسعة الأطراف من القطيفة ، تحركها بنعومة يد خفية . وأخذت الباخرة ترسم على صفحة الماء ثلما عريضا متلألئا كالفضة لا يكاد يتشكل حتى

يختفي كأنه الحلم الشارد .. الركاب على ظهر السفينة متراصون أكداساً، يتفرجون على المناظر فى صمت : فمنهم الخائف الوجل ، ومنهم القوي الثابت العزيمة ، وكل واحد منهم يحاول أن يتفهم الموقف الجديد وأن يطمئن نفسه بأنه لا داعي للخوف من هذه الرحلة التي قد تخفي مع ذلك بعض المفاجآت .

ثم تمددنا على كراسينا الطويلة وقضينا الوقت ما بين حديث وصمت . هل تتذكر يا سعيد ماذا كان موضوع أحاديثنا ؟ أما أنا فلم يبق فى ذهني من تلك السفرة سوى ذكرى هاوية سحيقة مظلمة كأنها خندق عميق مترامي الأطراف تهب فيه نسمات عليلة . ولم أعد أتذكر سوى هدهدة البحر المنتظمة مع هدير المحركات وأنين الأمواج التي تتهالك على حافة السفينة ثم تنبعث من جديد كأنها ما تكون .. وما زلت أيضا أتذكر الوجوم الذى سيطر على نفسي من القلق والحيرة .

طلع النهار فى اليوم التالي ساطعا فمتعنا بصرنا بمنظر البحر وقد أشرقت عليه الشمس فى كبد السماء الزرقاء .. الأمواج الضخمة ترغي وتزبد ثم تخمد ، ثم ترغي وتزبد مرة أخرى كأنها فى لمعانها أضواء مدينة تشاهد من مكان بعيد . بلادنا الآن قد اختفت تماما ، غير أن الانسان اذا سرح ببصره فى الأفق يستطيع أن يتصور هنالك فى البعيد البعيد أرض الأجداد وقد لفها الظلام ودبت فيها الوقف من الاضواء المشعة .

ونجانا الله من كل مرض في السفرة ووصلنا بالسلامة الى تلك الأرض المجهولة ، أرض الأحلام ، بعد اجتياز منطقة مكتنفة بالضباب والأهوال والمياه الدكناء . وبالفعل فقد كانت على حد تعبيرنا في البطاقات البريدية سفرة رائعة .

ولم تمض أربعة أيام على وصولنا حتى دفن سعيد في مقبرة بوبينيي ، وشيعه الى مقره الأخير آبناء بلاده من ايغيل نزمان . وما من شك أن سبب وفاته هو الزائدة الدودية التي أصيب بنوبة منها في اليوم الثاني . وقد نقلته سيارة أجرة الى مستشفى بروسي ، ولكنه مات بعد اجراء العملية الجراحية . وذهبت لأرى جثمانه في النعش ، ثم شاركت في تشييع جنازته . وأنا من هذه الناحية قمت بواجبي ، والاخوان الذين جاءوا الى المقبرة الاسلامية على ذلك شهود .

وهكذا وجدتني وحدي في باريس مع أولاد العم والأصدقاء وجميع ابناء ايغيل نزمان الكثيرين الموجودين هناك . وبطبيعة الحال ما لبثت على مر الايام أن نسيت سعيدا ، وصرت أعتبر الحزن عليه أمرا سخيفا . وذات يوم عدت الى البلاد.عارفا تمام المعرفة أنه لن يحاسبني أحد ولن يتجاسر ليقول لي :

« أين تركت أخاك ؟ وماذا فعلت به ؟ لولاك ما كان ليسافر الى فرنسا منذ أربع سنوات خلت ، في تلك الصبيحة المشؤومة ، وعند الساعة الخامسة من يوم من أيام شهر أبريل ... أجب على هذا السؤال يا عميروش : أين تركت ولدي ؟ »

غير أن المرأة التى كان من الممكن أن تسألني هذا السؤال توفيت قبيل رجوعي . أما بناتها فقد قابلنني بابتسامة ليس فيها أثر للضغينة والحقد ، بل اعترفن لي بالفضل على الاقتراح الذى أبديته بالنسبة لجثمان أخيهن . ولكن لا أعتقد أنا شخصيا أن ذلك الاقتراح قد أجدى نفعا . وكنا ــ نحن جماعة من ممثلي أبناء البلاد ــ قد تقابلنا فى « مقهى ومطعم الكسكسي اللذيذ» لاتخاذ قرار ، فأقنعتهم بأنه لا ينبغي أن يرسل الجثمان الى أرض الوطن، بل يجب أن يدفن فى باريس . وكنت متأكدا حينذاك انني أجنبهم مشاكل عويصة وأن أم سعيد لن تتحمل هذه الفاجعة الأليمة ، وأن الواجب يقضي أن نخبيء عنها خبر وفاة ابنها . ولكن لم يخطر لي بالبال أن السر سيظل مكتوما وأن البنات سيحرصن ذلك الحرص الشديد على كتمانه ، وأن أم سعيد ــ نته تاسعديث - ستموت من غير أن تعرف بأن ولدها قد سبقها .
وارجو يا أخي سعيد أن لا تؤاخذني على ذلك الاقتراح .

لم تنظر أمي بعين الرضى الى تصرفات الأرملة الشابة : وأنا أيضا غير راض عنها .. ولعلنا ظلمناها ، ولكننا نعتقد أن وفاة زوجها سعيد لم يؤثر فيها الا تأثيرا بسيطا ، والا فلماذا صار أهلها بمجرد رجوعي من فرنسا يتوددون الى أمي ويتقربون مني ؟ وما هو الغرض من ذلك ؟

ولو شئت وطاوعت أمي ، لما وجدت أية صعوبة فى الزواج من أرملة المرحوم سعيد الذى كان من أعز أصدقائي وأخلصهم .. ولكن هذه الصبية الحسناء قد انتهى أمرها : فلن تتزوج مني

ولا من غيري . لن تتزوج فى ايغيل نزمان على كل حال لأنه لا يرغب فيها أحد . والاجدر بها أن تصبر على المصيبة التي حلت بها وأن تكون أكثر وفاء للمرحوم : فللناس آذان وألسنة وعيون واذا حكموا على شخص فليس حكمهم من قبيل العبث .

ثم ان هذه البنت التي توفي زوجها بعد أشهر قليلة من عقد الزواج تعتبر فى نظر الجميع منحوسة . وما من شك أنه لن يرغب فيها أحد أبدا . انها هي أيضا تستحق الرحمة . وكيف لا وهي الصبية الصغيرة المدللة المنطلقة فى تصرفاتها ، الخفيفة الروح . تلك الصبية التى كتب عليها بعد اليوم أن تذبل تدريجيا وأن تذوي كالخرقة البالية ، وأن تقضي بقية أيامها محرومة من بهجة الحياة ، لأنه لابد ، مهما كانت الأحوال من أن تعيش ، وأن تعيش حتى اللحظة الاخيرة .

اليوم العاشر : 29 يناير من الخمسينات

لن أعيد قراءة ما كتبته البارحة .. سأتركه الى وقت آخر .. لقد قضيت يوما ممتعا ، ولعل الامر كان كذلك بالنسبة لسائر الناس ، فقد أشرقت الشمس منذ الثامنة صباحا ، وأخذ البخار يتصاعد من السقوف التي تراكم فوقها الجليد ، وصارت جوانب المداخن تلمع كأنها المرايا ، واستحال الوحل فى الأزقة الى ذرات ناعمة من الغبار وأصبحت المزبلة التي ترمى فيها القاذورات في مدخل القرية مكانا دافئا مليئا بالسماد الذي سوف يستخدم فى البستنة . ورأيت النساء فى طريق العودة من العين ، وقد لسعهن هواء الصباح البارد وتبللت جرارهن وأرجلهن بالماء وتوردت وجوههن وانطلقت ألسنتهن فى أحاديث بهيجة مرحة .

أما الصبايا الحسان ، فقد لبسن عباءات لا تكشف من البدن سوى الاطراف ، فكأنهن الازهار الناعمة المتفتحة فى خفر وحياء .

ولمحت ذهبية حين مرت ، فسرت وراءها بدون أن أدري ، الى أن بلغنا الزقاق : ولم يكن فيه أحد سوانا ، والتفتت مبتسمة

قبل أن تدخل الى الدار . وهكذا قنعت منها بالابتسامة ؛ ولكن نفسي لا تزال متشوقة الى أكثر من ذلك .

ثم انصرفت الى داري ودفعت الباب ودخلت وجلست على الصندوق وأخذت أنتظر مجيئها . وحينما دخلت بادرتني بالقول :

ـ هل كنت تعرف أنني سأجيء ؟

ـ نعم كنت عارفا ..

واحمر وجهها وغضت بصرها وربما احمر وجهي أنا أيضا . ولم أستطع أن أصرف بصري عن وجهها الرائع . ولا أدرى كيف قلت لها :

ـ اقتربي .. اقتربي مني يا ذهبية .

ودنت مني وهي لا تزال حمراء كالورد . رزينة المحيا . فياضة بالنعومة والجمال . رأيتها تدنو مني بطيئة فى مشيتها كأنها طير التَّمّ ، وقدها المتمايل ينم عن القوة والضعف فى آن واحد .. دنت مني حتى لامستني واحتكت ركبتها بركبتي . وهي صامتة هادئة مستعدة لأن تسند رأسها على ذراعي كأنها أجمل زنبقة . ثم فتحت ذراعي لأستقبل تلك الزنبقة ولأتلقى تلك الهدية الرائعة فى ذلك الصباح الباكر من شهر يناير الذى أشرقت فيه الشمس بعد يأس ، وبددت أشعتها البهيجة ما استقر فى النفوس من حزن وكآبة .: فتحت ذراعي لأحتضنها . غير

أنني اكتفيت بملامستها ووضعت احدى يدي على صدرها ،واليد الأخرى على كتفها حتى لا ترتاع مني ، ولكيلا تنقضي تلـك اللحظات السعيدة بسرعة . وبقينا كذلك بعض الوقت لا نبدي حراكا ويدي تداعب نهدها الذي أحسست به صغيرا بارزا دافئا. ولكم كانت يدي التي أكتب بها الآن هذه اليوميات تحترق شوقا لمداعبته . وأخذت تنحني فوقي بوجهها شيئا فشيئا فقمت من مكاني وأمسكت الوجه الرائع الوقور بين يدي ووضعت شفتي في تردد على خدها فأطبقت عليه بقبلة خجولة .

ثم أخذت أتكلم كالمجنون مرة ، وكالانسان العاقل مرة أخرى. سأعيد حرفيا ما قلته لها لأن تلك اللحظات لن أنساها أبدا . كنا واقفين متعانقين .. وغضت بصرها حياء بينما أخذت بعيني ألتهمها وأداعبها وأحتضنها وأرتوي منها ، ثم قلت لها :

ــ لا تخافي يا ذهبية .

ــ أنا عارفة ...

ــ أصحيح أنك تحبينني ؟ قولي : اني أحبك .

ــ . . . .

ــ احلفي .

ــ أقسم لك بالله .

ـ الى الابد ؟

ـ الى الابد .

وبدون ان ندري جسنا على الحصيرة جنبا الى جنب ، وعندئذ شعرت بالرغبة فى البكاء ، وأعتقد أنها هي أيضا شعرت بنفس الرغبة ، ولكنها زمت شفتيها . ومرت علينا فترة عصيبة من التوتر .

ـ ستكونين صديقتي وفتاتي وأعز من نفسي .. ليس لي أحد سواك .. ستكونين لي أنا وحدي لأنني لا أرغب فى أحد سواك .

وابتسمت وهي تميل برأسها على كتفي . وانحلت محرمتها فكشفت عن شعر غير مضفور .. شعر مرسل كأنه الحرير ، يتدلى ثقيلا الى خصرها .. وهو أسود اللون فاتحه ، أجعد مثل شعري ، ولكنه منسدل فى نعومة ولطف . وأخذت منه ملء اليد فانثال بين أصابعي كأنه خيوط من الحرير . وبدت فى تلك التسريحة الطويلة الغريبة كالغزالة الشاردة . ثم التفتت الي فعلقت عيناي بعينيها النجلاوين اللتين ارتسمت عليهما الدهشة ، وأبصرت فيهما من اللطف والمحبة ما لا أستطيع وصفه . وكأني بتلك العيون الزرقاء الممزوجة بالسواد ، والمعبرة عن أعماق نفسها ، تحاول أن تنطبع بصورتي وأن تنفذ الى أعماق قلبي .. وهمست فى أذنها :

ـ تعالي يا عزيزتي .

وفتحت ذراعي فاقتربت مني وعانقتني وأسندت رأسها على كتفي ، ثم أحسست بها قد اتكأت علي بجسدها كله ، وتلاحقت أنفاسها قريبا من آذني فضممتها الى صدري .. وأغمضت عينيها ، الا أن أهدابها الطويلة أخذت ترمش قليلا ، ثم اصفر وجهها ودارت بها الارض فغابت عن الوعي ، ووضعتها بحذر فوق الحصيرة ، ثم أخذت أبكي للمرة الثانية من بعد وفاة والدتي .

انه تصرف صبياني ، وما أنا اذ أستسلم لنوبات البكاء الا صبي صغير . ولم البكاء ما دامت ذهبية « معينة » لي وحدي منذ بضعة أشهر ؟ وهل هناك ما يدعو الى الغرابة فيما تبادلناه من عبارات ؟ وعلى كل حال فقد حصلت اليوم على نتيجة، وهي التأكد بأنني أحبها وأنها تحبني . ولكن ما الفائدة من ذلك ؟

لو عرفت ننه مالحة ما جرى بيننا لقالت لي : « ما فيه بأس يا عميروش .. خذها فقد أعطيتها لك . انها ما خلقت الا لك ، وكنت أعرف أنها لم تخلق الا لك ، وكنت دائما أنتظر هذه اللحظة » .

ولكنني كنت سأجيبها : يا لك من غبية حمقاء يا ننه مالحة. فأنت لم تفهميني ولم تفهمي ذهبية .. لم تفهمي شيئا ، ولعلك تتساءلين ماذا سأفعل بعد ما حصل ؟ وهل تظنين بأنني أعرف ؟ لا تعتقدي أن القضية بسيطة بمثل هذه الدرجة ، بل سأنظر في المسألة مع

ذهبية نفسها . سأنظر فيها من جميع الوجوه .. سأصارحها بكل شيء وسأشرح لها كل شيء حتى لا تلومني فيما بعد وحتى نزيل كل ما قد يؤدي الى سوء تفاهم . ينبغي لها أن توافقني على طول الخط . فهذا هو الحب الحقيقي وهذه هي الاخوة والمودة .. أليس كذلك ؟

سأقول لها : « لا يكفي يا عزيزتي أن تكون بيننا محبة ومودة لكي نعيش سعداء . بل على العكس : يمكن لهذه المحبة أن تجعلنا أشقياء . أليست الارملة الشابة التي توفي عنها سعيد جديرة بالرثاء ؟ انظري من حولك قليلا .. ماذا جرى لأولئك المتزوجين الذين كانوا يتوقعون النعيم المقيم والسعادة الدائمة بعد زواجهم ؟ ماتوا كلهم ، ولم يبق فى ايغيل نزمان الا نساء أرامل يبحثن اليوم عن زوج آخر ، أو نساء مطلقات قد استسلمن لليأس .. لم يخلفوا من بعدهم الا اطفالا تعساء . ومنهم من قضى نحبه فى باريس ودفن فيها . وترك من بعده متاعا قليلا .. هذا هو الواقع المرير . ولا شيء سواه .. اتريدين مني أن اقضي حياتي فى الحل والترحال ما بين فرنسا والجزائر ؟ أتريدين أن يكون لك عدد كبير من الاولاد وان تشتغلي بتربيتهم ريثما أعود من سفري المشؤوم كأنني الطائر المهاجر المنحوس ؟ الا تعتقدين أننا كالطيور المهاجرة المنحوسة ؟ أنا متأكد أنك تعتقدين ذلك . لقد كتب لنا الشقاء والعذاب مدى الحياة ، وحينما يأتي الربيع ونتزل أسرابا بتلك الأرض المتحضرة التي نؤمها طلبا للرزق ، فاننا نعتبر أنفسنا كأصحاب الجحيم حين تتاح لهم زيارة

الجنة التي أعدها الله لعباده الصالحين . ويسمح سكان هذه الجنة لنا بالاقامة بينهم ، غير أننا لا نعد منهم ، اذ ليس لأمثالنا نصيب من السعادة والطمأنينة فى جنتهم تلك . وحينئذ نصطنع لأنفسنا نوعا من السعادة الرخيصة ونمطا من الحياة يناسب مطامحنا المحدودة ، ولا يخطر لنا أبدا بالبال أمام تلك المحلات التجارية الكبرى والشوارع الفسيحة والسيارات التي لا تعد ولا تحصى والمعروضات الرفيعة والمناضد المعبأة بالخيرات والبنايات الرائعة .. لا يخطر لنا أبدا بالبال أمام تلك الارزاق وذلك الجمال وتلك الحضارة وأمام تلك المشاهد التى لا تراها العين الا فى الجنة الموعودة .. لا يخطر ببالنا أبدا أننا محرومون فى هذه الدنيا ، بل ننسى أننا ، فى القرن العشرين ، لا نزال نعيش فى الدرك الاسفل من الحياة .

اننا أحيانا نفكر فى أنفسنا ونقول : ما من شك أبدا أن كل هذه الاشياء رائعة .. ولكنها ليست لنا ، ولن يبقى لنا من متاع فى هذه الدنيا سوى ايغيل نزمان وحقوله الجرداء وأكواخه الحقيرة وأزقته الضيقة ؛ ثم لا يلبث كل واحد منا أن ينهمك فى جمع الدريهمات لعله يتمكن من شراء حقل جاره القاحل وتبديل الكوخ القديم بكوخ أحسن منه والفوز بفتاة ذات أعطاف بارزة .. فتاة ربما ستنجب له وارثا أو عددا من الورثة الذين سيكونون من بعده خير خلف لخير سلف .. على أن تكون تلك الفتاة عذراء ــ مثلما آمل أن تكوني يا ذهبية ــ وأن تكون من ذوات الصون والعفاف .

السيارات الرائعة تتلاحق واحدة بعد الاخرى فى شوارع رائعة ، والحياة العصرية فى كبريات المدن معروضة أمامنا كأنها شريط سينمائي ، ولكننا لا نحفل بها ؛ بل نواصل عنلنا بجد وثبات من أجل تحقيق أحلامنا . ويعلم الله آننا لا نصل دائما الى الغاية المنشودة . وحينما نعود الى بلادنا ، نعود اليها وكأننا ما رأينا ولا تعلمنا شيئا فى تلك الديار ، وننغمس كغيرنا فى حياة القرية فننجب أطفالا ونتقاسم الحقول الجرداء ونبني مزيدا من الاكواخ عندما يتكاثر عدد أفراد الاسرة .

وأنت يا ذهبية ما خلقت الا لي ، فليس لدي اذن مانع في مسألة الزواج . ولكنني مع ذلك اتمنى أن يكون لك جهاز كسائر العروسات كما أتمنى أن ننام على سرير لا على الحصيرة وأن أوفر لك فى البيت مائدة وبعض الكراسي وأن تكون حياتك كحياة بنات الشعب البسيطة وأن توجد فى الدار صنبرة تمدك بالماء وأن تتوفر لديك صحون بيضاء بل مجموعة كاملة من الصحون ، وأن أجعلها دائما مملوءة بما تشتهيه النفس من المأكولات .. واني لأتساءل هل أستطيع أن أضمن لك كل هذه اللوازم ؟ هل أستطيع أن أبعد عنك شبح الجوع والبرد وأن أعالجك بالادوية وأن أجعل أولادنا سعداء فى هذه الحياة ؟ أم اننا سنقطع النسل حتى لا يكونوا أشقياء ؟ أتريدين أن نقع فى ورطة وأن ندخل فى تلك المغامرة السخيفة التى تجعلنا ندور فى حلقة مفرغة ، وأن نقضي بقية أيامنا فى هذه البلاد التي لم يعرف فيها آباؤنا وأجدادنا طوال حياتهم سوى الجوع والحرمان؟

انك يا عزيزتي ستذبلين بسرعة وتصبحين قبيحة الصورة كغيرك من النساء . أما أنا فسأصبح كغيري من الناس ، شرس الطباع متعكر المزاج ، وسوف أعاملك معاملة قاسية . وفي آخر المطاف ، عندما تنقضي حياتنا كما تنقضي مدة الحكم على المجرم ، ستخلف من بعدنا أطفالا صغارا فندفع بهم الى الشقاء والعذاب .

الله يشهد يا ذهبية أنني أحبك ، والدليل على ذلك أن صورتك لم تبرح خيالي منذ أن أشرق الصبح . وحينما أتمدد على الفراش لأنام في هذه الليلة ، سأطفيء المصباح وسأفتح ذراعي لكـي أضمك الى صدري ، وربما سيزورني طيفك في المنام . ولكنني أتمنى أن يكون هذا الحلم الجميل هو الاخير وأن يجدني الناس عندما يستيقظون جامدا كالخشب ، وأن تصبحي أنت أيضـا جثة هامدة بالقرب من أمك . ولا شك أن رفاقي لن يقصروا في دفننا جنبا الى جنب .

قررت أن أذهب الى فرنسا لوحدي وأن أضيع فيهـا الـى الابد . وبذلك يستريح النـاس مني ، فيقـولون في بداية الامر :

ــ وهل هذا مستغرب منه ؟ أليس هو ولد الرومية ؟

وشيئا فشيئا ينساني الناس وتطوى صفحة من تاريخ بيت آيت العربي ، تلك العائلة التي كان قاسي ، زوج جدتي كمومة ، أبرز رجالها . ولن أخالط في فرنسا أبناء البلاد من ايغيل نزمان أو من غيرها من قرى منطقة القبائل بدون استثناء ، لأنهم من

« البيكو » على حد تعبير الفرنسيين . وأنا أتساءل أحيانا من سيعطف على أمثالنا من الناس ؟ اننا نحن أبناء شمال أفريقيا نخيب دائما الثقة التي يضعها فينا من يظن بنا خيرا ويهتم بأمرنا . ولا يملك هؤلاء الا أن يصدوا عنا آسفين مشمئزين ليتحدثوا عنا بالسوء ، وعندئذ تدفعهم طيبة قلوبهم الى أن يحذروا منا غيرهم من الناس الطيبين فيقولون لهم بأنهم جربوا فينا الخير فما أجدى ولا نفع فى شيء . ولا شك أنهم سيجدون آذانا صاغية ، فلا يكون من الناس فى آخر الامر الا أن يتساءلوا لماذا لا تزال المدن الفرنسية الطيبة تستقبل فى أحيائها أمثالنا من الناس المنحطين ؟ لماذا لا يبقون فى ديارهم عوض أن يأتوا الى بلاد يسودها النظام ، لينشروا فيها الفساد ؟

أما بالنسبة لهذا السؤال الاخير فان أي واحد من أبناء شمال أفريقيا يستطيع أن يرد على الفرنسيين بجواب مفحم ، وأن يبرر موقفه مرفوع الرأس . وأنا . وان كنت لا أنوي أن أدافع عن قضيتهم ، الا أنه اذا كان لا بد من شرح حالتنا ، فأنا أقول بأن مثلنا مثل الأمراض الزهرية .. فالزهري يصيب المناطق السفلى الخفية القذرة من البدن ، فهو يتستر عن أعين الناس ولا يزول الا بعدما يصبح الانسان جثة هامدة . وما بلاد القبائل الا جثة نخرها الداء حتى لم يبق منها سوى العظام النخرة . . فكيف لا نفر منها اذن ؟ وكيف لا نتجه الى تلك المدن الفرنسية الطيبة لكي نستقر فيها وننقل اليها ذلك الداء الوبيل ؟

لا أزال أتذكر ما نصحني به الشيخ دحمان الذي رافقنا عند مغادرتنا القرية :

ــ اسمع يا ولدي : اذا أردت أن تنجح فى فرنسا فكن دائما جريئا وشجاعا . كنت أنا أبيع الخردة ، وكلما فكرت فى أمري أقول : هذه الخردة لا يمكن بيعها للناس الا اذا تجردت من الحياء . وينبغي أن لا أنسى أنني فى فرنسا لا فى بلاد القبائل ؛ ويجب علي اذن أن لا أقيم أي وزن للمبادىء ..

فأجبته :

ــ وهل تسرق اذا اقتضى الامر ؟

ــ نعم يا ولدي ، لا بد فى فرنسا من السرقة والكذب والشكوى واثارة عطف الناس . أما الحياء ؛ فاني أحذرك من أن تستحي .

ــ وماذا تفعل لو أهانك شخص وشتمك وقال لك : يا«بيكو» القذر ؟

ــ اتحمل ذلك كله وأصبر عليه لكي أحصل على لقمة العيش .. أما الكرامة .. فشيء أحتفظ به فى نفسي الى أن أعود الى بلادي .

ــ ألا تشمئز نفسك اذا كان الناس لا يثقون بك ويحتقرونك ويلحقون بك الاهانة تلو الأخرى ويهضمون حقك ؟ ألا ترى

أنهــم لا يعاملونك الا بما تستــحق ، وأن تجارتك معهــم خاسرة ؟

ـ فهمت قصدك يا عميروش .. وأنا أنصحك ما دامت هذه هي أفكارك أن لا تتعاطى البيع والشراء . فأنت لا تليق الا للشغل فى المصانع .. ولاشك أن الشغل فى المصانع له حسناته ، الا أن التجارة فيها ربح أوفر يا ولدي . أضف الى ذلك أنني بلغت من العمر حدا لا يسمح لي بالشغل فى المصانع . ولطالما اشتغلت فيها فى عهد الشباب ! وعلى كل حال ، فالتجارة لا تخلو من محاسن شريطة أن لا يكون الانسان خجولا ، وأن لا يجد حرجا من التعرض للناس فى الطريق ليبيع لهم ما لديه من سلع ..

على أنني لم آخذ بهذه النصيحة ، ولم أتجرد من الحياء فى سفرتي الأولى ، ولا أنوي أن أتجرد منه اليوم . وقد قــررت أن أعود الى فرنسا بصورة نهائية . وهذه هي طبيعتي وهذا هو مزاجي . فلا تستغرب بعد هذا اذا عرفت بأنني رجعت من فرنسا خاوي الوطاب ، فارغ الجيب ، ومن حسن الحظ أن الذين تأبى نفوسهم أن يتجردوا من الحياء أخذ عددهم يتكاثر .. ونحن اليوم متمسكون بكرامتنا أشد التمسك .

غير أن الشيوخ يسخرون منا ، ولعلهم على صواب .. انهم على صواب ، لأننا لا نلبث أن نتجرد من الحياء فى آخر الامر ، اذ لا يمضي الا وقت قصير حتى نشمئز من وضعيتنا ، فتتبلد عقولنا ، ونتبع طريق الفساد ، ونتخاصم فيما بيننا ، ونساق جميعا الى مركز الشرطة حيث ننال النصيب الاوفر من السب

والشتم .. هل أفادتنا الثقافة اذن ، نحن أبناء هذا الجيل الشقي المعذب ؟ لا أعتقد ذلك ، لأننا نحن أيضا نحني رؤوسنا على مضض .

وكل هذا الذل نتحمله لأننا سلكنا نفس السبيل الذى سلكه الاولون ، فصرنا مثلهم نهاجر الى فرنسا ، طلبا للرزق ، وشأننا حينما نسافر اليها كشأن طيور الزرزور التي تأتي الى بلادنا فى الشتاء أسرابا ، أو كالفلول المنهزمة من جيش فقد قائده العسكري فى أرض الغربة .

ولقد يقول البعض : لماذا تلوم أبناء قومك وتظلمهم ، وتعزز رأي أولئك الذين دأبوا على الطعن فينا وتشويه سمعتنا فى الخارج ؟ وأنا أستطيع أن أرد عليهم :

ـ يجدر بنا أن لا نبالغ أيها السادة . فكلكم تعرفون بأنه يوجد فى ايغيل نزمان شخص يشغل منصب كاتب فى المركز البلدى ويتقاضى شهريا مبلغا قدره عشرة آلاف فرنك ، وهو يمارس عمله هذا من عدة سنوات خلت ، كما أنه يعنى فى أوقات فراغه بأشجار الزيتون وتربية المواشي ... انه راض كل الرضى عن حالته المادية وما عليكم الا أن تسألوه لتتأكدوا من ذلك .. ثم انه شخص مجرب بأتم معنى الكلمة ، وما من بقعة فى باريس الا ويعرفها . وقد اشتغل سائق سيارة أجرة وحارسا فى مرأب بشارع بيجال وحصل على مال وافر من الطبقة الرفيعة ، ما بين فنانين وانجليز وأمريكان من رواد الملاهي .. وحينما يحدثكم عن

كل ما شاهد في حياته لا تملكون الا أن تحملقوا فيه مشدوهين كأنكم أمام شخص يقص عليكم قصة من ألف ليلة وليلة . وكم أتمنى أن أقول لهذا الشخص :

ـ ماذا عاد بك الى هذا البلد المشؤوم اذن ؟ لماذا تتشبث بكتبك القذر كأنك مسمر عليه ، ولماذا تتعلق بمنصبك الحقير ؟ لاشك انك تبالغ في كلامك .

ولعله سيرد علي :

ـ صحيح أنني أبالغ في كلامي ... ولكنك تعرف جيدا أن كل شيء بيد الانسان ما عدا المستقبل فهو بيد الله . أما الماضي فهو ملك لكل واحد منا لكي يتصرف فيه كما يشاء . ولعلك لا تريد أن أتحدث عن تجاربي الماضية . فلتعلم اذن أنني ذقت الحياة حلوها ومرها وأصبح الشبان يحسدونني على الذكريات التي احتفظت بها ولا يمكن لأي انسان أن يحرمني منها .

وكنت سأجيبه :

ـ طيب يا سيدي .. ولكنك على كل حال موظف حقير لأنك تعودت على أخذ الرشوة من الناس . ولاشك أن العجائز والمغفلين قد ذاقوا منك الأمرين .

وهكذا فان هذا السيد قنعت نفسه بعشرة آلاف فرنك شهريا وتخلى عن جنة الدنيا (فرنسا) وعاد ليقيم في جحيم بلادنا .. ومن يدري ، فلربما تعودنا على هذا الجحيم ، وأصبحنا في حالة

من الحيرة حتى صرنا لا نعرف كيف نخرج منها . أما أنا فسأدبر طريقة ... سوف أرحل عن هذه البلاد ، وأنسى كل من فيها وما فيها . أقسم بالله أنني عنك يا بلادي راحل ..

ولست أنا وحدي من يرى هذا الرأي . فكثير من أبناء ايغيل نزمان قرروا أن لا يعودوا اليها أبدا . ولكنني مع ذلك أتساءل : ماذا يرغبهم فى البقاء فى فرنسا ؟ ربما كان السبب هو أنهم فيها أحرار ... على أن مصيرهم فى باريس هو كمصير الغريق فى نهر السين : فاذا طفت جثة أحد أبناء البلاد ، وظهرت على سطح الماء ، فان الاخوان يجمعون التبرعات فيما بينهم ويرسلون الجثة الى أرض الوطن . وكذلك الامر بالنسبة الى باريس : فهي تطرد منها الغرقى الفاشلين . ولا تستغرب بعد هذا اذا رأيت ذات يوم شخصا يعود الى القرية ، فلا يعرفه من أهاليها الا الشيوخ . انه يعود ليطالب بمكانه فى الكوخ وفى النادي وفى المقبرة . ولقد يتذمر الناس بعض الشيء من قدومه ، ثم يفسحون له مكانا بينهم .. انني لا أشعر نحو أمثال هؤلاء الناس بأي عطف ، ولو كان لديهم أدنى كرامة لما عادوا الى البلاد أبدا .

ما من شك اذن أنهم وقعوا فى حيرة من أمرهم . والرأي عندي أن بلادنا : اما أنها تلائمهم ، فليعيشوا فيها اذن ، لأنها على كل حال أرض الوطن ... واما أنها تجشمهم من المشاق ما لا يطيقون فليرحلوا عنها اذن ، وليهجروها الى الأبد .

اتذكر الآن أنني ، حينما كنت منخرطا فى الحزب ، كنت مولعا بمناقشة هذه المسائل مع رفاقي ، وكنت دائما أشرح المشكلة

بصراحة تامة ، وأحدد موقفي بكل دقة ، ولا أتزحزح عنه مهما كانت الحجج . فاذا حاولوا أن يقنعوني بأن هذا الموقف يجعلني أدور فى حلقة مفرغة ، كنت أرد عليهم بأنها على كل حال حلقة مغلقة كروية بأتم معنى الكلمة ، وأن المشكلة العويصة بالنسبة لكل واحد منا هو أن نحدث فيها ثغرة لكي نخرج منها . ولا أزال الي حد الآن مصرا على نفس الأفكار ، ولا أزال أيضا أعتقد بأننا سجناء عاداتنا وتقاليدنا ، وأن الجهل قد أعمى بصائرنا وأن بعض الأشرار من الناس يستغلون هذا الوضع لفائدتهم الخاصة .

أما بالنسبة الي فالأمر هين لأنني قررت أن أفر من هذا السجن .. بلى ، سوف أرحل عن هذه الجبال التي تسد الأفق أمامي .. وليبق فيها من يشاء .

اليوم الحادي عشر : 30 يناير من الخمسينات

كنت أعتقد منذ أسبوع ، بعد أن تم دفن أمي وبعد أن عزمت على كتابة هذه اليوميات ، أنني سأجد أشياء تستحق أن تقال . ويشهد الله أنني فى حياتي كلها لم أفكر فى مصيري مثلما فكرت فيه خلال هذا الاسبوع . وأنا لا أدري كيف سينتهي هذا الأمر ، وانما أقول فى نفسي كل مساء « خلاص ... لن ينقضي هذا اليوم حتى أعرف نفسي على حقيقتها ، ولن أترك شيئا منها خفيا » غير أنني فى كل مرة أنام على أوراقي وأخر صريع الكرى مكروب الفؤاد . فأين الحقيقة يا الهي ، وأين الحل ؟ كل ما أعرفه عن نفسي أنني لا أزال هنا فى ايغيل نزمان حرا فى أن أتصرف فى أمري كما أشاء ، ولا يزال أمامي مستقبل أستطيع أن أنظمه كما أريد ... غير أنني أستطيع فى نفس الوقت أن أضع له حدا . وبالاضافة الى ذلك فأنا متجرد من كل شيء .. من الدين ، ومن المباديء ، ومن المال . فماذا أفعل ؟ أنا محتار .. الشيء المؤكد هو أنني لن أبقى هنا ، لأن نفسي قد اشمأزت من كل شيء . سوف أجد الراحة فى مكان آخر ، وربما سوف تدركني الشيخوخة فى ديار الغربة ... وربما سوف أجمع نصيبا من المال ،

وان كنت أشك في ذلك ... وذات يوم ، سوف يوافيني الاجل هناك ، في ديار الغربة ، وهو على أية حال ، نفس المصير المحتوم الذي ينتظرني لو أبقى هنا .

ولكن ، لا اخالني سأقدم على هذا العمل . لقد علمتنا التجربة بأن دروب الحياة كلها دروب وعرة . فلماذا اذن أختار الطريق السهل الذي يؤدي الى الهاوية ؟ ألم يكن يجدر بك يا عميروش أن تختار المرتقى الصعب ، فيتصبب جبينك بالعرق ، وتتسارع أنفاسك اللاهثة من التعب ؟ ان الرجل الحق لا ينزل الى الهاوية خائفا وجلا ، بل يرمي بنفسه فيها دون تردد . وما عليك اذن الا أن تختار : فاما أن تصعد الى العلياء ، واما أن ترمي بنفسك الى الهاوية .. .غير أنني ، منذ البارحة ، لم أعد أشعر بالرغبة في أن ألقي بنفسي الى التهلكة ، كما قررت أن لا أستسلم لليأس : فقد استحوذت ذهبية على عقلي ، ولم تبرح صورتها خيالي ولا لحظة واحدة . وكنت قد رأيتها في المنام ، وشبه لي في ذلك الحلم الطويل المضطرب أنني أعيش واياها منذ عهد الطفولة ، وأنني لا أشعر معها لا بالسعادة ولا بالشقاء . وكانت تتمثل لي تارة في صورة أمي ، وتارة في صورة جدتي كمومة ، وتارة أخرى في صورة رفيق لي من رفاق المدرسة ، ممن انقطعت عني أخباره تماما .. ثم حاولت أن أحتضنها بين ذراعي ، ولكنها أفلتت مني متضاحكة ... وآخر صورة احتفظت بها من الحلم ، صورتها وهي وهي تجتاز عتبة الدار لتنصرف . وما لبث الحلم أن أصبح حقيقة ، لأنني توجهت الى دارها بمجرد أن استيقظت من النوم .

ومن حسن الحظ أن ننه مالحة كانت قد ذهبت الى العين . ولكن لشدة تأثير الحلم في نفسي ، أخذت أتحدث معها في أمور عادية ، وبلهجة باردة ؛ مما سبب لها خيبة الامل ، لأنها ربما كانت تتوقع أن أفاتحها في أمور خطيرة .

وعلى اثر ذلك نظرت اليها مبتسما ، ومددت اليها الفنجان بعد أن شربت القهوة ، فاقتربت لتتناوله من يدي ، وعندئذ أحطت خصرها بذراعي ولثمت ثغرها ، فما كان منها الا أن صاحت صيحة خفيفة وابتعدت عني مترنحة لتجلس في استرخاء بالقرب من الكانون .

وقابلتها مرة أخرى في وقت الغداء عندما أتيت الى دار أهلها لتناول الطعام . ولا شك أن أبناء العم سوف تنطلق ألسنتهم بمختلف الأقاويل لأنني لم أعد أتحرج مع ننه مالحة وابنتها . سيقولون عني ما لم يتجاسروا على قوله فيما يتصل بأمي ، وهو أنني جلبت العار للعائلة كلها . ولكن أتحداهم ... ألا يعرفون أنه لا يمكن لمن كان مثلي ، رجلا أعزب ، أن يرتب فراشه لوحده وأن يوقد النار ويكنس البيت ؟ وماذا في الامر من عيب اذا كانت امرأة من الأقارب تعنى بشؤون داري ؟ وما الفرق بين أن تكون هذه المرأة هي عمتي أو بنت عمي ؟

ما عليهم الا أن يسدوا أفواههم ، وأن يغمضوا عيونهم ... أما نحن فسوف نعمل بنصيحة ننه مالحة ... سوف نسد

آذاننا كما فعلت هي في شبابها عندما كانت لا تكترث بأي انسان في تصرفاتهـا .

أنا أعتقد أن ذهبية نقية طاهرة ، وأنها تحبني ، وقد وجدتها اليوم كأنها القطة الوفية اللطيفة . وكانت في كل المرات التي خلا لنا فيها الجو تغريني بمعانقتها ، فاذا عانقتها أراها تغمض عينيها وتقول لي وهي على وشك أن تستسلم :

ـ اتركني ... أنا لا أريد ..

غير أن الشيء الذي لا تريده في الواقع هو أن أتركها .

ـ هل تشعرين معي بالثقة والاطمئنان يا عزيزتي ؟

ـ كل الثقة ، وكل الاطمئنان .

ـ أنت اذن غلطانة ... لأنني لست معصومـا ، ويمكـن أن أرتكب معك غلطة فادحة .

ـ أنا لا أخاف منك .

انها لا تزال صبية ، فعمرها لا يتجاوز الخامسة عشرة، وأنا أحبها فلا يجوز أن أكون معها سافلا دنيئا . وعندما عادت أمها من الحقل في هذا المســاء ظلت منشرحة معي ، غير أنها أبدت أمام أمها شيئا من التحفظ حتى لا يخامرها أدنى شك حول علاقتنا . ولو أنها عرفت ما يجري بيننا لما وجدت أي حرج في أن تتباهى بذلك أمام الناس وأن تورطني في مشكلـة حتى تحملني على القبول :

ـ سأكون له بمثابة أمه ولن أشترط عليه أي صداق ولن نقيم أية حفلة . انه رجل لا كالرجال ، وأمثاله من الشبان الفقراء يتزوجون بدون حفلات ولا رسميات ، وبنتي وعميروش فقيران ، ولكنهما غنيان بالجمال ، وزواجهما سيثير الحسد في قلــوب الكثير من الناس .

لا أظن أن ذهبية تضمر في باطنها أي شيء ... وهي فتــاة كبيرة بالنسبة لعمرها وعاقلة ، غير أنها لا تكلف نفسها آيــة مشقة في التفكير . ومن واجبي اذن أن أفكر في مصيرها ما دمت قادرا على ذلك . وقد انشغلت بها طول النهار وسوف أنشغل بها غدا . وأنا متأكد ـ وان كانت هي لم تصارحني بذلك ـ أنا متأكد أن ننه مالحة ستنصرف غدا الى أشغالها في العين ثم في الحقل ، الا اذا ساءت أحوال الطقس . غير أنني على يقين بأنها لن تسوء ، لأن الطقس لابد من أن يتواطأ معنا .

أنا الآن لوحدي ، والليل قد لف الوجود ، والظلام دامس في الخارج وشاحب في الداخل . أحس بغياهب الظلام قــد تسربت الى نفسي ، ومع ذلك فلابد من أن أتبين معالم الطريق بكل وضوح وأن أتخذ قرارا .. أعني أنه لابد من أن أتحمل مسؤوليتي .

لقد وجدت نفسي كغيري من الناس ، أمام دروب وعرة . وما نحن في الواقع الا قوم فقراء في بلاد فقــيرة جــدا . واني لأتساءل : هل كتب علينا بالفعل أن نكون أشقياء في هذه الحياة؟

لماذا كانت جميع الدروب التي أراها أمامي هي دروب الشقاء ؟ لنفرض أنني استصحبت ذهبية الى فرنسا وتزوجت بها وصرت أتعاون معها لنحقق لأنفسنا شيئا من السعادة ... فهل هذا يا الهي ممكن ؟ وكيف السبيل اليه ؟.. أنا محتار ...

قد يظن البعض أن التفكير في مصير أبناء بلادي هو الذي ينغص علي الحياة ويحرمني من النوم ... بل على العكس ، لا يهمني أمرهم أبدا . وكل ما هنالك أن لي بينهم أصدقاء ، فليس من المستغرب اذن أن أتعرض لذكر أحدهم ... وأنا في الحقيقة لا أتكلم الا عن نفسي ، وأعتقد أن كل واحد منا لا يجوز أن يتكلم الا عن نفسه ، وربما سينتج عن ذلك أن حالة الجميع سوف تتحسن الى حد بعيد .

وأنا ، كلما فكرت في أمري ، أقول « لابد لي من الرحيل مع ذهبية ... ولابد أن أنفض الغبار عني وأن اذهب الى حيث تتوفر الامكانيات ولا تخيب الآمال » . وليس الرحيل بالأمر الصعب ، اذا كنت مستعدا للنسيان .. فما علي اذن الا أن أنسى بأنني من أبناء منطقة القبائل ، وأنني من أبناء الجزائر ... وسوف أوصي جميع رفاقي بأن ينسوا أصلهم وفصلهم ، وسوف أقول لهم : « اذا أوصاك أحد أن تتمسك بأصلك وفصلك ، فاعلم أنه عدوك ، لأنه يريد أن تكون في هذه الدنيا من الخاسرين . واذا كان هذا الشخص يتنعم بالسعادة والهناء ، فلأنه يستغلك ويتنعم على حسابك ... واذا رحلنا عن هذه

البلاد ، فسوف تسوء حالة من كان يستغلنا ويتنعم بعرق جبيننا ، ولكن حالتنا سوف تتحسن »

ان الزيارات متبادلة بين الجزائر وفرنسا : اذ ما فتيء الفرنسيون يزورون بلادنا منذ ما يقرب من قرن ، ونحن نزور بلادهم منذ نصف قرن ... انه تبادل أخوي ، والدليل على ذلك أنني مرتبط بنسب الى كل من الجزائر وفرنسا . وهذا ما كنت دائما أقوله للرفاق ممن يطالع الجريدتين : « الجزائر المستقلة » و « التآخي بين الاجناس » . وكم مرة شرحت لهم كيف غزا الفرنسيون بلادنا ، وكيف وزعت عليهم السلطة الحاكمة الأسلحة والمعدات والمواشي والاراضي والمنازل . وكيف استقروا في بلادنا أسيادا ، محفوفين بالرعاية . وأخذوا يستثمرون الاراضي لصالحهم حتى أصبحوا يشعرون بأنهم في وطنهم . أما عرب المنطقة التي يقيمون فيها ، فليسوا في نظرهم سوى جماعة من « الانديجين » كما يسمونهم ، أي حيوانات متوحشة غدارة ، لابد من الاحتراس منها ، ولابد أيضا من تطويعها بالعصا .. ان « الرسالة التحضيرية » لم تكن مجرد شعار ، بل أرادوا أن يطبقوه قولا وعملا .

واليوم ، كلما أتى أحدهم من فرنسا الى بلادنا ، فانه لا يشعر أنه مهاجر غريب ، بل يأتي ليستوطن فيها ؛ ولا يلبث أن يصبح من الاغنياء لأنه يجد كل التسهيلات . فالموظف يترقى في منصبه بطريقة سريعة . وان كان الناس لا يستغربون هذه السرعة ، لأنها أصبحت معتادة ... وكذلك شأن التجار ورجال الصناعة

والمقاولون .. فانهم يحصلون على أرباح خيالية ، ومع ذلك فلا يحمدون الله على حالتهم . وبما أن هؤلاء محل ثقة ، فان الحكومة تقلدهم المسؤولية ، ولذلك تجد بينهم من يمثل الأهالي ويتحدث باسمهم ، ويدافع عن « مصلحتنا » ومصلحتهم فى نفس الوقت . وهذا الأمر يذكرني بشخص من عندنا يتاجر فى الزرابي ، وهو صاحب نوادر وفكاهات . وقد جرب الأيام وذاق حلوها ومرها . وأحب شيء اليه أن يتشفى من المتشردين الفرنسيين البؤساء ، فاذا صادف أحدا منهم نائما على مقعد من مقاعـد الساحـات العامة فى باريس ، فانه يهزه ويوقظه من النوم ، ويدخل معه فى الحديث ، بلا خوف ولا وجل ، فيقول له :

ــ قم يا غافل ، كفاك نوما ...

ــ أهذا أنت ؟ ماذا من جديد ؟

ــ لا شيء ... سوى أنني أبيع الخردة كعادتي .. أتريد مني نصيحة ؟ أنا لا أمزح معك .. اذا كنت هنا تعاني البؤس والشقاء ، فأنا أدلك على مكان تستطيع أن تصبح فيه شيخ بلدية .

ــ ..!!

ــ نعم يا صديقي . عليك أن تذهب الى الجزائر وستصبح شيخ بلدية فى الانتخابات القادمة ، والله قادر على كل شيء ... صدقني ما أقول واعمل بنصيحتي . اذهب الى الجزائر يا صديقي .

أما أنا ، فأفضل من الفرنسيين من ولد في الجزائر وولد آباؤه أيضا في الجزائر . فلا جدال أن هؤلاء « اخواننا في الوطن » . ولقد يقول البعض انهم يتمتعون بامتيازات ... ولكنهم اخوة لنا في الوطن على كل حال . وأنا أشعر نحوهم بالعطف والمودة لأنهم لا يخشون من أحد عندما يعتزون بأصلهم ، فيقولون للفرنسيين الموجودين في فرنسا :

ـ أتدرون من هم الجزائريون ؟ نحن الجزائريون ... والجزائر هي نحن .. انظروا ماذا أنجزنا من أعمال واشكروا نعمتنا عليكم يا سادة فرنسا ، ولا يسمحن أحد منكم لنفسه بانتقادنا .

ولكن الشيء المؤسف أنهم يخاطبوننا بكلام آخر ، فاذا قلنا لهم اننا نحن كذلك جزائريون ، اذا بهم يردون علينا :

ـ أنتم جزائريون ..؟ طيب.ولكن ، ماذا تتصورون أنتم يا جماعة « الأنديجين » ؟ هل تعتقدون أننا سواسية ؟ فلتعلموا اذن أننا فرنسيون ... عودوا الى أماكنكم الوضيعة واعرفوا قدركم وقدرنا .. أو تريدون أن ترموا بنا الى البحر ، أيها الغدارون ، النكارون للخير .. ؟ أنقذينا يا فرنسا من شر هؤلاء .

ان « اخواننا في الوطن » يعرفون من أين تؤكل الكتف ، ونحن لا نؤاخذهم على ما يفعلون لأنهم وقعوا على مائدة دسمة فكيف لا يأكلون ؟ هذا الأمر لم يعد يحتاج الى نقاش ، والمسألة واضحة فيما أرى : فهؤلاء المهاجرون الذين قدموا الى الجزائر ، أصبحنا نحن أهل البلاد نغبطهم على نعمتهم ، لأنهم

يحتلون أعلى المناصب ، بل جميع المناصب ، وليس منهم أحد الا وتجده قد أثرى وجمع مالا وافرا بعد سنوات قليلة . أما نحن أهل البلاد ، فلم يبق لنا شيء فى بلادنا . وما بقي لنا اذن الا أن نذهب بدورنا الى بلادهم ... ولكن لا لنحتل المناصب ، ولا لنجمع الثروات ، بل لكي نحصل على رغيف العيش ، سواء عن طريق العمل الشريف ، أو التسول ، أو السرقة . وهذه هي الصفقة الخاسرة التي يريدوننا أن نرضى بها . والحقيقة أن بلادنا ليست أكثر فقرا من بقية البلدان الاخرى ... ولكن ، قل لي بربك لمن هي بلادنا ؟ أهي لنا ونحن نموت فيها من الجوع ؟ كلا ...

سوف أقضي نهار الغد مع ذهبية ، ولعلني بذلك أقع فى الفخ المفضوح الذي نصبته لي تنه مالحة . واذا ما حدث هذا الامر فلن أتأسف على كل حال لأنني أحبها ... ولا شك أنها سوف ترافقني الى حيث أشاء . سأذهب معها الى البلدان المتحضرة لنطالب فيها بمكاننا تحت الشمس . سنعيش ونناضل .. وسأكون وفيا مخلصا لها لأنها أملي الوحيد فى الحياة .

سوف أستقر فى حي من أحياء مدينة كبرى . ولن يكون هذا الحي فى سان دنيس ولا فى كوربفوا ، ولن تكون هذه المدينة الكبرى هي باريس ولا مرسيليا ولا ليل . بل سأختار المدينة التي ترحب بي وتعتبرني كأحد أبنائها . وحتى لو قدر لي أن أستقر فى احدى تلك المدن ، فسوف أدخلها بقلب طاهر ،

وعينين تشع فيهما البراءة ، ولذلك فسوف أراها فى ثوب جديد ، وسوف أحبها .

كوني يا أماه واثقة أن أهالي تلك البلاد لن يرجمني أحد منهم بالحجارة ... فيا ليتني ما تربيت ولا نشأت مع هؤلاء الأجلاف الغلاظ المقيمين فى الجبال .. ولعلك الآن تعذرينني على موقفي منهم .

ولكن ، ها أنا ذا انفعل مرة أخرى ، وأتخذ فى الكلام لهجة ليست من طباعي ، ولعلني متأثر بالظلمات الحالكة وبالصقيع الذي أخذ ينزل فى هذه الليلة الباردة الهادئة . والصمت الرهيب يحدق بي كأنني أعيش لوحدي فى مكان بارد برد الصقيع ، وبالقرب مني هذا الموقد الذي بدأ يخمد ، فلا أحرك ساكنا لأؤجج ناره . وأنا هنا لوحدي فى هذه الدار ، وما من أحد يفكر معي فى كل هذه الأمور وفى مصير اخواني .. غير أنني أحس بغضب لا أدرك له سببا ، يجتاحني من جميع النواحي ، وينزل من السقف ، وينفذ من خلال الجدران ، ويصعد من جوف الارض ، ويملأ الدار كأنه ضباب ، ويدخل الى بدني من خلال المسامات ويخنق أنفاسي . يا ليتني كسائر الناس ، فلا أتدخل فيما لا يعنيني ولا أقول لأحد : يجب عليك أن تفعل كذا أو كذا وأن تفرق بين الأخيار والاشرار ... فلماذا أكلف نفسي كل هذا العناء ما دام الامر لا يتعلق الا بي ؟

أريد منك يا ذهبية أن تكوني على علم بأنني أحبــك ... واعتقد أنك تبادلينني الحب بمثله ، وهذا منك يكفي ليجعلني سعيدا .

أريد أن تكوني على علم بأنني قضيت فصل الشتــاء فى باريس عدة مرات فعدت منها مريضا مكدودا ... وكنت مــن يومين فقط أقول فى نفسي فرحا مسرورا :

« اقتربت ساعتي الاخيرة ... سوف أرتاح من كل شيء ، وما بقي لي الا أن أسلم أمري لله » . ولكن ، أنا الآن متأكد أنني لست مريضا ولا أريد أن أموت ، بل قد عاودني الامل فى أن أكون قويا موفور الصحة والشباب ، وأن تمتد بنا الحياة طويلا ... ولعلك تدركين لماذا كنت أمانع ولماذا كنت دائمــا أشعر بوحشة ثقيلة ...

أنا لا أغبط المتنعمين بالسعادة فى هذه الحياة ، ولا أحسدهم على الخيرات التي رزقوا بها ... وان هي فى الواقع الا ثمرات جهودهم ، فليهنأوا بها غانمين . ولعلهم ورثوا تلك النعمة من آبائهم وأجدادهم الذين عرفوا المشاق والآلام وما فتئوا لمــدة أجيال يكدون ويعملون ويقاومون الفقر فيتغلبون عليه أحيانا ويغلبهم أحيانا أخرى ... ان هذا الأمر لا يخفى علي ، فمــن الطبيعي اذن أن يدافعوا اليوم عن مصالحهم وأن لا يتكرموا علينا بذلك النصيب من السعادة التي أخذنا نحن أيضا نطالب بها ... هذا الأمر لا يخفى علي .. أنا لا أريد أن أبريء أبناء قومي

من العيوب ، فنحن فى ذلك كغيرنا من الناس . ولكن الشيء الذي لا أقبله هو القول بأننا فى الجملة قوم لا يصلحون . فلماذا يا ترى لا نصلح؟ان السبب فى ذلك بسيط،وهو أننا قوم محرومون من الثقافة . وكما أن أراضينا البور لن تصلح الا اذا تعهدناها بالخدمة والحراثة ، فكذلك نحن لا نصلح الا اذا تثقفنا .

كثيرا ما يقال لنا : « أنتم أنانيون ولا تهتمون الا بمصالحكم الخاصة ... وليس لديكم ولا ذرة من الكرم والاخلاص والنبل فى العواطف » وعندما نسمع الناس ينكرون علينا ذلك نعترف بالحقيقة وان كنا نشعر فى قرارة أنفسنا بوجود قوة كامنة تريد أن تنطلق . ونحن اليوم ، وان كنا مغلوبين على أمرنا ، الا أننا نشعر بوجود تلك القوة . وعندما تتحرر تلك القوة وتندفع الى الامام ، فسوف تثير دهشة العالم ... وعندئذ سوف يعرف الناس فى شيء من الذهول أننا ــ رغم ما فينا من عيوب ــ قادرون على أن نجعل أمم الارض تنظر الينا بعين الاحترام والتقدير .

ولكن ، ما بالي أتدخل مرة أخرى فى هذه الأمور ؟ ومن أنا حتى أسمح لنفسي بذلك ؟ وبماذا أمتاز على أي انسان آخر ، عن أية امرأة جاهلة ، عن ننه مالحة فى بساطتها وطيبة قلبها وصفاء نفسها ؟ هل أمتاز عليهم بالثقافة ؟ ولكن هل من المؤكد أن الثقافة هي الدواء الناجع ... والداوء الوحيد ؟ وزيادة على ذلك فأنا فى أعماق نفسي لا أقيم أي وزن لجميع هذه الامور ... سأمضي فى سبيلي مرتاح البال ؛ ولن أتأسف على شيء مما سأتركه ... أما بالنسبة لذهبية ؛ فأنا محتار ..

وأنت يا أمي ، كوني مطمئنة .. فقد آن الأوان أن أسلك معك الطريق الى أعالي الجبل ، وسيكون طريقنا وعرا كغيره من الطرق ولكنه طريق مجهول لا يعرفه أحد . وكلما مضينا فيه الى الامام سنجده يتحول الى درب ضيق محفوف بالأحراش والنباتات الكثيفة ، ولكن سنظل نسير على دربنا ولن ندعو أحدا لمرافقتنا ... وكل من سار على الدرب وصل ...

اليوم الثاني عشر : 31 يناير من الخمسينات

لم أرد أن أتعجل الأمور قبل الأوان ، لأنني على يقين أن كل شيء سيتم على أحسن ما يرام . وكنت هادئا كأنني تخلصت من همومي وتجردت من غرائزي الدنيئة . ولم أشعر بأي تعب ولا بأي انزعاج .. وأظن أن الحالة التي كنت فيها هي حالـة الانسـان السعيـد .

قلت لها وأنا أبتسم فى غباوة :

ــ أمك راحت الى العين .. أليس كذلك ؟

ــ لا .. بل ذهبت الى الحقل لقطف الزيتون .

ــ تقصدين زيتون شيخ البلدية ، أليس كذلك ؟ انه شخص أكرهه .

ــ لا يهمني ذلك ... وعلى كل حال فقد أعطانا شغلا .

ــ انه رجل غني وليس كمثلنا من المساكين . ولعلك تعرفين كيف يكون القبائلي اذا رزقه الله بالمال .. انه أبخل الناس وأكثرهم سرقة . وزيادة على هذا فما قيمة المال فى هذه البلاد ..؟ صفر ..

ـــ أنا لا أحب الأغنياء ولا المال .

ـــ وأنا يا عزيزتي هل تحبينني ؟.

ـــ نعم .

ـــ ولماذا تحبينني من فضلك ؟

ـــ لأنك لست غنيـــا .

ـــ وهل أنت أيضا ترافقين أمك لقطف لزيتون ؟ وهل تقابلين ابنه فى الحقل ؟

ـــ يا لك من غيور . فلتعرف اذن أنني أرافقها الى الحقل وألتقي هناك بالأب والابن وبجميع الناس .

ـــ انه يساوي الصفر عندي . لقد كان فى باريس مثل البنت .. أما هنا فقد صار يتجبر لأن عائلته تملك معصرة الزيت .. انـــه وضيع ، ولا يستحق أن أتخاصم معه .

ـــ دعنا منـــه .

ـــ مدّي يديك يا ذهبية لأضمهما بين يدي .. طيب .. والآن هل تعرفين لماذا أحبك ؟

ـــ أنت أعرف مني بذلك . أما أنا فأحبك لأنك لست كبقية الآخرين .

ـــ هذا ما يقوله جميع الناس يا غبية .

ـــ لا أكترث بما يقولون .. وأنا أيضا لست كغيري من البنات .

ـــ لا تهربي مني ..

وأحطت خصرها بذراعي فانثنى رأسها على كتفي ، وبقينا كذلك لحظات بدون أن نتبادل أية كلمة . وكان الباب منفرجا وكانت الغرفة مظلمة قليلا ... فارتاحت نفسها لتلك الظلمة الخفيفة وأحسست على صدري بنهديها النافرين ، وشعرت بهما دافئين فضممتها بقوة وعنف الى صدري ، وقلت فى نفسي : « لقد نجحت الخطة وما علي الا أن أستمر على هذا المنوال وأن لا أتراجع ، لأن الموقف حرج » .

لا أدري كم بقينا من الوقت على تلك الحالة والى أي حد وصلت معها فى تلك المداعبات . وكنت أسمعها تردد بين الحين والآخر نفس النغمة :

ــ لا .. لا أريد .. اتركني ..

فأجيبها :

ــ ولكني أريد .. هل سمعت ..؟

ثم تجهش بالبكاء .. فأعرض عنها ، ثم تأخذ فى الحديث ، وأثناء ذلك نسمع أحد أبناء العم أو أحد الأعمام يمر بالقرب من الدار ، فيبلغ مسامعنا وقع خطواتهم أو سعالهم . ولاشك أيضا أنهم سوف يستنكرون سلوكنا . غير أنني لا أقيم لذلك أي اعتبار . ان مالحة قد خرجت لقطف الزيتون فى حقول شيخ البلدية مقابل الخمس من الغلة .. أما أنا فلن أخرج من الدار ، بل سأقضي النهار مع ذهبية . وقلت لها :

ـ هل تعرفين بماذا تتميزين عن بقية البنات ؟ المسألة بسيطة جدا : فأنت أجمل منهن ...

ـ لا ، ليس هذا هو قصدي ، وانما أردت أن أقول بأنني لست كبقية البنات لأنني مسيحية ، واسمي هو مونيك .

ـ أهذا هو الاسم الذي تعرفين به لدى المسيحيين ..؟ طيب ، سأناديك باسم مونيك ابتداء من اليوم . والغريب أن هذا الاسم يعجبني . وماذا فيه من عيب ؟

ـ المشكلة هي أنني أحبك ، غير أنني لست جديرة بك . وينبغي أن تعرف بأنني تألمت كثيرا في صغري .. أرجوك .. لا تقاطعني ، اذ لابد أن أصارحك بأنني جرحت في صباي جرحا لا يمكن أن يندمـــل .

ـ ماذا تقصدين ؟ اشرحي لي .

ـ جاءتني المصيبة من والدي .. كان يتعاطى الخمر ، وكان في كل أسبوع يعود من السوق سكران لا يعي ، فيسب أمي ويسبني أنا أيضا .. ويقول لي ..

ـ هل اعتدى على عفافك ؟ لماذا قلت بأنك لست جديرة بي ؟

ـ ما هذا الكلام ؟ هل أنت مجنون ؟ ليس هذا هو المقصود ، وانما قال لي بأنني لست ابنته ، فترامت عليه أمي ، وهي من شدة الغضب تريد أن تفقأ عينيه ، ولكنه ظل يصرخ ويردد :

« لست بنتي ، لا ، لا ، لا » .

ـ وفيم يضر ذلك ؟ ان لم تكوني بنته فأنت على كل حال بنت غـيره .

ـ لا ... بل أنا بنته هو ، ولكنه أراد أن يحطم قلبي الى الأبد . والآن ، خلاص .. لن أفكر فيه ، كما لو أنني خرجت الى حيز الوجود لوحدي بدون أب .. والحمد لله .. عندي أم أحبها ، وان كنت أحبك أكثر مما أحبها ، ولا أدري لماذا .. كنت دائما أحلم باعطاء قلبي وروحي لشخص لا أعرفه من قبل ، شخص تجمعني به المصادفة على دروب الحياة. وها هو ذا قد تحقق الحلم من غير أن أسعى الى تحقيقه .. كان أبي غيورا جدا ، ولعله على حق في غيرته .. كان دائما مقطب الجبين ، محترسا من الناس ، ولا يتكلم بما يجيش في خاطره الا بعد أن يشرب ويسكر ، وكان لا يصلي أبدا لأنه يكره الآباء البيض ولا يثق بهم أبدا . ومع ذلـك ...

فقاطعتها قائلا :

ـ هل أنت اذن بنت أحد الآباء البيض ؟ قولي الحقيقة ، فلن أنزعج اذا عرفت ذلك : من منهم تشبهين ؟

ـ لماذا تقول لي هذا ؟ وما لي أراك قاسيا ؟

ـ لست قاسيا ، ولكن لا أحب الآباء البيض والمعلمين والأطباء ... أنا لا أحبهم بالمرة ، وأنا متضايق منهم .

ـ لماذا يا عزيزي أنت متضايق منهم ؟

وعندئذ ألقت الي نظرة تبعث على الشفقة فرأيت عينيها اللتين عكرت صفاءهما الدموع ، واندفعت اليها لأحتضنها بين ذراعي ولأواسيهـــا .

ويشهد الله أنني كنت حينذاك مخلصا ومستعدا لاعطائها قلبي وحياتي .. يشهد الله أنني شعرت بالسعادة وأخذت أفكر فى ألوف من المشاريع ... يشهد الله أن جميع الأمور التي كانت معقـــدة اتضحت فى ذهني ، فأدركت فجأة لماذا أنا لا أزال فى ايغيل نزمان ولماذا بقيت فى هذه القرية وحيدا بدون أنيس .. أدركت أنني شاب فى الخامسة والعشرين بن العمر ، أتمتع بالصحة والجمال وأنعم بالمودة ... وقد عثرت على هذه الضالة المنشودة فى اللحظة التي انغلقت فيها جميع الأبواب أمامي ، واعتراني ملل من كل شيء بل حتى من نفسي ... وها أنا ذا أرى الجدار الذي سد أمامي الطريق قد اختفى بتأثير قوة سحرية ، وأن الأفق المغلق انكشف فجأة ليطلعني على عالم مشرق رائع .

والآن ما العمل ؟ ها أنا جالس مرة أخرى أمام الصندوق ، ولكن للسرة الأخيرة .. جالس أمام أوراقي لأسجل عليها بأنني أرفض الحياة وأتمرد عليها ، وأنني لا أزال كما كنت فى هذا الصباح ، مفتنح العينين ، صافي الذهن تماما ... أنا أرفض كل شيء ما عدا هذه القارورة الصغيرة من الأنيسات التي سأشربها حتى الثمالة ، وما عدا هذا الأنبوب من أقراص الجردنال التي سأذيبها فى العرق قبل أن أتجرعه . ولاشك أن صديقي سي العربي سيندم على ما فعل

حين أرشدني الى هذه الوسيلة ، ولكنني أشكره من أعماق قلبي لأنني جبان الى حد ما ، وأخاف كثيرا من الألم . ولعل الطبيب سيندم هو أيضا على ما فعل حين وصف الجردنال كدواء لأمي بدون احتياط . وعلى كل حال فلن يعرف من الأمر شيئا .

ومع ذلك فلست يائسا ، وكل ما فى الأمر أنني أصبحت عديم الاحساس . وانه لشيء غريب أن لا أحس لا بالرغبة ولا بالغضب ولا بالحقد ، كما لو أن روحي قد انفصلت عني ووقفت أمامي تواجهني وتملي علي بعض الأفكار التافهة التي تسجلها بصورة آلية على الورق يدي الطيعة ، تلك اليد التي ستمتد عما قليل الى زجاجة العرق لتسكب منها بعض الكؤوس . وفى الحقيقة من الأفضل أن لا أفكر الآن فى شيء والأحسن أن ألازم الصمت .

جاء دوري لأقول لك يا ذهبية : « لا أريد ... اتركيني ... لا أريد » . وقد انتهى بك الأمر الى القبول ، بل كنت دائما فى قرارة نفسك تريدين ، وأنا أعرف أنك تمانعين فقط ، وزيادة على هذا فقد عرفت عنك فى الحين ما كنت فى السابق أجهله ، ولا تعتقدي أنني ألومك على ما فعلت ، أو أشك فى حبك ومودتك .. كلا .. ولكن المشكلة هي أنني لست فى حاجة لا الى الحب ولا الى المودة .. لقد فات الأوان يا عزيزتي ، ولكم كنت فى السابق أقول فى نفسي : « يا لها من فتاة طاهرة بريئة » والآن صرت أقول : « ماذا بقي لي من تلك الفتاة التي كنت أعبدها ؟ » .

قلت لي مرة :

ـ اذا ما هجرتني ذات يوم فسأرحل عن هـذه القريـة ... سأختفي عن الأنظار ، وأعتبر نفسي كالميتة . وأنا أعرف بعض الراهبات اللواتي يقمن برعاية الفتيات اليتيمات . سأذهب عندهن لأمكث هناك الى آخر العمر . وهذه الفكرة بدأت تراودني في هذه الأيام الأخيرة .

قلت لي ذلك فلم أرد عليك بشيء ، وأنا الآن اريد أن أسألك يا عزيزتي ، متى بدأت هذه الفكرة تخطر ببالك ؟ لعلك تريدين مني أن أجيب على سؤالك وأن أقول : « انها نادمة على ما فعلت .. .وهذه الفكرة بدأت تراودها منذ ذلك اليوم المشؤوم .. »

ينبغي أن تعرفي مرة أخرى أنك حرة .. حرة في أن تتصرفي كما شئت بجسدك . وفي الحقيقة ما الفائدة من أن أعذب نفسي بمختلف الافتراضات والاتهامات ، وأن أبحث عن ذلك الشخص الذي قام معك بذلك العمل الشنيع ؟ ما الفائدة من أن أغفر غلطتك وأنساها ؟ وهل تظنين أنه من الصعب علي أن أعرف الحقيقة ؟ وعلى سبيل المثال ... أليس ذلك الشخص هو ابن شيخ البلدية ؟ وعلى كل حال ، فسواء كان هو أو غيره أو قوم آخرون ، فالمسألة واحدة .

طبعا قد يكون من حقك أن تحاسبيني على ما أحاسبك عليه . ولاشك أنك لو نظرت الى سلوكي لوجدت أمورا كثيرة تستحق اللوم .. ولكن القضية ليست كما تتصورين . ولتعرفي أولا أنني

لا أحاسبك على شيء . وزيادة على ذلك لا أري لزاما على نفسي أن أكون عاقلا، ومن ذوي الاخلاق الفاضلة.. والواقع يا عزيزتي أنه لا توجد بيني وبينك أية مشكلة ، وكل ما في الامر أنك كنت معي لطيفة ، فشكرا لك على لطفك،وأتمنى لك كل سعادة ..

ولكن ما بالي قد غفلت عن أمري ؟ ها أنا ذا أسمع صرير الباب ... فهل أنت الطارق يا مقران ؟ لم أكن أتوقع مجيئك في هذه الليلة ، بل كدت أنساك تماما وأضرب عنك صفحا الى الأبد . ولكن،معك حق يا مقران وحسنا فعلت اذ أتيت لأنني الآن لابد من أن أنقطع عن التفكير وأنشغل بك وحدك .

سامحيني يا ذهبية ، فقد أدركت الآن كل شيء ... أدركت قصدك حين قلت لي منذ حين ، وأنت تجهشين بالبكاء :

ـ أراك تريد الانصراف .. خذ حذرك من مقران ... انه ينوي أن يقتلـــك .

ولكن هززت كتفي غير مكتـــرث ، وانصرفت وأنـــا أشعـــر بالاشمئزاز .. كلماتك لا تزال ترن في أذني : « انه ينـــوي أن يقتلك » . ولكن ما الفائدة من هذا التحذير بعد ما اعتدى على عفافك ، فلما رآك غادية الى الحقل سار من ورائك وأخـــذك بالغصب والقوة . ولاشك انك صارحت أمك بذلك ، غير أنكما معا احتفظتما بالسر فبقي مكتوما . هذا ما أتصوره عن المسألة ، وأنا أستبعد أن تكون الأمور قد حدثت على شكل آخر ، فليس

من الممكن مثلا أن تكوني قد استسلمت لــه عــن طواعيــة واختيار ، ومثل هذه الفكرة لا تخطر على البال أبدا . ولكنه على كل حال انتقم لنفسه منك يا ذهبية المسكينة ... والآن انتهى كل شيء بيني وبينك ، ولا تظني أبدا أن موقفي منك ناتج عن حرصي على ما يتعلق به الناس من قيم ومبادىء ... كلا ، بل أنا عازف عنك لأنك خيبت أملا بسيطا ، وكنت أنت ذلك الامل الذي أعاد الثقة الى نفسي وجعلني أعتقد أنني سأصبح رجلا عاقلا كغيري من الناس . كنت ذلك الامل الذي جعلني أطمع فى السعادة والحب الطاهر ، وان كنت فى الواقع لا أستحقــه ، ذلك الحب الذي كدت أحصل عليه ، بل أخذت أستعد لأنتزعه من يد الدهر .. أما الآن فأنت فى نظري كالشخص الغريب الذي لا أعرفــه ..

ها أنا ذا أسمع وقع خطوات فى باحة الدار ، ولعله مقران ... انه يقترب من القفل . الحمد لله الذي ساق أقدامك الى هذا المكان فى هذه الساعة من الليل .. الريح تصرخ مــن خــلال شقوق الأبواب مصحوبة بالبرق والرعــد ... رأســي يضــج بالصخب مثل السماء . وأنا أتصور يا مقران أن غضبك شديد .. لا يقل شدة عن غضبي ،ودويّ الرعد الذي سيغطي أصواتنا ، ويطغى عليها .. غضبك شديد ، والحقد قد أعماك يا مقران . أما أنا فلم أعد أسيطر على نفسي من الغضب .

دعني من هذه القارورة فلن أمسها ، وربما سأشرب منها فيما بعد .. أما الآن هيا بنا ، أنا وأنت يا مقران .

اخبار محلية

(من مراسلنا الخاص)

حادث انتحار آخر في ايغيل نزمان .

ان قرية ايغيل نزمان الهادئة رزئت مرة أخـــرى بحادثة انتحار مؤسفة . فقد عثرت احدى النساء على المدعو عامر نايت العربي جثة هامدة ، وكان ممدودا بالقرب من البـاب الخارجي المفتوح على مصراعيه . وقد اخترقت صدغه رصاصة مسدس . وفي الحين توجهت المرأة السابقة الذكر ، وهي من أقارب القتيل ، الى مكتب المركز البلدي لاطلاع شيخ البلدية وكاتبها الموقع أسفل هذا التقرير ، وما ان بلغهما الخبر حتى توجها الى منزل القتيل ، فوجدا بالقرب منه السلاح الآنـف الذكر . وأمر شيخ البلدية أن يظل كل شيء على ما هو عليه في انتظار وصول السلطات ، وأجرى بدون تريث مكالمة هاتفية مع رجال الدرك والنيابة الذين وصلوا في الظهـيرة لاجـراء التحقيـق .

وبما أنه عثر فى المنزل على قارورة من العرق وأنبوب من أقراص الجردنال ؛ فقد ثبت نهائيا أن سبب الوفاة يعود الى الانتحار . ونظرا الى رداءة الطقس ، وعصف الرياح فى الليل ، وقصف الرعود ، وسقوط المطر ، فلم يسمع أي واحد من الجيران الطلقة النارية .

ومن الجدير بالذكر أن عامرا شاب يتمتع بتقدير جميع الأهالي ، ولم يكن له أي عدو فى القرية أبدا . ولاشك أن عمله المؤسف يعود الى توتره العصبي بعد وفاة أمه منذ عشرة أيام ، وبعد انتحار امرأة عجوز مجنونة منذ بضعة أيام . ويعتقد الناس إن هذه الحادثة الأخيرة ربما دفعته للاقتداء بما صنعته تلك المرأة .

آكلي نايت سليمان

نقلا عن جرائد 2 فبراير 1950

انجز طبعه على مطابع
ديوان المطبوعات الجامعية
الساحة المركزية بن عكنون ــ الجزائر









■ مولود فرعون من مواليد 8 مارس 1913 . مسقط رأسه قرية تيزي هيبل ، تخرج من دار المعلمين الابتدائية (بوزريعة 1932 ـ 1935) تقلّد عدّة مناصب آخرها مفتشية المراكز الإجتماعية ، وفي 15 مارس 1962 ، بينما كان يشارك في إجتماع عقد بمكان سيمى « القصر الملكي » الواقع في حي الأبيار ، إذا بمُفْرَزةٍ من المنظمة المسلحة السّرية تداهم قاعة الإجتماع وتمطر الحاضرين بوابل من الرصاص ، كان الفقيد يؤمن بأن المدرسة قادرة على تحرير الإنسان . وما أصدق عمروش حينما قال على إثر اغتياله : « هو من خيرة أبناء بلادي ، وتربى على القانون الصارم ، قانون (النيف ، أو الأنفة) . » وكان من ذوي الموهبة الفذّة . حتى إنّ بعض النقّاد يعتبرونه أجدر من البير كاميو بنيل جائزة نوبل ، وأعماله مترجمة إلى العديد من اللغات .

■ قد يظن البعض أنّ (الدروب الوعرة) مُجرّد قصة حبّ وغرام ، وغيرة وانتقام . ولكن الناقد سرعان ما يكتشف وراء هذه العواطف المحتدمة صراعا بين القديم والجديد ، بين الشّباب والشيوخ ، بين التبشير والإسلام . . قيل عن فرعون بأنه لم يكن من الكتّاب الملتزمين ، ولكنْ ، يشفع له على هذا الموقف أنه كان من ذوي الأحساس المرهف : فكل رواية له إنما هي أنشودة حلوة يمجّد فيها أرض الآباء والأجداد .

السعر: 66,00 دج